بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم صل على سيدنا محمد

كتاب : العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى (الأندلس - صقلية - بلاد الشام)

د / حسن حلاق

الله غالب

د. حسان حلّاق

العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى

الأندلس - صقلّية - الشام

١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م



الله غالب

صورة الغلاف: بائع السجاد لسيد رابح.
لوحة زيتية أصلية قياس ٥٠ × ٣٥
(الدار الوطنية للطباعة والنشر والتوزيع)

الله غالب

العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب

الله غالب

فهرس الموضوعات

القسم الثاني

العلاقات الاسلامية ـ المسيحية في صقلية

القسم الثالث

العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في بلاد الشام

العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى

مقدمة

لا يقصد بالعلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى العلاقات الحربية والعسكرية فحسب التي سبق أن تمت دراستها في مجالات أخرى، ولكن المقصود بالعلاقات في هذه الدراسة العلاقات الحضارية من علمية وثقافية واقتصادية واجتماعية وسياسية أيضاً بين شعوب المشرق العربي وشعوب المغرب من المسلمين والأوروبيين معاً وهي العلاقات التي يجب أن تدرس بعناية ودقة نظراً لأهميتها الحضارية ونظراً لأهمية التمازج الحضاري بين الشرق والغرب وبين الاسلام والمسيحية منذ العصور الوسطى عبر المعابر الحضارية.

ولقد كان لانطلاقة المسلمين من شبه الجزيرة العربية الى بلاد الشام ومن ثم إلى إسبانيا وبعض بلدان أوروبة وجزيرة صقلية، الأثر البارز في نقل الحضارة الاسلامية إلى البلدان الأوروبية وكان لانطلاقة الحملات الصليبية باتجاه الشرق الأثر الحضاري البارز بالإضافة إلى الآثار والنتائج الحربية والعسكرية.

والحقيقة فإن الاسبان استطاعوا إخراج المسلمين من الأندلس، واستطاع الافرنج الصقالبة إخراج المسلمين من صقلية، كما استطاع المسلمون إخراج الصليبيين من الشام، غير أن النتائج الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والإدارية والسياسية استمرت ولقرون عديدة في المجتمعات الأوروبية والعربية على حد سواء. ثم إن إخراج المسلمين من الأندلس وصقلية لا يعني إخراج ثقافاتهم وعلومهم، بل على العكس فقد استمر الاسبان والصقليون في الاستفادة من هذه الثقافات والعلوم. كما أن الصليبيين عندما خرجوا من الشام - أو أثناء

وجودهم - استفادوا كثيراً من المسلمين، ونقلوا معهم من الشرق إلى أوروبا الكثير من علوم المسلمين ومن التراث الاسلامي والعربي.

ولا بد من الإشارة إلى أن للحضارة الاسلامية العربية فضلاً كبيراً في نقل العلوم وتطورها في بلدان أوروبة عبر المعابر الثلاثة: الأندلس، صقلية، بلاد الشام، ومعابر حضارية أخرى كالبندقية وجنوى وبيزا وقبرص ورودوس وسواها في وقت كانت فيه أوروبا تعاني من وطأة التخلف العلمي والحضاري، وفي وقت كانت لا تزال فيه تحيا حياة الركود والانحطاط.

د. حسان حلاق
بيروت
٣ جمادى الأولى ١٤٠٦هـ - ١٣ك ٢ (يناير) ١٩٨٦

القســم الأول

العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب
في الأندلس

الله غالب

الفصل الأول

مقدمة في العلاقات الحضارية
الإسلامية ـ المسيحية في الأندلس

اللہ غالب

الفصل الأول

مقدمة في العلاقات الحضارية الاسلامية - المسيحية في الأندلس

تقع بلاد الأندلس (اسبانيا) في شبه الجزيرة الايبيرية، وايبيرية نسبة الى أمة قديمة يقال لها «الايبير» (Ibere) وهي أقدم أمة سكنت وعمرت بلاد اسبانيا والبرتغال. أما لفظة «الأندلس»، فهي مشتقة من اسم «الفاندالس» أو «الوندال» وهم من الشعوب الذين سكنوا نهر «الاودر» (Oder) ونهر «الفيستول» (Vistule) في شرقي المانيا. وهؤلاء «الفاندالس» زحفوا سنة ٤١١ ق.م. من الشمال إلى الجنوب حتى بلغوا مضيق جبل طارق، ثم وصلوا إلى أفريقية (المغرب العربي)، وقد أطلق أهل أفريقية والمغرب على اسبانيا التي استقر فيها «الفاندالس» اسم «فانداليسيا» (Vandalicia) نسبة لاسم «الفاندالس». ولما جاء العرب إلى هذه البلاد وافتتحوها عرّبوا الاسم وأطلقوا عليها اسم «أندلس». واعتبر العرب أن «الأندلس» هي جميع الجزيرة الايبيرية. ويذكر الرحالة العرب، بأن عدد المدن الأندلسية في فترة الحكم العربي الاسلامي بلغ حوالي أربعين مدينة عربية، كانت تضم ما يقارب خمسة عشر مليوناً من السكان في عهد عبد الرحمن الناصر (الثالث). وكانت قرطبة وحدها تضم مليوني نسمة. وهذه البلاد تقسم جغرافياً إلى قسمين: الأندلس العليا وهي شمالي الوادي الكبير، والأندلس السفلى وهي جنوبي الوادي الكبير. ويجري في هذا الوادي أكبر نهر في الأندلس بعد نهر «ابرة».

أما سكان اسبانيا، فهم في الأصل خليط من الفاندال والكلتيين والايبيريين والفينيقيين القرطاجيين، وعناصر اغريقية يونانية ورومانية وجرمانية ويهودية. كما

استقر فيها القوط الذين سيطروا على اسبانيا فترة من الزمن ثم جاءت العناصر الاسلامية والعربية فسيطرت على بلاد الأندلس في اطار عناصر متعددة ومتمايزة، استطاع العرب خلال حكمهم ان يمزجوها في بوتقة الحضارة العربية والاسلامية، فهذه العناصر « تأسلمت » أو « تعربت » أو كما يقال « تأندلست ».

وكان فتح المسلمين لاسبانيا في أوائل القرن الثامن للميلاد نتيجة مخطط سياسي وعسكري اتفق عليه زمن الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك في دمشق، بالاتفاق مع قائده في المغرب موسى بن نصير. وبدأت أولى المعارك بعدة غارات استكشافية على جنوب اسبانيا، ثم تكررت في شهر رمضان سنة (٩١ هـ - ٧١٠ م) على يد طريف بن مالك. ثم بدأت مرحلة غزو اسبانيا بقيادة طارق بن زياد وموسى بن نصير براً وبحراً.[١] وقد اجتاز الجبل الذي عرف باسمه « جبل طارق » المعروف سابقاً باسم (Mons Calpe)[٢] وهي تسمية فينيقية تعني « الجبل المجوف » سنة ٩٢ هـ. وقد أرسل موسى أعداداً من جنوده لمساعدة طارق، وبذلك أصبح عدد الجنود المسلمين في اسبانيا ما يقارب اثني عشر ألفاً. وبهذا يقول صاحب « أخبار مجموعة »: « وكان موسى مذ وجه طارقاً أخذ في عمل السفن حتى صارت معه سفن كثيرة، فحمل اليه خمسة آلاف فتوافى المسلمون بالأندلس عند طارق اثنا عشر ألفاً ».

وكانت المعركة الفاصلة بين المسلمين والاسبان هي معركة « كورة شدونة » (من ٢٨ رمضان إلى ٥ شوال سنة ٩٢ هـ - ١٩ - ٢٦ تموز (يوليه) ٧١١ م) وانتهت بانتصار المسلمين على ملك اسبانيا القوطي رودريك (لذريق) (Rodrigo). ثم تكررت المعارك بين المسلمين والاسبان في مختلف المناطق الاسبانية مثال: ليون وقشتالة (Castilla) (منطقة القلاع) حتى انتهى الأمر إلى قيام حكم

---

(١) انظر:

Dozy; Histoire des Musulmans d,Espagne, T. I, pp. 274-275.

(٢) Lévi-Provençal; Histoire de l'Espagne Musulmane, T. I, p. 18.

إسلامي في اسبانيا. ولقد قسم الحكم الاسلامي في الأندلس إلى العصور التالية [1]:

١ ـ **عصر الولاة**: وهو أزهى العصور الأندلسية، وكانت الأندلس خلاله إمارة أموية مستقلة سياسياً عن الخلافة العباسية في بغداد والمشرق، ويمتد هذا العصر من عهد عبدالرحمن الأول بن معاوية بن هشام بن عبدالملك إلى عهد عبدالله بن محمد (من ١٣٨ ـ ٣١٦ هـ، ٧٥٦ ـ ٩٢٩ م).

وقد أصبحت الأندلس إمارة مستقلة روحياً وسياسياً عن الخلافة العباسية من عهد عبدالرحمن الناصر لدين الله (الثالث) إلى عهد هشام الثاني المؤيد لحكم المستنصر (من ٣٠٠ ـ ٤٢٢ هـ، ٩١٢ ـ ١٠٣١ م).

٣ ـ **عصر ملوك الطوائف**: يبدأ هذا العصر بسقوط الدولة الأموية في الأندلس وتفكك الدولة إلى دويلات سياسية وطائفية متنازعة. وينتهي بدخول المرابطين من المغرب إلى الأندلس بقيادة يوسف بن تاشفين وانتصارهم على الاسبان في معركة الزلاقة سنة ١٠٨٦م. ويمتد هذا العصر من (٤٢٢ ـ ٤٧٩ هـ، ١٠٣١ ـ ١٠٨٦م).

٤ ـ **عصر المغاربة**: وفيه تحولت الأندلس إلى ولاية تابعة للمغرب في عصري المرابطين والموحدين. وكانت عاصمتهم مدينة مراكش في جنوب المغرب. وانتهى هذا العصر بهزيمة دولة الموحدين أمام الجيوش المسيحية الأوروبية المتحالفة في موقعة العقاب سنة ٦٠٩ هـ ـ ١٢١٢م ويمتد هذا العصر من (٤٧٩ ـ ٦١٢ هـ، ١٠٨٦ ـ ١٢١٤م).

٥ ـ **عصر مملكة غرناطة** (عصر بني الأحمر): وهو آخر عهد إسلامي في الأندلس ويمتد من ١٢٣١م إلى ١٤٩٢م وهي السنة التي سقطت فيها غرناطة بأيدي الاسبان.

---

(١) للمزيد من التفصيلات انظر ر. دوزي: تاريخ مسلمي اسبانيا، جـ ١، ص ١٥٤ ـ ١٦٧. انظر أيضاً: د. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس، ص ٦٦ ـ ١١٦.

لقد بقي المسلمون في بلاد الأندلس من عام ٧١١ م إلى عام ١٤٩٢ م أي حوالي (٧٨٠) عاماً. وقد استطاع المسلمون خلال هذه الفترة الطويلة أن يؤثروا ويتأثروا بالبيئة الاسبانية في الغرب وبالبيئة العربية في الشرق في كافة الأصعدة الحضارية. ولم يكن الفتح العربي لاسبانيا مجرد احتلال عسكري، بل كان حدثاً حضارياً امتزجت خلاله الحضارات والشعوب المتعددة مع الحضارة الاسلامية ومع العرب. وأدى هذا التمازج الحضاري إلى ولادة وتبلور الحضارة الأندلسية.

وكان المسلمون قد اختلطوا بالعناصر الاسبانية والرومانية والقوطية وسواها، ونشأ من جراء ذلك طبقة اجتماعية جديدة من « المولدين » و « المستعربين ». ومن اعتنق الدين الإسلامي من الاسبان فقد سمّوا باسم « المسالمة »[1]. وقد اختلطت بهذه العناصر الرقيق من الصقالبة الذين جلبوا من أوروبا منذ صغرهم، ثم ربوا تربية عسكرية إسلامية وانخرطوا في وظائف القصر والجيش حتى صاروا قوة لها نفوذها في الدولة الأموية. وكانت هذه العناصر مجتمعة قد بدأت تتأثر بعضها بالبعض الآخر في مختلف المجالات العسكرية والسياسية والثقافية. ومن الأهمية بمكان القول بأن العرب تعايشوا مع الاسبان منذ بدء الفتح، وقد اختلطت دماء المسلمين بدماء المسيحيين بواسطة المصاهرة والزواج، خاصة وأن أكثر القادة والجنود من المسلمين لم يصحبوا معهم زوجاتهم. ولهذا فقد أقبلوا على الزواج بعد استقرار الفتوحات من الاسبانيات. وكان أول من تزوج اسبانية عبد العزيز بن موسى بن نصير، الذي تزوج من ايلة « اخلونا » (Egilona) أرملة لذريق آخر ملوك القوط. وقد أسلمت بعد زواجها وتكنت بأم عاصم، ثم أقامت مع زوجها في اشبيلية.

بالإضافة الى ذلك فقد ظهر جيل من أولاد المسلمين الذين تزوجوا من اسبانيات. وكانت الدماء الاسبانية تجري في عروق بعض خلفاء بني أمية في

---

(١) انظر حول هذا الموضوع:

Lévi-Provençal; l'Espagne Musulmane, p. 32, 106;

Histoire de l'Espagne Musulmane, T. I, p. 73.

الأندلس، وفي مقدمة هؤلاء الخليفة عبد الرحمن الناصر، فقد كانت جدته الأميرة «انيجا» (Iniga) ابنة «فرتون غرسيس» (Fortun Garces) ملك بنبلونة. وقد يفسر ذلك ما ذكره المؤرخون في وصف الخليفة الناصر من أنه كان أبيض الوجه أزرق العينين[1].

ويذكر المستشرق «ليفي بروفنسال» (Lévi Provençal) بأن الاسلام لم يحل دون إقامة علاقات ازدادت توثقاً مع الزمن بين المسيحيين والمسلمين، سواء في الداخل أو الخارج. وكانت طليطلة ـ عاصمة القوط القديمة ـ قد احتفظت بين أسوارها بعدد كبير من المسيحيين الذين رفضوا في البدء الإذعان للحكم الأموي. وأضاف بروفنسال: «غير أن العناصر غير الاسلامية من المسيحيين واليهود «تعربت» أو بعبارة أصح «تأندلست» فقد طبعتهم الحضارة الاسبانية الاسلامية العربية بطابع قوي جداً. وبالرغم من أن هذه العناصر بقيت وفية لدينها الأول (المسيحي واليهودي) غير أن الأمر انتهى بهؤلاء إلى نظام إسلامي متحرر، ارتضوا أن يعيشوا في ظلّه كرعايا لدولة إسلامية».

وكانت البلاد الاسبانية في الوقت الذي سيطر عليها المسلمون لا تختلف كثيراً عن بقية بلدان غربي أوروبا من حيث انتشار الجهل والتقهقر العلمي والاجتماعي بسبب طول فترة النزاعات الداخلية والفتن بين المذاهب الدينية المسيحية. ومما يدل على هذه النزاعات أن بعض أمراء اسبانيا ورئيس أساقفة أشبيلية ساعدوا المسلمين على فتح اسبانيا، وما أن استقر المسلمون حتى بدأوا بتنشيط الحياة الاقتصادية والاجتماعية والعلمية، وأصبحت مدن الأندلس من أغنى وأهم المدن الأوروبية لاسيما قرطبة[2].

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، جـ ١، ص ٣٠. لطفي عبد البديع: الإسلام في اسبانيا، ص ٢٤ ـ ٢٥، د. جمال الدين الشيال: التاريخ الإسلامي وأثره في الفكر التاريخي الاوروبي في عصر النهضة، ص ١٧ـ١٨.

(٢) د. سعيد عاشور: المدنية الإسلامية وأثرها في الحضارة الاوروبية، ص ٤٩.

والحقيقة فإن الأندلسيين لم يدخروا وسعاً في تحصيل العلوم المشرقية الاسلامية، التي وفدت اليهم بواسطة العلماء المشرقيين الذين جاؤوا مع أو بعد الحملات العسكرية أو بواسطة استدعاء الخلفاء والأمراء لعلماء مشرقيين إلى الأندلس. وقد بلغت الحضارة الاسلامية ذروتها في الأندلس في النصف الثاني من القرن العاشر للميلاد، بعد أن أصبحت قرطبة ـ حاضرة الخلافة الأموية ـ من أعظم مدن العالم المتحضر، وفيها ما يزيد على مائة ألف منزل ويقطنها حوالي مليون نسمة، علماً أن سكانها كانوا يتجولون في شوارعها بعد غروب الشمس في ضوء المصابيح العامة التي كان ينيرها موظفون مختصون، في حين كانت شرطة العسس (الليل) مسؤولة عن حماية الممتلكات والسكان، بينما ظلت مدينة لندن سبعة قرون بعد ذلك ولم يوجد مصباح عام واحد يضيء شوارعها. وبينما كانت صحيفة «كولونيا» (Colognia) الألمانية في عددها الصادر في ٢٨ آذار (مارس) ١٨١٩ تعتبر وتصف إضاءة الشوارع بمصابيح الغاز بأنه شر مستطير من البشر يهدد الظلام الإلهي، كانت شوارع قرطبة عام ٩٥٠ م تزدان بثمانين ألف متجر وتضاء ليلاً بمصابيح تثبت على جدران المنازل، كما مورست فيها أعمال النظافة عن طريق عربات القمامة التي تجرها الثيران. وبعد مضي قرنين من الزمن اتخذت باريس سنة ١١٨٥م من قرطبة مثالاً وقدوة لها، فرصعت شوارعها ونظفتها، وقد نقل زوار الأندلس من الأوروبيين إعجابهم بالحضارة الأندلسية، فنقلوا مظاهرها ومعالمها إلى منازلهم وشوارعهم ومدنهم [١].

ومما ساعد على التطور الحضاري في البلاد الأندلسية سياسة التسامح الاسلامية التي اتبعها المسلمون تجاه العناصر غير الاسلامية من مسيحيين ويهود، فأقبل المستعربون الاسبان على تلقي العلوم وتعلم اللغة العربية، كما تتلمذ بعض من اليهود والمسيحيين على العلماء المسلمين، فأصبح المستعربون رسلاً جدداً للحضارة الاسلامية، نتيجة اتقانهم اللغتين العربية واللاتينية معاً، فاستطاعوا نقل العلوم

---

(١) د. سعيد عاشور: المرجع السابق، ص ٥٠ هونكه: أثر الحضارة العربية في أوروبة، ص ٤٩٩.

العربية والاسلامية إلى الاسبان والأوروبيين، وأصبح إقبال الغربيين على تعلم العلوم العربية من الأمور اللافتة للنظر، مما دعا الكاتب المتعصب «الفارو» (Alvaro) الذي عاش في القرن التاسع الميلادي للقول:

«إن أخواني المسيحيين يدرسون كتب فقهاء المسلمين وفلاسفتهم لا لتفنيدها بل لتعلم أسلوب عربي بليغ، واسفاه أنني لا أجد اليوم علمانياً يقبل على قراءة الكتب الدينية أو الانجيل، بل إن الشباب المسيحي الذين يمتازون بمواهبهم الفائقة أصبحوا لا يعرفون علماً ولا أدباً ولا لغة إلا العربية. ذلك أنهم يقبلون على كتب العرب في فهم وشغف، ويجمعون منها مكتبات ضخمة تكلفهم الأموال الطائلة في الوقت الذي يحتقرون الكتب المسيحية وينبذونها..»[1].

ومما قاله ألفارو أيضاً: «... لقد نسي المسيحيون حتى لغتهم ولن تجد بين الألف منهم واحداً يستطيع كتابة خطاب باللغة اللاتينية، بينما نجد بينهم عدداً كبيراً لا يحصى يتكلم العربية بطلاقة ويقرض الشعر أحسن من العرب أنفسهم»[2]. علماً بأن المسلمين حرصوا بدورهم على إتقان اللغة اللاتينية لا سيما لغة جيرانهم القشتاليين والأراجونيين. ويروى لسان الدين بن الخطيب بأن العالم محمد بن لب الكناني المالقي، كان يطوف بالبلاد الاسبانية. ويناقش قساوستها في أصول الديانتين الاسلامية والمسيحية. وكان العالم الغرناطي محمد الرقوطي زمن الملك الاسباني الفونسو العاشر في القرن الثالث عشر الميلادي يتقن اللاتينية، فكان يعلم المسيحيين واليهود في مدرسة مرسية. كما كان العالم الغرناطي عبد الله بن سهل في القرن الثالث عشر الميلادي يتقن اللاتينية وله شهرة واسعة في العلوم الرياضية لدرجة أن المسيحيين في شتى نواحي اسبانيا كانوا يرحلون الى داره في

---

(١) جرونيباوم: حضارة الإسلام، ص ٨١ ـ ٨٢. انظر ايضاً: د. سعيد عاشور، المرجع السابق، ص ٥١ ـ ٥٢، زيغريد هونكه، المرجع السابق، ص ٥٢٩.

(٢) زيغريد هونكه: المرجع السابق، ص ٥٢٩.

مدينة بياسه (Baeza) لمجادلته والاستفادة من علمه [1].

كما استفادت اسبانيا وغربي أوروبا من الطب العربي المشرقي الذي شهد تطوراً بارزاً في المشرق. ثم انتقل بواسطة الاطباء والمؤلفات إلى الأندلس، وبرز من المسلمين داخل الأندلس الكثير من الاطباء، وكان في مقدمتهم بنو زهر، وهي العائلة التي انجبت عدداً كبيراً من الاطباء المشهورين خلال ستة أجيال متعاقبة. وبنو زهر قطنوا إشبيلية القاعدة الأندلسية الشهيرة. وأهم طبيب في بني زهر الشيخ محمد بن مروان بن زهر المتوفى سنة ١٠٣١ م عن عمر يناهز ٨٦ عاماً، ومنهم عبد الملك بن محمد ابي مروان الذي مارس الطب في القيروان في تونس وفي القاهرة، ومات في الأندلس سنة ١٠٧٨ م. وكان أبو العلاء بن زهر ثالث سلالة الاطباء الإشبيليين المتحدرين من القبيلة العربية أيّاد، وقد عاش في قصر المعتمد. أما حفيده ابو بكر محمد بن زهر، فكان أيضاً من أشهر أطباء عصره، فذاع صيته في المشرق والمغرب وقد استفادت أوروبا كثيراً من علومه الطبية. ويذكر في هذا المجال بأن الملك سانشو (Sancho) ملك ليون الذي قدم إلى قرطبة لأسباب سياسية ومثل بين يدي الأمير عبد الرحمن الثالث، طلب من الأمير بعد انتهاء مباحثاتها السماح لطبيب البلاط القرطبي بالكشف عليه وفحصه إثر مرض عضّال أصابه من جراء السمنة المفرطة. وبالفعل فقد استطاع طبيب الأمير عبد الرحمن معرفة مرض سانشو ومداواته، وكان هذا الطبيب حسداي بن شبروط اليهودي.

ومن المؤثرات العلمية الإسلامية في الأندلس، انتقال علم الرياضيات إلى الغرب بواسطة المسلمين. فمن المعروف ان قرطبة لم تكن عاصمة سياسية للخلافة فحسب، بل كانت على غرار بغداد عاصمة للبحث العلمي، فعالم الرياضيات «غربرت» الذي اصبح فيما بعد البابا سلفستروس الثاني (٩٩٩ - ١٠٠٣) قضى ثلاثة أعوام (٩٦٧ - ٩٧٠ م) في الأندلس واحتك بالعلماء المسلمين واستفاد من

---

(١) مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في المغرب والأندلس، ص ٩٩ هامش ٢. تحقيق د. أحمد مختار العبادي.

علومهم، وتعمـق هنـاك في درس الريـاضيـات والفلسفـة والفقـه[1] . ولما عـاد « غربرت » إلى رومية كان علمه العربي الذي تعلمه في الأندلس غريباً على قومه حتى لقبوه بالساحر . ومن بين علماء الغرب الذين تعلموا اللغة العربية للإطلاع على مـؤلفـات العـرب في الفلـك والريـاضـة « روبــرت ريتيننسيس « Robertus) (Retenensis و« هرمانوس دلماتا » (Hermanus Delmata) . واستجابـة لطلـب بطرس المبجل (Petrus Venerabills) (١٠٩٤ ـ ١١٥٧) رئيس دير كلوني، قام هذان العالمان بترجمة القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية، وقد أنجزا هذه الترجمة في سنة ١١٤٣[2] .

هذا وقد عرفت أوروبا الأرقام الهندية بواسطة العرب، لذا يقال لها في أوروبا إلى الآن « الأرقام العربية » ولفظوا الصفر كما يلفظه العرب، فأصبح في الانجليزية صفر (Cipher) وفي الالمانية تسفر (Ziffer) وفي الأفرنسية شيفر (Chiffre) وفي الايطالية شيفرا (Cifra) . كما نقل المسلمون إلى اوروبا الكسر العشري الذي استخدموه في عملياتهم الحسابية .

ومن بين علماء الرياضيات في الأندلس مسلمة المجريطي (المدريدي) إمام علماء الرياضيات في الأندلس (المتوفى ٣٩٨ هـ ـ ١٠٠٧ م) ومن تلامذته ابن السمح (ت ١٠٣٤ م) وابن الصفاء والكرماني وأمية بن أبي الصلت . ومن العلماء المسلمين البارزين في الأندلس في علم الرياضيات والذين أثروا في اوروبا ابو الحسن علي بـن محمد علي القلصـادي المولـود بمدينـة بسطـة في الأنـدلس (٨٢٥ هـ ـ ٨٩١ هـ) ومن كتبه « كشف الأسرار عن علم الغبار » وهو يعتبر أول من استعمل الرموز والإشارات الجبرية، واقتبسته أوروبا عنه [3].

---

(١) د . عمر فروخ: عبقرية العرب في العلم والفلسفة، ص٧٣ .

(٢) د . جمال الدين الشيال، المرجع السابق، ص٢٢ ـ ٢٣ . للمزيد من التفصيلات حول التمازج الحضاري والترجمات بين المسلمين والغرب انظر المرجع نفسه، ص١٨ ـ ٢٤ .

(٣) للمزيد من التفصيلات انظر : د . علي الدفاع: تـاريـخ الريـاضيـات عنـد العـرب والمسلمين، ص ٢٠١ ...

والواقع فإن هناك الكثير من المؤثرات العلمية والطبية والفيزيائية والكيمائية العربية في بلاد الأندلس وأوروبا . وقد أقام العرب الكثير من المراصد الفلكية في غرناطة وطليطلة وقرطبة واشبيلية . ومن بين علماء الفلك والجغرافية والرياضيات في الأندلس كل من :

ـ **مسلمة المجريطي**: عالم الرياضيات والعالم الجغرافي الذي قام بعمل اختصر فيه جداول البناني واستفاد كثيراً من هذا المختصر فيما بعد ، واضعوا جداول الفونس الملكية (الازياج ، التقاويم) ، ومن بين كتب المجريطي : رسالة الاصطرلاب ، ثمار علم العدد ، تعديل الكواكب .

ـ **الزرقالي**: ويعرف باسم « الزرقيل » عاش في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي (تقريباً ١٠٢٩ ـ ١٠٨٨م) وهو صاحب (زيج طليطلة) وصانع الاصطرلاب .

ـ **جابر بن أفلح الإشبيلي**: المتوفى بين ١١٤٠ ـ ١١٥٠م وهو صاحب مؤلف (الفلك) و(الهيئة أو اصلاح المجسطي) .

وهناك علماء آخرون مما لا يتسع المجال لذكرهم ومنهم ابن رشد وابن باجة والبطروجي من علماء الفلك والجغرافية والعلوم الأخرى المتنوعة ، الذين أثروا بعلومهم البلدان الأوروبية عبر الأندلس[(١)] . غير أننا نستطيع ان نذكر مجموعة من هؤلاء العلماء وهم على سبيل المثال:

ـ **في الطب**: احمد بن اياس القرطبي ، ابو عبد الله محمد بن عبدون العدرى القرطبي ، ابو القاسم الزهراوي ، ابن وافد ، خلف بن عباس ، ابن البيطار ، ابن زهر ..[(٢)] .

ـ **في الأدب**: ابن عبد ربه ، ابن زيدون ، ابن عمار ، ابن عباد ، ابن عبدون ،

---

(١) نفيس احمد : الفكر الجغرافي في التراث الاسلامي ، ص ١٩٢ ـ ١٩٥ .

(٢) للمزيد من التفصيلات انظر : د . علي الدفاع : اعلام العرب والمسلمين في الطب ، ص ١٧٧ ـ ١٨٧ .

ابن حمديس، الفتح بن خاقان، ابن بسام، ابن سهل...

- **في التاريخ:** عبد الملك بن حبيب، محمد بن موسى الرزي، ابن القوطية القرطبي، ابن الفرضي، ابن حيان، الحميدي، ابن بشكوال، ابن الآبار، ابن سعيد المغربي، لسان الدين بن الخطيب، ابن خلدون، ابو حامد الغرناطي الأندلسي، ابن جبير البلنسي...

- **في الجغرافية:** أبو عبيد البكري، الإدريسي، المازني، ابن سعيد...

- **في علوم الدين:** ابن مخلد، ابن عبد البر، الباجي، الشاطبي...

- **في الفلسفة:** ابن مسرة، ابن حزم، الطرطوشي، ابن طنيل، ابن رشد، ابن ميمون، ابن عربي، ابن سبعين، ابن باجة..

- **في علوم اللغة:** ابو علي القالي، الزبيدي، ابن سيده، ابن عصفور، ابن مالك، ابن إدريس الفراني، ابو حيان.

ولا بد من الإشارة إلى أن هؤلاء العلماء لم يكتبوا بالضرورة في علم واحد، ولهذا لا يمكن تصنيفهم في علم واحد من العلوم، لأن الواحد منهم، قد يكون كتب في التاريخ والجغرافية معاً، وفي الرياضيات والطب والكيمياء، وفي الفلسفة والسياسة والأدب. ومن يطلع على كتب التصانيف مثال: الفهرست لابن النديم وجذوة المقتبس للحميدي وتراجم علماء الأندلس لابن الزبير وتاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي وكتاب القضاة بقرطبة للخشني وتاريخ قضاة الأندلس للتباهي وطبقات الفقهاء لمحمد بن خالد الأندلسي وسوى ذلك من مصنفات، يرى مئات من العلماء والأطباء والأدباء والقضاة وأهل العلم في الأندلس والمغرب والمشرق على السواء.

هذا وقد حدث نوع من المؤثرات والتمازج الحضاري بين المشرق والمغرب من خلال الأندلس يمكن دراسة بعض ملامحها ومظاهرها[1].

---

(١) للمزيد من التفصيلات حول واقع الاندلس ووصف مدنها واحوالها انظر: ابن حوقل: صورة الأرض، ص ١٠٤ - ١١٢.

الله غالب

الفصل الثاني

التبادل الحضاري بين الشام والأندلس

الله غالب

الفصل الثاني

التبادل الحضاري بين الشام والأندلس

خضعت الأندلس للمسلمين في خلافة الوليد بن عبد الملك، وظلت ولاية تابعة لدمشق إلى أن استقل بها الأمير الأموي عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك (صقر قريش) مؤسس الدولة الأموية في الأندلس. وهو أول من أسس ووضع جذور الحضارة الإسلامية الشامية في الأندلس، وقد حرص منذ قيام دولته في الأندلس على تجديد ما زال من حضارة بني امية في المشرق، وعلى نقل النظم الإدارية المعروفة في المشرق الإسلامي في العهد الأموي، وطبقها في الأندلس تطبيقاً مشابهاً وعملياً، لأن العرب الأوائل نقلوا معهم أنظمتهم وعاداتهم وتقاليدهم. ويذكر ابن القوطية في كتابه «تاريخ افتتاح الأندلس» أنه منذ عهد هشام بن عبد الملك نزل الشاميون في كور الأندلس «وتفريقهم على قرطبة، إذ كانت لا تحملهم، فانزل اهل دمشق بالبيرة، وأهل الأردن برية، وأهل مصر بباجة، وقطيعاً منهم بتدمير»[1].

وكان من الطبيعي ان تتأثر الدولة الناشئة بالحضارة الشامية والتقاليد والأنظمة الشامية، فالحياة الأدبية في الأندلس كانت صدى لحياة الشام الأدبية، فالشعر الأندلسي مثلاً كان شعراً كلاسيكياً يحاكي شعر الفرزدق والأخطل وجرير. ويقول المستشرق كارل بروكلمان «تاريخ الشعوب الإسلامية» بان الشعر في الأندلس كالشعر في الشام، وأول ما دار على محور العصبية القبلية التقليدي فهو

(١) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٤٤.

في معظمه مدح وهجاء. وفي بلاط الأمويين تفتحت ـ تحت تأثير الفن البغدادي ـ براعم المديح المثقل بالاطراء الغريب المستهجن، ولكن المزاج الأندلسي استطاع أن ينفخ في قوالب الشعر البدوي العتيقة روحاً جديدة[1].

أما أهم شعراء الأندلس فبينهم على سبيل المثال القاضي والوالي والأمير وابناء الامارة ومنهم: أبي الخطار بن ضرار الكلبي، الصميل بن حاتم وعبد الرحمن الداخل وابنه سليمان وحفيده الحكم الربضي، والقاضي الشاعر معاوية بن طليح الحضرمي الحمصي (قاضي حمص سابقاً وقاضي الأندلس في عهد عبد الرحمن الداخل) وسواهم. ومما ذكره الأمير عبد الرحمن الداخل متشوقاً إلى بلاده الشام مبدياً حنينه إليها[2]:

أيها الراكــب الميمــم أرضي	أقــرِ مــن بعضي السلام لبعضي
ان جسمــي كما علمــت بــأرض	وفــؤادي ومــالكيــه بــأرض
قــدّر البين بيننــا فــافترقنــا	وطـوى البين عـن جفــوني غمضي
قــد قضى الله بــالفــراق علينــا	فعسى بــاجتماعنــا ســوف يقضي

ولما نقل عبد الرحمن الداخل اشجار النخيل من الشام وزرعها في الأندلس أثار منظر النخيل في نفسه الحنين للشام مجدداً فقال شعراً بالمناسبة:

تبـدت لنـا وسـط الرصـافـة نخلـة	تناءت بأرض الغرب عن بلد النخـل
فقلت: شبيهي في التغـرب والنـوى	وطول ابتعادي عـن بني وعـن اهلي
نشـأتِ بـأرض انـت فيهـا غـريبـة	فمثلـك في الاقصـاء والمنتـأى مثلي
سقتك غوادي المزن في المنتـأى الذي	يسحّ ويستمـري السماكين بـالـوبـل

وفي الوقت الذي بدأ الشعر العربي يؤثر في البيئة الاسبانية المسيحية كانت اللغة العربية ومصطلحاتها قد سادت الأندلس، ولقد اندفع سكان اسبانيا وأساقفتها

---

(١) كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ٣٠٠.
(٢) الحميدي: جذوة المقتبس، ص ٨ ـ ٩.

لدراسة العربية، وكانت كلما مرت السنون ضاعت اللغة الاسبانية بشكل اكثر - كما فصّلنا سابقاً - بحيث ترجمت فيما بعد بيانات البابا وقرارات المؤتمرات والمجامع المسيحية في القرن التاسع الميلادي إلى اللغة العربية، للأسبان المسيحيين في الاندلس الذين لم يعودوا يفهمون اللاتينية.

والحقيقة أن الامير عبد الرحمن الداخل حاول أن يجعل من عاصمته قرطبة[1] صورة من دمشق من حيث منازلها البيضاء ذات الأحواش الداخلية (Patios) وفي أشجارها وحدائقها. وكان يرسل رسلاً إلى بلاد الشام خصيصاً لجلب أشجار النخيل والفاكهة واشتال (شتلات) الأشجار المثمرة مثل التين والرمان والعنب وهي أثمار لا تزال معروفة إلى الآن في اسبانيا. وبالقرب من قرطبة زرع الأمير عبد الرحمن أول شجرة نخيل في الأندلس في حديقة قصره الذي بناه على نظام قصور أجداده في الشام لا سيما جده الخليفة هشام بن عبد الملك. وقد بنى قصوره خارج مدينة قرطبة على غرار القصور الأموية التي انشأها هشام خارج دمشق بين تدمر ودمشق ومن قصور عبد الرحمن قصر الرصافة (La Ruzafa)[2]. وهو قصر صيفي شمالي غربي قرطبة، وهو شبيه برصافة جده هشام الذي بناه خارج دمشق سنة ١١٠ هـ.

وأحاط عبد الرحمن قصره بأشجار النخيل والتين والرمان. كما انشأ عبد الرحمن قصراً آخر هو قصر الدمشق، الذي اتخذه مقراً لراحته وأفراحه، وقلد به قصور بني امية في المشرق وكان يعرف أيضاً باسم «منية الرصافة» أي «قصر

(١) انظر وصف المقدسي لقرطبة في: احسن التقاسيم لمعرفة الاقاليم، ص ٢٣٣ - ٢٣٦. انظر أيضاً: Lévi-Provençal; l'Espagne Musulmane, p. 199.

(٢) د. احمد مختار العبادي: العلاقات بين الشرق والغرب، ص ٢٩. د. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس، ص ٢٠٧. للمزيد من التفصيلات حول العمارة العربية في اسبانيا انظر: د. الطاهر احمد مكي: الفن العربي في اسبانيا وصقلية، ص ١٥-٨٨، ١١٠-١١٦، ١٥٣-١٨٥.

الرصافة ». ومن اشهر فواكه هذا القصر ـ المنية الرمان السفري الذي ينسب إلى سفر ابن عبيد الكلاعي من جند الأردن الذي زرعه في كورة رية فأثمر واينع[١].
ونظراً للتشابه بين قصور بني امية في المشرق وقصر الدمشق في الأندلس، فقد أحبه بنو أمية وقال ابن عمار الشاعر فيه:

كل قصر بعد الدمشق يـذم فيـه طـاب الجنى ولـذ المشم
منظـر رائـق ومـاء نمير وثـرى عـاطـر وقصر اشم

أما المسجد الجامع في قرطبة الذي اقامه عبد الرحمن الداخل عام ١٦٩ هـ، فتظهر فيه أيضاً المؤثرات الشامية الإسلامية، في زخارفه المعمارية ونظام سقفه وعقوده (البوائك) (Arcades) أو (Arqueria). وهذه العقود تزيد من ارتفاع السقف وتجعله ارتفاعاً مناسباً مع اتساع مساحة المسجد، وكذلك نجد هذا التأثير في الممر الذي يصل المسجد بقصر الأمارة وهو المعروف باسم (الساباط). كما أن مئذنة مسجد قرطبة تماثل مآذن مساجد الشام لا سيما مساجد دمشق والقدس. وكان الأمير عبد الرحمن قد استعان بالبنائين والمهندسين الشاميين في بناء قصوره ومساجده ومقصوراته. وكان هذا التشابه في الفن المعماري بين الأندلس والشام ليس إلا وليد الوجود الشامي في الأندلس، ومحاولة من امراء بني أمية الأندلسيين التشبه ببلادهم الأصلية. وهكذا طعم عبد الرحمن حضارة الأندلس بالطابع الشامي، وإليه يرجع الفضل في غرس بذور نهضة علمية زاهرة بقرطبة[٢].

هذا وقد تمتع فن البناء العربي وفن النقوش العربية (Arabesqua) بمميزاته البسيطة وأشكاله الهندسية البديعة. وقد ظل هذا الفن على قوته يشكّل ما وجد من فنون في اسبانيا والبلاد المفتوحة، ويؤثر على الفن الجرماني والفن الأوروبي إلى عصر النهضة. وبلغ تأثر الغرب الأوروبي بالفن المعماري الإسلامي والنقوش

---

(١) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس، ص ٢٠٨.
(٢) د. السيد عبد العزيز سالم، المرجع نفسه، ص ٢٠٩.

العربية أن تأثر المهندس الأوروبي تأثراً بالغاً بحيث انه نقل الآيات القرآنية معجباً بخطوطها الجميلة التي رآها على جدران المساجد، فنقلها ووضعها على جدران الكنائس دون ان يدري معانيها، مما يشير إلى تأثر المهندس الأوروبي بهذه الفنون والخطوط التي كتبت بأسلوب فني راق وجميل[1]. كما تأثر الغرب بالفن المعماري الإسلامي في تزيينه للسقوف والأقبية والأركان والعمد المستديرة. وقد أخذ الغرب عن العرب الأقواس المدببة العالية واطلقوا عليه اسم «الطراز القوطي»، وانتقل هذا الطراز الإسلامي إلى أوروبا عبر المهندسين المسلمين والمسيحيين. كما ساهم في نشره كهنة اسبانيا لا سيما رئيس الدير «هوغو فون كلوني» الذي سبق له ان زار كنيسة «مونت كاسينو» سنة ١٠٨٣ م وشاهد أقواسها العالية المدببة التي بناها «دسيداريوس» (Desiderius) بمساعدة المهندسين المسلمين، فأعجب ببنائها وأمر بنقل طرازها إلى كلوني جنوب البرانس في الجزء المسيحي من اسبانيه. ومن الآثار المعمارية الإسلامية الخالدة في اسبانيا التي لا تزال آثارها ماثلة إلى الآن قصر الحمراء ومسجد قرطبة الذي يضم ١٤٠٠ عود من أقواس الدائرة، وقد تحول إلى كنيسة، ويوجد في إشبيلية «الجيرالدا» (Giralda) التي كانت برجاً لرصد النجوم والأفلاك. ويذكر الأديب والمؤرخ الرحالة أمين الريحاني الذي زار اسبانيا سنة ١٩١٧ من أن مدرسة إشبيلية أخذت الكثير عن الفن الشامي، وأشار إلى بروز الأثر السوري في فن الرسم والتصوير والعمارة الأندلسية، لا سيما في القصور والأبراج والأسوار. وعلى هذا فإن المؤثرات الشامية لم تنتقل إلى الأندلس فحسب، وإنما بعد أن تطورت وتأندلست انتقلت إلى الغرب الأوروبي والممالك المسيحية.

وعلى صعيد المؤثرات الشامية والتشابه بين الشام والأندلس، فقد تبين بأن موقع مدينتي غرناطة وقرطبة[2] يشبه إلى حد كبير موقع مدينتي دمشق وبغداد،

---

(١) د. سعيد عاشور: المدنية الإسلامية وأثرها في الحضارة الاوروبية، ص ١٩٢-١٩٣.

(٢) للمزيد من التفصيلات حول قرطبة وحضارتها ودورها العلمي انظر: د. السيد عبد العزيز سالم: =

فدمشق تقع على الضفة اليسرى لنهر بردى، وقرطبة تقع على الضفة اليسرى لنهر الوادي الكبير، ويطل على دمشق جبل قاسيون، بينما يطل على قرطبة جبل الشارات، هذا بالإضافة إلى التشابه بين البلدين في بيوتهما وأسلوب الحياة فيهما. ومن هنا قول الجغرافيين العرب بأن الأندلس «شامية في هوائها وشامية في حياتها»[1] وبهذا يقول المقري (نفح الطيب) نقلاً عن أبي عبيد البكري واصفاً الأندلس: «الأندلس شامية في طيبها وهوائها، يمنية في اعتدالها واستوائها، هندية في عطرها وذكائها، اهوازية في عظم جباياتها، صينية في معادن جواهرها، عدنية في منافع سواحلها، فيها آثار عظيمة لليونانيين أهل الحكمة وحاملي الفلسفة..» ويذكر الأمير شكيب أرسلان في كتابه «الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية». جـ ١، نقلاً عن الشقندي: «غرناطة، دمشق بلاد الأندلس ومسرح الأبصار ومطمح الأنفس، ولم تخل من أشراف أماثل وعلماء اكابر وشعراء أفاضل... وغرناطة من أحسن بلاد الأندلس وتسمى بدمشق الأندلس، لأنها اشبه شيء بها، ويشقها نهر حدرة، ويطل عليها الجبل المسمى بشلير... ونزل بها أهل دمشق لما جاءوا إلى الأندلس لأجل الشبه المذكور»[2].

ويذكر الرحالة المغربي ابن بطوطة في كتابه الموسوم «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» جـ ٢، الذي زار الأندلس «إثر موت طاغية الروم ادفونس» كما يسميه، فوصف مدينة مالقة ومزروعاتها بقوله: «.. فوصلنا إلى مدينة مالقة، إحدى قواعد الأندلس وبلادها الحسان، جامعة بين مرافق البر والبحر، كثيرة الخيرات والفواكه، رأيت العنب يباع في أسواقها بحساب ثمانية أرطال بدرهم صغير، ورمانها المرسي الياقوتي لا نظير له في الدنيا. وأما التين والزيتون فيجلبان منها ومن اهوازها إلى بلاد المشرق والمغرب. وبمالقة يصنع

= تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس، ص٢٩٢ ـ ٣١٥. بالإضافة إلى أن للدكتور سالم كتاباً متخصصاً في تاريخ قرطبة تحت عنوان «قرطبة حاضرة الخلافة في الاندلس».

(١) د. احمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص٣٠.

(٢) الأمير شكيب أرسلان: الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، جـ ١، ص ٢١٤ ـ ٢١٥.

الفخار المذهب العجيب.. ومسجدها كبير الساحة شهير البركة.. فيه اشجار النارنج البعيدة.. ثم سافرت منها إلى مدينة بلش... بها مسجد غريب، وفيها الأعناب والفواكه والتين». ثم وصف غرناطة التي زارها في زمن السلطان ابو الحجاج يوسف «والبساتين والجنات والرياض والقصور والكروم محدقة بها من كل جهة»[1]. ويذكر لسان الدين الخطيب في معرض وصفه لمدينة مالقة زراعاتها وصناعاتها مشيراً إلى استخدام المدينة الصناعات الشامية واستخدام اليمن للصناعات المالقية مما يشير إلى التبادل التجاري بين المشرق والأندلس بقوله: «... والفواكه غير المقطوعة ولا الممنوعة، حيث الآواني تلقى لها يد الغلب، صنائع حلب، والحلل التي تلح صنعاء فيها بالطلب...»[2].

أما فيما يختص بالحياة الدينية في الأندلس، فقد كانت في الفترة الأولى متأثرة بالحياة الدينية السائدة في الشام، فقد كان في الأندلس الكثير من فقهاء وقضاة الشام، منهم فقيه أهل الشام صالح الخضر، وشيخ العرب الشاميين القاضي مصعب ابن عمران الحمداني والقاضي معاوية بن طليح وسواهم الكثير. وقد اعتنق الأندلسيون في البدء مذهب الامام عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي أمام الشام المتوفى سنة ١٥٧ هـ. وكان الامام الأوزاعي من المجاهدين المرابطين في مدينة بيروت ضد البيزنطيين. ولهذا اهتم مذهبه بالتشريعات الحربية وأحكام الحرب والجهاد. وهذه التشريعات كانت تناسب وضع الأندلسيين في الفترة الأولى من حياتهم القائمة على الحرب والجهاد. إضافة إلى انه من الطبيعي ان ينقل امراء بني

---

(١) ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار، جـ ٢، ص ٧٦٧-٧٦٨. ومن الملاحظ ان لسان الدين بن الخطيب (٧١٣ - ٧٧٦ هـ - ١٣١٣ - ١٣٧٤م) وزير ملوك بني الأحمر يذكر في مشاهداته في بلاد المغرب والأندلس الكثير من الزراعات والصناعات الموجودة سواء في بلاد الشام أو في الاندلس، ص٧٦ - ٩١ وصفحات متفرقة. تحقيق د. احمد مختار العبادي.

(٢) مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في المغرب والاندلس، ص ٧٧.

امية المذهب الديني الذي اقاموا عليه احكامهم في بلادهم الأصلية. ولهذا اعتنقوا في الأندلس مذهب الامام الأوزاعي الذي كان في الوقت نفسه مذهب اهل الشام. ويذكر ابن حزم بأن أول من نقل مذهب الإمام الأوزاعي إلى الأندلس هو الفقيه صعصعة بن سلام الشامي سنة ١٥٠ هـ[١]. ويذكر الحميدي في كتابه «جذوة المقتبس» بهذا الخصوص قوله: «صعصعة بن سلام اندلسي فقيه من أصحاب الأوزاعي، وهو أول من أدخل الأندلس مذهب الأوزاعي، مات سنة اثنين وتسعين ومائة... أن صعصعة بن سلام دمشقي.. قدم مصر وروى عن الأوزاعي. ويروى عنه من اهل مصر فيما علمت موسى بن ربيعة الجمحي..»، ويضيف الحميدي في موقع آخر بأن الفقيه الأندلسي زهير بن مالك البلوي أبو كنانة كان «يفتي بقول الأوزاعي» وكان معاصراً لعبد الملك بن حبيب السلمي، وقد مات زهير قبل سنة ٢٥٠ هـ، بعد موت عبد الملك.

وشهدت الأندلس الكثير من الفقهاء الشاميين والأندلسيين الذين رحلوا إلى الشام، منهم ابو عبد الله محمد بن وضّاح بن بزيع المتوفى سنة ٢٨٦ هـ، مولى عبد الرحمن بن معاوية، وكان من الرواة المكثرين والأئمة المشهورين، رحل إلى المشرق وطوّف البلاد في طلب العلم. ومن الذين قصدهم عبد الرحمن بن ابراهيم قاضي دمشق المعروف بدحيم. كما رحل إلى المغرب والمدينة المنورة، وقصد الكثير من العلماء، ولما عاد إلى الاندلس حدّث فيها وأصبح له تلامذة كثر[٢].

كما شهدت الأندلس الكثير من الأدباء القادمين من الشام والمشرق، وكان الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم شغوفاً بالبيان مؤثراً لأهل الأدب، وقد قرّب إليه الأدباء والشعراء ومنهم أدباء الشام. وكان أبو اليسر الشاعر المعروف بالرياضي قد وصل من الشام قاصداً الأندلس، حيث ألّف فيها كتاباً على لسان ابن الشيخ في الشام، وأقام فترة في بلاط ابن الحكم الذي أكرمه. ثم توجه الرياضي

---

(١) د. أحمد مختار العبادي: العلاقات بين الشرق والغرب، ص ٣٠.

(٢) الحميدي، المصدر السابق، ص ٩٣ ـ ٩٤.

بعد ذلك إلى مصر ناقلاً معه أيضاً ملامح من الحضارة الأندلسية. وقد شهدت الفترة وفود جماعات من العلماء من الشام إلى الأندلس لنشر العلم والدين، كما ذهب الأندلسيون إلى المشرق للتعلم والتزود.

وكان الحكم بن عبد الرحمن الثالث الملقب بالمستنصر بالله « جامعاً للعلوم محباً لها، مكرماً لأهلها، وجمع من الكتب في انواعها ما لم يجمعه أحد من الملوك قبله هنالك، وذلك بإرساله عنها إلى الأقطار، واشترائه لها بأغلى الأثمان.. ».

ويذكر انه بعد وفاة وغياب الرعيل الأول لا سيما عبد الرحمن الداخل المتوفى ١٧٢ هـ ـ ٧٨٨ م (وهو في الستين من عمره)، تبيّن بأن المؤثرات الشامية بدأت تتقلص في الأندلس، لا سيما وأن الأجيال الطالعة الجديدة لم يسبق لها أن رأت الشام أو ارتبطت بها كما ارتبط بها الجيل الأول. وزاد من تقلص المؤثرات الشامية في الأندلس الصراع بين ابناء عبد الرحمن لا سيما بين ابنه الأكبر سليمان وابنه الأوسط هشام. فقد كان سليمان شامياً ومن مواليد الشام، عيّنه والده حاكماً على طليطلة (Toledo)، بينما كان هشام اسبانياً ومن جارية اسبانية، كما نشأ في تلك البيئة الأسبانية، وعيّنه والده حاكماً على مدينة ماردة (Merida)، وبينما كان سليمان يمثل الحزب الشامي، كان هشام يمثل الحزب الأندلسي[1]. وقد جرت معارك بين الأخوين انتهت بانتصار هشام وهزيمة سليمان الذي نفي إلى المغرب سنة ١٧٤ هـ. وكان معنى ذلك هزيمة الحزب الشامي. غير أنه بالرغم من هذا الواقع، إلا أن الخليفة هشام استمر معتمداً على الشاميين بصورة اساسية، ولما أراد محاربة البربر، ارسل لقتالهم (٢٧) ألفاً من الشاميين وانضم إليهم ثلاثة آلاف من المصريين.

ويذكر بأن الأجيال اللاحقة من الشاميين تأقلمت بالبيئة الأندلسية، وزاد من بعدها عن المؤثرات الشامية الخلافات بين الحكام المسلمين العباسيين وبين أباطرة القسطنطينية، واضطراب الأوضاع في المشرق. ويذكر ليفي بروفنسال في كتابه

---

(١) د. احمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص ٣٠ ـ ٣١.

(Islam D'occident) مصوراً هذا الواقع بقوله: « وقد ساعد الزمان وبعد المكان على زيادة العداء المعهود بين الأمويين باسبانيا، وبين خلفاء بغداد، بحيث بدأ الشام يفقد في نظرهم صفة « الفردوس المفقود » بعد أن صاروا يحكمون أرضاً لها المميزات نفسها والثراء والخصوبة والطبيعة التي لا تقل عن الشام تنوعاً وانسجاماً . . . ».

الفصل الثالث

التبادل الحضاري بين العراق والأندلس

الله غالب

الفصل الثالث

التبادل الحضاري بين العراق والأندلس

بدأت المؤثرات العراقية في الأندلس تظهر بوضوح منذ ايام الخليفة العباسي ابو جعفر المنصور الذي أسس مدينة بغداد سنة ١٤٥ ـ ١٤٩هـ ، وجعلها عاصمة لدولته ومقراً لخلافته، وأصبحت بغداد مدينة حضارية عالمية امتزجت فيها مختلف الثقافات وسكنتها عناصر من مختلف الأجناس والأقوام كالفرس والهنود والروم والصينيين. وكانت هذه العناصر قد بدأت بالمساهمة في إيجاد حضارة متمازجة، فساهمت في الترجمات والمؤلفات والعلوم الفارسية والهندية والسريانية والأغريقية والمصرية، فجرى تعريب أحكام سقراط وأفلاطون وأرسطو، كما ترجمت من العربية إلى اللاتينية الكثير من المؤلفات العلمية وتم تعريب كتب الرياضيات اليونانية وتصحيحها والإضافة إليها وتعريب القصص الهندية والفارسية مثال: قصة السندباد الهندية، وكليلة ودمنة (من الهندية إلى الفارسية) الذي ترجمه ابن المقفع من الفارسية إلى العربية في زمن ابي جعفر المنصور. وتم تعريب كتاب «هزار افسانة» أي «ألف خرافة» وهو المعروف باسم ألف ليلة وليلة[١]... وقد أشار المقدسي واصفاً العراق بقوله: «هذا اقليم الظرفا، ومنبع العلما، لطيف الما، عجيب الهوا، ومختار الخلفا، اخرج أبا حنيفة فقيه الفقها، وسفيان سيد القرا، ومنه كان أبو عبيدة، والفرا، وابو عمر صاحب المقرا...»[٢].

---

(١) د. احمد مختار العبادي: العلاقات بين الشرق والغرب، ص ٣٦. د. سعيد عاشور: المدنية الاسلامية وأثرها في الحضارة الأوروبية، ص ٥٢.

(٢) المقدسي: احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ١١٣.

وقد ارتبط هذا التطور العلمي بتطور صناعة الورق وتجليد الكتب ونسخها وتصحيحها مما ساعد على انتشار الحضارة العراقية المتمازجة والمتفاعلة مع سواها من الحضارات. وقد اصبحت بغداد ـ كما قيل ـ كعبة علمية يحج إليها طلاب العلم من مختلف مناطق العالم الإسلامي، وكانت الأندلس إحدى مناطق هذا العالم، فشهد العراق موجات أندلسية لتلقي العلم والفقه والمعرفة. وقد آثر الأمير عبد الرحمن الثاني (الأوسط) (٢٠٧ ـ ٢٣٨ هـ) الابتعاد عن سياسة من سبقه من الامراء الأمويين، وهي السياسة القائمة على الابتعاد عن العراق، فبدأ بالأخذ من الحضارة العراقية، ثم بدأ نفسه بتقليد الخليفة العباسي في مظهره وملبسه، كما فتح أبواب الأندلس للتجار العراقيين، فامتلأت اسواق الأندلس بالبضاعة والصناعات العراقية.

ولقد استمر هذا التقليد إلى عهد عبد الرحمن الثالث، الذي رغم معارضته لدعوة الفاطميين في المشرق، غير انه خلع على نفسه تبعاً للتقليد المشرقي والعراقي لقب «الناصر لدين الله». كما اقتدى بخلفاء بني العباس، فانشأ جيشاً من الأجانب، وبينما اعتمد خلفاء بغداد في انشاء جيوشهم على العناصر التركية، نجد الأمويين في الأندلس يعتمدون على الصقالبة السلاف.

وفي عهد عبد الرحمن الثاني شهدت قرطبة مؤثرات فنية وأدبية عراقية، ومما ساعد على ذلك ان الأمير عبد الرحمن كان محباً للعلم والعلماء فأحسن استقبالهم وأكرم ضيافتهم وقد نقل علماء وفقهاء العراق معهم الكثير من المؤثرات الأدبية والعلمية العراقية، اختلطت بالمؤثرات الشامية والحجازية والمصرية. ومن قضاته المقربين سعيد بن محمد بن بشير، ومحمد بن شراحيل المعافري، وأبو عمر بن بشير، وفرج بن كنانة الشذوني، ويحيى بن معمر اللاهاني الاشبيلي، وكان أخص الناس بعبد الرحمن من أهل الأدب عبيد الله بن قرلمان بن بدر الداخل[1]. ويذكر صاحب أخبار مجموعة بأن عبد الرحمن «كان له حظ من أدب وفقه وحفظ للقرآن

---

(١) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الاندلس، ص ٧٥.

ورواية للحديث...»[1] وحكى بعض نقلة الأخبار انه لم يصل احد إلى روايته «مشافهته». غير أنه أصبح فيما بعد متأثراً ببعض الأمراء في المشرق والأندلس، فقيل بأنه أمر مرة لجارية من جواريه بعقد ثمنه عشرة آلاف دينار، وعمل عبد الرحمن الثاني على اقتناء الكتب النادرة، فأرسل العلماء الأندلسيين إلى العراق وبعض بلدان المشرق لهذه الغاية، وبين مبعوثيه عباس بن ناصح الجزيري، الذي أتاه بكتاب «السند هند». واعتبر عباس بن ناصح أول من أدخل هذا الكتاب إلى الأندلس وعرّف أهلها به. ومن فقهاء الموصل الذين وصلوا إلى إشبيلية ابراهيم بن بكر الموصلي الذي حدّث بها عن أبي الفتح محمد بن الحسين بن احمد بن الحسين الأزدي الموصلي بكتابه «الضعفاء والمتروكين» وأصبح له تلامذة كثر من الفقهاء منهم اسماعيل بن عبد الرحمن بن علي المعروف باسم أبي محمد القرشي العامري المتوفى بعد سنة ٤٠٠ هـ. وسواه، كما أن بني حجاج بإشبيلية تأثروا بالمؤثرات العراقية، فقد استضاف الامير ابراهيم بن حجاج العالم النحوي أبو محمد العذري البغدادي والمغنية البغدادية قمر اضافة الى العالم العذوبي الحجازي.

وكان الحكم الثاني (المستنصر بالله) محباً أيضاً للعلوم متأثراً بعلماء بغداد، فقد طلب كتاب الأغاني لأبي فرج الأصفهاني ودفع فيه ألف دينار. فأرسل إليه أبو الفرج نسخة مخطوطة من الكتاب قبل نشره في بغداد. كما طلب الحكم من أبي الفرج تأليف كتاب عن سلالة الأمويين، فألّف له كتاباً في أنساب بني أمية.

أما المنصور بن أبي عامر، فقد استقدم بدوره من بغداد الشاعر سعيد البغدادي وعهد إليه بالكتابة عن جامع الزاهرة. كما ان اللغوي الأديب أبو العلاء صاعد بن الحسن الربعي ـ الذي جاء من الموصل منذ أيام هشام بن الحكم ـ أقام في بلاط المنصور بن أبي عامر في حوالي سنة ٣٨٠ هـ. وكان عالماً باللغة والآداب والأخبار والشعر. وقد ألف للمنصور كتاب «الفصوص» على نحو كتاب

---

(١) مؤلف مجهول: أخبار مجموعة في فتح الاندلس، وذكر أمرائها، ص ١٢٢.

« النوادر » لأبي عالي القالي، كما ألّف له عدة كتب أخرى.

ومن وصل الأندلس وحدّث فيها أبو الفتوح ثابت بن محمد بن الجرجاني العدوي الذي قدم الأندلس سنة ٤٠٦ هـ، وهو إلى كونه قائداً عسكرياً عند غزو المسلمين لسردينية، فهو أيضاً « كان أماماً في العربية متمكناً في علم الأدب، مذكوراً في التقدم في علم المنطق. دخل بغداد وأقام فيها في الطلب، وأملى بالأندلس في شرح كتاب « الجمل » لأبي القاسم عبد الرحمن بن اسحاق الزجاجي ». ومن فقهاء الأندلس الذين رحلوا إلى العراق طلباً للعلم والتزود. عبد الله بن محمد بن محمد بن عبد المؤمن الفقيه الأندلسي الذي رحل إلى العراق وسمع على فقهاء منهم: ابن داسة واحمد بن مالك ومحمد بن عثمان بن ثابت الصيدلاني وسواهم. وقد عاد إلى الأندلس وحدّث فيها. ومن فقهاء الأندلس الذين توجهوا للعراق عبد الله بن محمد بن قاسم القلعي الذي عاد إلى الأندلس وحدّث فيها[1]. كما وصل من العراق إلى قرطبة العالم الفقيه علي بن سعيد بن حزم بن غالب (٣٨٤ ـ ٤٥٠ هـ) الذي نظم شعراً عن علمه وعن حنينه للعراق بقوله:[2].

أنا الشمس في جو العلوم منيرة ... ولكن عيبي ان مطلعي الغرب

ولو انني من جانب الشرق طالع ... لجد على ما ضاع من ذكرى النهب

ولي نحو اكتاف العراق صبابة ... ولا غرو ان يستوحش الصب

فإن ينزل الرحمن رحلي بينهم ... فحينئذ يبدو التأسف والكرب

أما فيما يختص بالحياة الدينية في الأندلس[3]، فقد تأثرت في بعض فتراتها بالمؤثرات الدينية السائدة في العراق. فبالرغم من ان البعض يعتبر أن انتشار المذهب المالكي في الأندلس هو من المؤثرات الحجازية، غير أن المذهب المالكي،

---

(١) الحميدي، المصدر السابق، ص ١٨٤ ـ ٢٤٠.

(٢) الحميدي، المصدر السابق، ص ٣١٩ ـ ٣١٠.

(٣) انظر: الحميدي، المصدر السابق، ص ٦٧ ـ ٦٨، ٩١ ـ ٩٢.

الذي انتشر في العراق أيضاً ، نقله بعض الفقهاء إلى الأندلس عبر العراق وليس عبر الحجاز والمدينة فحسب . ومن فقهاء ورواة الحديث الأندلسيين الذين زاروا بغداد ونقلوا معهم مذهب الامام مالك ، الفقهاء : يحيى بن يحيى الليثي ، وفرغوس ابن العباس ، وسعيد بن أبي هند ، وعيسى بن دينار ، وسواهم . . ، وقد نقل هؤلاء بعد عودتهم فضل مالك وسعة علمه وجلال قدره علماً أن بعض فقهاء الأندلس زاروا العراق ودرسوا وأطلعوا على مذهب الإمام حنبل والمذهب الحنفي مذهب العباسيين في بغداد ، ولكن لم يقدر له الانتشار كثيراً في الأندلس بسبب الخلافات بين الأمويين والعباسيين . ومن الذين زاروا العراق أبو عبد الله محمد بن الملك بن أيمن بن فرج (المتوفى ٣٣٠ هـ) الذي رحل إلى العراق ، وكما يقول الحميدي « جذوة المقتبس » وسمع بها أبا عبد الرحمن عبد الله بن احمد بن حنبل وطبقته ، وحدّث بالمشرق والأندلس وصنف السنن » ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد السلام ابن ثعلبة بن الحسن بن كليب الخشني (المتوفى ٢٨٦ هـ) الذي عاد من العراق وبلاد المشرق إلى الأندلس ، وحدث زمناً طويلاً وانتشر علمه ، ومن شيوخه الذين سمع منهم بالمشرق محمد بن يحيي بن ابي عمر العدني ، ومحمد بن المثنى ، ومحمد بن بشار بندار وسلمة بن شيب ، وأبو إبراهيم اسماعيل بن يحيى المزني صاحب الشافعي ومحمد بن المغيرة ومحمد بن وهب . وقال الحميدي : « قال لي بعض المشايخ : انه سمع الإمام أبا عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل . . » ، وممن رحل إلى العراق طلباً للعلم والتفقه أبو عبد الله محمد بن مطرف وهو فقيه فاضل ومشهور .

ومن العراقيين الذين وصلوا الأندلس ، الرحالة التاجر الموصلي ابن حوقل الذي زار الأندلس ومدنها ، ووصفها لنا في كتابه « صورة الأرض » معتبراً ان بعض مدنها وصناعاتها مشابهة للمدن والصناعات العراقية ، ومما قاله عن مدينة قرطبة : « أعظم مدينة بالأندلس قرطبة ، وليس بجميع المغرب لها شبيه ، ولا بالجزيرة والشام ومصر ما يدانيها في كثرة أهل ، وسعة رقعة وفسحة أسواق ، ونظافة محال ، وعمارة مساجد وكثرة حمامات وفنادق . ويزعم قوم من سافرتها الواصلين إلى مدينة السلام انها كأحد جانبي بغداد . . . وقرطبة وإن لم تك كأحد

جانبي بغداد فهي قريبة من ذلك ولاحقة بـه . . »، وحـول بعـض الصنـاعـات الأندلسية المماثلة للصناعات العراقية قال ابن حوقل : « . . ويعمل عندهم من الخز السكب والسفيق ما يزيد ما استعمل منه للسلطان على ما بالعراق ، ويكون منه المشمع فيمنع المطر أن يصل إلى لابسه »[1] . وتشير المصادر إلى أن عهد عبدالرحمن الثالث (الناصر لدين الله) قد حفل بالمؤثرات الصناعية العراقية ، كما استجلب من العراق التحف الفنية والحلي والجواهر .

أما من الناحية الفنية ، فقد اشتهرت بغداد بالموسيقى والغناء ، ووفد منها الى الأندلس الكثير من المغنيات . وبدأت الموسيقى العراقية تنتشر في مـدن ومنـاطـق الأندلس ، بالإضافة إلى الموسيقى المدنية . وفي أوائل عهد الأمير عبد الرحمن الثاني وصل إلى قرطبة مغن عراقي كردي فارسي الأصل اسمه زرياب (أبو الحسن علي ابن نافع) (زرياب طائر أسود حسن التغريد) . وكان زرياب أسود اللون حسن الصوت ، وهو تلميذ للموسيقي العراقي الكبير اسحق الموصلي . وقد ترك زرياب العراق في عهد الخليفة هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ) مضطراً بعد خلاف مع أستاذه. واستغرقت رحلة زرياب إلى الأندلس ثلاث عشرة سنة أي من سنة ١٩٣ إلى ٢٠٧ هـ[2] .

هذا ونقل زرياب إلى الأندلس المقومات الموسيقية العراقية ، وطغى بذلك على مدرسة الحجاز الموسيقية ، وقد علّم الأندلسيين طرقاً موسيقية جديدة في كيفية التأليف والأداء وكيفية الإبتداء والإنتهاء ، وجعل المضراب من قوادم النسر بـدلاً من الخشب مما ساعد على نقاء الصوت ، وأضاف وتراً خامساً للعود . ومما ذكره الحميدي عن زرياب وموقعه في الأندلس : « وزرياب عندهم كان يجري مجرى الموصلي في الغناء . وله طرائق أخذت عنه وأصوات استفيدت منه ، وألفت الكتب بها ، وعلا عند الملوك بضاعته وإحسانه فيها علواً مفرطاً ، وشهر شهرة ضرب بها

---

(١) ابن حوقل: صورة الأرض ، ص ١٠٧ - ١٠٩ .

(٢) د . احمد مختار العبادي ، المرجع السابق ، ص ٣٧ - ٣٨ .

المثل في ذلك». ونظراً لأهمية زرياب الفنية فقد ألّف أبو الحسن أسلم بن أحمد بن السعيد كتاباً هاماً في أغاني زرياب وقيل فيه: «وأسلم هذا من بيت جليل وهو صاحب الكتاب المشهور في أغاني زرياب» وأصبح زرياب في الأندلس والمشرق مضرب الأمثال، فلما استمع ابن عبد ربه صاحب «العقد الفريد» الى صوت جميل يغني قال شعراً:[1].

يا من يضن بصوت الطائر الغرد	ما كنت احسب هذا البخل في احد
لو كان زرياب حياً ثم اسمعه	لذاب من حسد أو مات من كمد

والأمر اللافت للنظر ان موسيقى زرياب لا يزال أثرها ماثلاً الى الآن في الموسيقى الاسبانية والمغربية والجزائرية والتونسية والليبية. وقد بلغ اهتمام الأمير عبد الرحمن الثاني بموسيقى زرياب أن أنشأ له خصيصاً مدرسة لتعليم فن الموسيقى والغناء واستخدام الآلات الموسيقية. وكان الطلبة الأندلسيون في مدرسة زرياب يعزفون باتقان على العود والغيتار (القيثارة). ثم قاد العرب الغرب الى الموسيقى متعددة الأصوات (الهارموني) بالعزف على أكثر من وتر. ثم ازدادت الموسيقى العربية انتشاراً بواسطة المستعربين والنساء الأندلسيات والمغنين الرحالة (التروبادور) (Troubadours)، وبدأ أثرها يظهر بوضوح في الموسيقى اللاتينية لا سيما في القرنين الثاني عشر والثالث عشر وهناك رأي يشير إلى أن كلمة «تروبادور» ذاتها المستعملة في الأسبانية مشتقة من الكلمتين العربيتين «دور طرب». والتروبادور «في الأصل نظام غنائي شعري على النسق العربي، وضعه الشاعر الغنائي العربي ابن قزمان الذي اصبح شاعر البلاط الكبير في بطليوس، ثم قسا عليه الدهر، فأصبح مغنياً متجولاً يصحب قرداً ويسير في الشوارع يستجدي الناس. كما انتقل فن الغناء العربي في الأندلس الى صقلية بواسطة الملك وليم التاسع وفريدريك الثاني، حيث وجدت في بلاطها الكثير من المغنيات والشاعرات الأندلسيات. أضف الى ذلك أن فريدريك نفسه كان قد تزوج من اميرة اسبانية

---

(١) انظر: الحميدي، المصدر السابق، ص ١٠١ - ١٠٢، ١٤٦.

من ارغون، وقد نقلت معها وصيفاتها وفرسانها الذين نقلوا معهم مميزات الحضارة الأندلسية.

والواقع فإن أثر زرياب وزوجته وبناته لم يقتصر على الموسيقى والغناء، وإنما كان اثرهم واضحاً أيضاً في الحياة الإجتماعية الأندلسية. فقد قامت عائلة زرياب بتعليم الأندلسيات أسلوب تنظيم المظهر الخارجي للنساء وكيفية ترتيب الألبسة، والأوقات المناسبة لارتداء أنواع منها، أو ارتداء ألبسة وفق الألوان والأشكال في فصول معينة من السنة وفي وقت معين من اليوم. وقد عرفت هذه المراسم واللياقات (الاتيكيت) باسم «مراسم زرياب». من جهة ثانية فقد نظم زرياب أسلوب تقديم الأطعمة وعمل على إضافة مأكولات جديدة نقلها من العراق، كما أدخل الى الأندلس أنواعاً من الخضراوات لم تكن شائعة فيها وحرص هو وعائلته على تعليم الفتيات والوصيفات الأندلسيات أسلوب الجلوس على طاولة الطعام وتراتبية تقديم الأطعمة... واقتداء بزوجته وبناته تعلمت النساء أناقة الملبس فأصبحن يلبسن الثياب فاتحة الألوان في الربيع، والملابس البيضاء في الصيف والمعاطف والقبعات من الفرو في الشتاء. وفيما بعد شوهد الأسبان المسيحيون يلبسون الزي العربي الأنيق. وكان عبد الله بن قاسم أسقف إشبيلية ومطران طليطلة والوليد قاضي المسيحيين في قرطبة لا يحملان اسماء عربية فحسب، ولكن يلبسان الزي العربي ويتلوان كسواهما من المسيحيين الإنجيل باللغة العربية. وكان الأسقف يوحنا هو الذي قام بترجمة الإنجيل إلى العربية.

ويذكر بأن عبد الرحمن الثاني قد أعجب بالأزياء العراقية، فبدأ يلبس الثوب العراقي والغفارة العراقية (كوفية وغطاء للرأس)[1]. كما يشار إلى أن منصب الوزير استحدث في الأندلس تأثراً بالأنظمة العباسية في العراق. وكان عبد الرحمن هو أول من رتّب مسألة مجيء ودخول الوزراء الى القصر والتكلم في الرأي حسب ما هو معمول به في بغداد «وكان له وزراء لم يكن للخلفاء قبله ولا بعده

---

(١) ابن القوطية: المصدر السابق، ص ٧٦.

مثلهم ». ويذكر ابن القوطية بأن زرياب حل من عبد الرحمن بن الحكم بكل محل، وكان أهلاً لذلك في أدبه وروايته وتقدمه في الصناعة التي كانت بيده. ومن اخباره انه غناه يوماً صوتاً استحسنه فقال: « يؤمر الخزان ان يدفعوا اليه ثلاثين ألف دينار فأتاهم صاحب الرسائل بالعهد... فقال لصاحب الرسائل: نحن وإن كنا خزّان الأمير، ـ أبقاه الله ـ فنحن خزان المسلمين، نجبي أموالهم وننفقها في مصالحهم، لا والله ما ينفذ هذا، ولا منّا من يرضى ان يرى هذا في صحيفته غداً، أن نأخذ ثلاثين ألفاً من أموال المسلمين وندفعها إلى مغن في صوت غناه. يدفع إليه الأمير ـ أبقاه الله ـ ذلك مما عنده، فأنصرف صاحب الرسائل وأعلم الأمير بما قاله له الخزان. فتعجب زرياب من عدم الطاعة. فقال عبد الرحمن: « هذه الطاعة. ولأولينهم الوزارة على هذا الأمر، وصدقوا فيما قالوا، ثم أمر بدفعه إلى زرياب مما عنده »[1].

---

(١) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الاندلس، ص ٨٣ ـ ٨٤.

الله غالب

الفصل الرابع

التبادل الحضاري بين الحجاز والأندلس

الله غالب

الفصل الرابع

التبادل الحضاري بين الحجاز والأندلس

كان الحجاز في القرن الثاني الهجري مركزاً ثقافياً للعلوم الدينية والفنية والموسيقية، ويكفي الاطلاع على كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني لتكوين فكرة حقيقية عن مدى الازدهار الفني الذي بلغته مكة والمدينة في تلك الفترة. ففيهما ظهرت المدارس الموسيقية الأولى في الإسلام، ثم انتقلت مؤثراتها وخصائصها الى الأندلس بواسطة المغنين والمغنيات والجواري، الذين نقلوا أيضاً العادات والتقاليد الحجازية.

ومن بين مغنيات المدينة التي وفدت الى الأندلس « عجفاء » التي أثارت إعجاب الأندلسيين بغنائها في عهد هشام، والثنائي الغنائي علون وزرقون اللذين وفدا في عهد هشام أيضاً. وقد بنى الأمير عبد الرحمن بن الحكم بن هشام قصراً خاصاً للمغنيات أطلق عليه اسم « دار المدنيات » نسبة الى المدينة. وكان بعض الفتيات القادمات من الحجاز لا تهتم إلا بقراءة القرآن الكريم، ونشد المدائح والموشحات الدينية والشعر المتزن الملتزم. وقد ذكر الحميدي بأن رجلاً مشرقياً يدعى الشيباني دعا مرة قاضي قرطبة محمد بن اسحق بن السلم (أبو بكر) وقال له: « عندي جارية مدينية لم يسمع بأطيب من صوتها، فإن أذنت اسمعتك عشراً من كتاب الله عزَّ وجلّ وأبياتاً. فقال: إفعل، وأمر الجارية، فقرأت ثم أنشدت، فأستحسن ذلك القاضي وعجب منه ».

أما من الناحية الدينية [1]، فقد ظهر أثر المدينة المنورة واضحاً في الأندلس،

(١) انظر: الحميدي: جذوة المقتبس، ص ٢٥٥، ٢٥٧، ٢٦٦، ٢٨٤.

ومن بين المؤثرات الهامة دخول مذهب الإمام مالك بن أنس الى الأندلس. والإمام مالك عاش في المدينة وتوفي فيها سنة ١٧٩ هـ. وألّف كتاباً في الفقه والحديث معا أسماه «الموطأ» (أي السهل الواضح)، وقد ذاعت اجتهاداته في مختلف الأمصار الإسلامية. وانتشر مذهبه في الأندلس في عهد الأمير هشام، وكان أول من أدخل هذا المذهب إلى الأندلس أبو عبد الله زياد بن عبد الرحمن بن زياد اللخمي المعروف باسم «شبطون» المتوفى سنة ١٩٣ هـ. ومما ساعد على انتشار هذا المذهب في الأندلس الخلافات السياسية بين العباسيين اتباع المذهب الحنفي وبين الأمويين الذين اعتنقوا المذهب المالكي ـ بعد أن تخلوا عن مذهب الإمام الأوزاعي ـ لأن الإمام مالك كان معادياً للحكم العباسي. وقد ساعد الفقهاء الأندلسيين على نقل مذهبه إلى الأندلس بعد أن قاموا بزيارات علمية إلى المدينة وبلدان المشرق الإسلامي. ولعل وجود عناصر عسكرية كثيرة من الحجازيين من الذين وصلوا الأندلس بقيادة موسى بن نصير، ثم وجود تشابه في طبيعة الحجازيين والأندلسيين وبساطة حياتهم، كانت من جملة الأسباب التي أدت الى انتشار واعتناق الأندلسيين للمذهب المالكي.

ويذكر ابن القوطية، انه في أيام عبد الرحمن بن معاوية دخل «الغازي بن قيس» الأندلس بالموطأ عن مالك بن أنس ـ رحمه الله ـ وبقراءة نافع بن أبي نعيم. وفي أيامه دخل أبو موسى الهواري عالم الأندلس، وكان قد جمع علم العرب الى علم الدين، وكانت رحلتها من المشرق الى الأندلس بعد دخول عبد الرحمن بن معاوية اليها. وأضاف ابن القوطية، بأن زياد بن عبد الرحمن اللخمي رحل الى المدينة المنورة واجتمع هناك بالإمام مالك بن أنس الذي سأله عن هشام، فأخبره عن مذاهبه وحسن سيرته فقال مالك: «ليت الله زيّن سمتنا بمثل هذا». وممن اجتمع بمالك قاضي الأندلس في عهد هشام القاضي محمد بن بشير الذي رحل الى المشرق وحج البيت، «وسمع من مالك بن أنس سماعاً يسيراً»[1].

---

(١) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الاندلس، ص ٥٦، ٦٢، ٦٤.

هذا وقد حل المذهب المالكي محل مذهب الإمام الأوزاعي باستثناء بعض المسائل التي تمسك بها الأندلسيون كإجازة غرس الأشجار في صحون المساجد. وفي عهد «المرابطين» في القرن الثاني عشر الميلادي، انتشر المذهب المالكي في دولتهم. وكان انتشاره في المغرب الإسلامي (شمالي افريقيا) منذ القرن التاسع الميلادي، بينما كان عام ٤٤٠ هـ ـ ١٠٤٨ م هو عام الانتصار الكامل للمذهب المالكي في المغرب. وكانت وحدة المذهب التي حظي بها الفقهاء المغاربة في جميع انحاء البلاد قد اضفى على ممارساتهم وحدة في الأحكام والأعمال. ويقول المؤرخ عبد الرحمن المراكشي في هذا المجال «لم يكن يقرب من أمير المسلمين ويحظى عنده إلا من علم علم الفروع، أعني فروع مذهب مالك، فنفعت في ذلك الزمان كتب المذهب، وعمل بمقتضاها ونبذ ما سواها...»، على أن عصر المرابطين شهد في زمن علي بن يوسف تاشفين حادثة مؤسفة تدل على أن فقهاء دولته لم يعد يهمهم سوى اعتناق آرائهم ونبذ ما يناقضهم. ففي عام ٥٠٣ هـ ـ ١١٠٩ م وبأمر من علي بن يوسف تاشفين قام نفر بإحراق مؤلفات الغزالي المشهورة «احياء علوم الدين» التي أثارت حفيظة ونقمة فقهاء المغرب، لأنها فضحت نزعات الفقهاء في دراساتهم الفقهية وحرصهم على الدنيا، وطمعهم في الحصول على المناصب الرفيعة وحسدهم للعلماء الزهاد.

من جهة أخرى فقد ظهرت في الأندلس مؤثرات مشرقية دينية أخرى، ففي طليطلة ظهر مذهب الخوارج. وقال ابن القوطية انه «ظهرت بالجزيرة خارجية تشبه مذاهبهم مذاهب الخوارج أيام ثورتهم على علي ومعاوية رضي الله عنهما، ومن بعدهما. فكتب عباس بن ناصح الى الحكم شعراً يغري بهم ويحض على إنكار ما احدثوه..»[1] وبالفعل فقد أجهز الحكم بن هشام عليهم وأعمل بهم السيف والقتل. ثم عمد الحكم الى تقريب الفقهاء المالكيين وفي مقدمتهم طالوت بن عبد الجبار المعافري «وهو احد من روى عن مالك ونظرائه من اهل العلم».

---

(١) ابن القوطية: المصدر السابق، ص ٦٧.

ومن الملاحظ أن الأثر الحجازي واضح في الأندلس اكثر من بقية المؤثرات، وذلك نظراً لكثرة الفقهاء والتلامذة الأندلسيين الذين وفدوا الى مكة والمدينة، وانتقال الفقهاء الحجازيين إلى الأندلس أيضاً. ومن الفقهاء المكيين الذين دخلوا الأندلس حاملاً معه المؤثرات المكية والمشرقية محمد بن عبد الواحد بن الزبير الزبيري المولود في مكة سنة ٣٥٧ هـ. وقد مر ببغداد والشام ومصر وسمع بها، ثم دخل الأندلس وحدث بها. ومن الفقهاء الأندلسيين الذين وفدوا إلى الحجاز والمشرق ثم عادوا إلى الأندلس وحدثوا فيها: أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن اسد الجهني البزاز الذي تفقه في الأندلس ثم رحل الى المشرق وسمع الفقه على بعض الفقهاء مثال: أبو بكر أحمد بن محمد بن أبي الموت المكي، وأحمد بن محمد بن اشته الأصبهاني صاحب كتاب (المحبر) في القراءات. ومن الفقهاء الأندلسيين الذين رحلوا إلى الحجاز والعراق عبد الله بن إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن جعفر الأموي وهو من كبار أصحاب الحديث والفقه، وقد سمع على فقهاء المشرق، ثم عاد إلى الأندلس محدثاً. كما أن الفقيه أبا محمد عبد الله بن الوليد بن سعد بن بكر الأنصاري وهو فقيه محدث زاهد، قد وصل من الأندلس إلى مكة قبل سنة ٣٨٠ هـ، وسمع فيها كثيراً، وأقام فيها مدة ثم انتقل الى مصر وبيت المقدس حيث توفي فيه. ومنهم الفقيه الأندلسي عبد الملك بن زيادة الله أبي مضر بن علي السعدي التميمي الذي رحل اكثر من مرة الى الحجاز ومصر، وكان من أهل الحديث والأدب، وإماماً في اللغة والشعر ومن بيت جلالة ورياسة وله رواية وسماع بالأندلس. عاد إلى الأندلس وتوفي في قرطبة بعد سنة ٤٥٠ هـ. وكان شعره على طريقة العرب. كما أن الفقيه عبد الملك بن سليمان الخولاني سافر الى مكة ومصر، ثم عاد وتوفي في ميورقة في الأندلس قبل سنة ٤٤٠ هـ.

الفصل الخامس

التبادل الحضاري بين مصر والأندلس

الله غالب

الفصل الخامس

التبادل الحضاري بين مصر والأندلس

انتقلت المؤثرات العربية المصرية الى بلاد الأندلس بواسطة الجنود والرحالة والفقهاء والمغنين والمغنيات والمهنيين وسواهم. ومن المعروف أنه وجد في الأندلس الكثير من المصريين الذين شاركوا في فتح الأندلس بقيادة بلج بن بشر، كما أن القائد كلثوم بن عياض القشيري قد أرسل من مصر في زمن الخليفة هشام بن عبد الملك الى الأندلس وأفريقية ثلاثة آلاف مقاتل لمقاتلة البربر، ثم اتبعهم بثلاثين ألف من أهل الديوان (من الشاميين) واعداد أخرى تبعتهم فيما بعد [1]. ولذا فإن المؤثرات الاجتماعية والثقافية والدينية انتقلت من مصر الى الأندلس بصورة أو بأخرى. وكانت المؤثرات الإسلامية بوجه عام ظاهرة في العادات والتقاليد الأوروبية. فبعد تشدد الحاكم بأمر الله في مصر في منع النساء من الخروج من المنازل، وبعد أن كانت عادة التزام **النساء المسلمات أدباً شرعياً**، صارت هذه العادة أسلوب الأشراف والكبراء في اسبانيا. واستمرت هذه الظاهرة الى فترة **متأخرة، وبتأثير الأسبان كانت لا تُرى** امرأة قط في شوارع ايطاليا حوالي منتصف القرن السابع عشر الميلادي [2].

كما ان المؤثرات الصناعية والفنية المصرية بدت واضحة في الصناعة الأندلسية

---

(١) انظر: مؤلف مجهول: اخبار مجموعة، ص ٣٦.

(٢) آدم متز: الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري (او عصر النهضة في الاسلام)، جـ٢، ص ١٧٦.

والفن الأندلسي، فقد انتقل الى الأندلس بعض الصنّاع المصريين، الذين أدخلوا معهم بعض الصناعات المصرية وبينها صناعة السجاد والمنسوجات والمطرزات والنحاسيات. كما نقل المصريون معهم لهجتهم وألفاظهم وعاداتهم وتقاليدهم العربية التي « تمصّرت » فأثروا وتأثروا بالأندلسيين. ومن العادات المصرية السيئة التي انتشرت في الأندلس شرب وأكل « حشيشة الكيف ». فالرحالة الغرناطي ابن سعيد المغربي الذي زار مصر في القرن السابع الهجري، عاب على المصريين أكلهم الحشيشة وتباهى بأن بلاده نظيفة من هذه الآفة، ولكن بعد قرن من كلام ابن سعيد (أي في القرن الثامن الهجري) نجد نصوصاً كثيرة تشير الى انتشار الحشيشة في غرناطة في عهد السلطان محمد السادس، الذي أصبح بدوره من المدمنين[1]. ومن المرجح أن المصريين هم الذين نقلوا معهم هذه المادة الى الأندلس. ويبدو أن المؤثرات والتبادل التجاري كان واقعاً بين مصر والأندلس. وبذلك يقول ابن حوقل الذي زار الأندلس سنة ٣٣٧ هـ، زمن عبد الرحمن بن محمد « وبالأندلس غير طراز يرد إلى مصر متاعه وربما حمل منه شيء إلى أقاصي خراسان وغيرها. ومن مشهور جهازهم الرقيق من الجواري والغلمان من سبي أفرنجة... فأما إرديتهم المعمولة ببجانة فتحمل إلى مصر ومكة واليمن وغيرها »[2] كما أشار المقدسي إلى الضرائب المفروضة على صناعة الألبسة والقش والزيت المنقولة بواسطة السفن سواء الى الغرب أو بلاد الشام[3].

بالإضافة الى ذلك فإن المؤثرات المعمارية المصرية انتقلت الى الأندلس، بواسطة المهندسين والعمال الاسكندرانيين، وقد ظهر الأثر الاسكندراني المعماري واضحاً في العمارة الأندلسية لا سيما في مدينة مدريد (مجريط). وقد تميزت مدينة مجريط بكثرة المجاري (ومن هنا اشتق اسمها) على غرار مدينة الاسكندرية.

---

(١) انظر: د. احمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص ٤٢.
(٢) ابن حوقل: صورة الارض، ص ١٠٥ ـ ١٠٦.
(٣) المقدسي: احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، ص ٢١٣.

ويشير المقري بأن أحد المشرفين على بناء مدينة الزهراء التي بناها الخليفة عبد الرحمن الناصر في قرطبة كان مصرياً من أهل الاسكندرية واسمه علي بن جعفر.

هذا وقد استقدم خلفاء بني أمية في الأندلس المغنيين والمغنيات من المشرق ومن هؤلاء عبد الواحد الاسكندراني الذي كان مغنياً وأديباً، ولهذا فقد قرّبه عبد الرحمن بن الحكم وولاّه أخيراً الوزارة وأمور المدينة. كما استقدم عبد الرحمن الثالث سنة ٣٤٤ هـ، من الاسكندرية عدداً من أهل الغناء والطرب والموسيقى. واستقدم من المشرق آخرين منهم ومن العلماء والفقهاء بينهم أبو علي اسماعيل بن القاسم القالي العالم اللغوي سنة ٣٣٠ هـ، الذي استمر مكرماً زمن الحكم المستنصر والذي ألّف له كتاب «الآمالي»، وكان الحكم كسابقيه محباً للعلم، فهو الذي طلب كتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني ودفع فيه ألف دينار.

ويذكر بأن الخليفة الحكم الثاني (المستنصر بالله) قد استجلب من مصر وبغداد وبلاد المشرق عيون التآليف والمصنفات العربية في مختلف العلوم، وقد بلغت مكتبته الآلاف من الكتب، وقيل إنه اجتمع في خزانة كتبه ما يقارب أربعمائة ألف مجلد، ليس هذا فحسب بل عمل على نشر العلم والمعرفة، فابتنى في قرطبة سبعاً وعشرين مدرسة وادخل إليها الطلاب الفقراء مجاناً. وكان الأساتذة في هذه المدارس من المصريين والشاميين والعراقيين. كما قرّب الحكم إليه محمد بن يوسف (أبو عبد الله) التاريخي الورّاق الذي ألّف له كتاباً ضخماً في «مسالك افريقية وممالكها» وألّف في أخبار ملوكها وحروبهم. وألّف له كتباً في تاريخ تيهرت (تاهرت) ووهران وتنس وسجلماسة ونكور والبصرة.

ومن بين المؤرخين المصريين الذين اهتموا بأخبار الأندلس المؤرخ عبد الله بن لهيعة الذي كان يلاحق القادمين من الأندلس، فيسألهم ليدون مشاهداتهم ومعارفهم، غير أن كتاباته ضاعت وورد ذكرها في مصادر أخرى. أما أقدم كتاب وصل الينا عن تاريخ المغرب والأندلس، فهو الذي كتبه المؤرخ المصري

عبد الرحمن بن عبد الحكم (١٨٧ ـ ٢٥٧ هـ) وعنوانه « فتوح مصر والأندلس ». وقد انتشر هذا الكتاب في الأندلس وأخذ عنه الكثير من المؤرخين الأندلسيين أمثال ابن الفرضي وابن خير والحميدي وسواهم. وكان ابن عبد الحكم ابن الفقيه عبد الله المتوفى ٢١٤ هـ، الذي كان إماماً للمالكية في مصر، بينما كان ابن عبد الحكم عالماً بالتاريخ فقيهاً صديقاً للإمام الشافعي. وقد تضمن كتابه معلومات هامة عن تاريخ مصر والاقباط وبني اسرائيل وذكر ملوك مصر والروم والفرس وبناء الاسكندرية والفسطاط، ومعلومات هامة عن بلاد الأندلس وأفريقية والمغرب والنوبة. والأمر اللافت للنظر أن الاندلسيين تأثروا بمنهج عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم في التاريخ لا سيما تأريخ بلادهم، بحيث يمكن القول إن أقدم كتاب كتبه الأندلسيون عن تاريخ بلادهم هو تاريخ عبد الملك بن حبيب الألبيري الذي عاش في القرن الثالث الهجري ودرس في مصر فترة طويلة، ونقل في كتابه كل ما سمعه من روايات عن شيوخه المصريين، ثم عاد الى قرطبة حيث كان يعقد حلقات دروسه في مسجدها الجامع، فحدّث فيه وكان له سماع [1]. وكان للمدرسة التاريخية الأندلسية آثار واضحة في الكتابات التاريخية الأوروبية. وكان أول مؤرخ للأندلس الاسلامية عبد الملك بن حبيب (١٧٩ ـ ٢٣٨ هـ، ٧٦٦ ـ ٨٥٣ ـ ٨٥٤ م) [2].

أما فيما يختص بالناحية الدينية والفقهية، فقد ساد في مصر المذهب المالكي بعد أن انتقل من المدينة وانتشر في مصر، والبعض من الفقهاء نقله معه الى الأندلس. وبالرغم من أن الامام الليث بن سعد كان مصرياً من بلدة قلقشندة من أعمال القليوبية، وكان يعيش في مصر، غير أن المصريين فضّلوا مالك عليه، وقد علّق على ذلك الإمام الشافعي المتوفى سنة ٢١٤ هـ في مصر بقوله: « اللّيث بن سعد أفقه من مالك، إلا أن أصحابه لم يقوموا به »، غير أن الأندلسيين الذين

---

(١) للمزيد من التفصيلات انظر كتاب ابن الحكم: فتوح مصر والمغرب والأندلس.

(٢) للمزيد من التفصيلات انظر: د. جمال الدين الشيال: التاريخ الإسلامي وأثره في الفكر التاريخي الأوروبي، ص ٢٨ ـ ٤٤.

درسوا في مصر على الإمام الليث بن سعد ، فقد نقلوا مذهبه إلى الأندلس، حيث ظلت بعض تعاليمه وأحكامه معمولاً بها إلى جانب المذهب المالكي حتى أواخر الحكم الإسلامي في الأندلس. كما انتقل إلى الأندلس أيضاً مذهب الامام محمد بن ادريس الشافعي بواسطة الفقيه بقي بن مخلد في عهد الأمير عبد الرحمن الثاني، ولكن لم يقدر له الانتشار كثيراً بسبب معارضة المالكية وبعض الأمراء لأحكامه. ولما تحدث المقدسي عن اقليم مصر وشرح فيه بعض المذاهب الدينية قال: «... إن أكثر فقهائهم مالكيون»[1]. ولما تحدث عن الأندلس قال: «... أما في الأندلس فمذهب مالك وقراءة نافع وهم يقولون لا نعرف الا كتاب الله، وموطأ مالك...»[2].

والحقيقة فإن المؤثرات المذهبية في مصر قد انتقلت إلى الأندلس بواسطة التبادل الحضاري والعلمي والرحلات القائمة بين البلدين، وبواسطة بعض الفقهاء والتلامذة الذين وفدوا من الأندلس والمغرب، والذين تلقوا علومهم على فقهاء مصريين أمثال: عبد الرحمن بن القاسم وعبد الله بن وهب وأشهب بن عبد العزيز ونصر بن مرزوق المصري الذي أخذ عنه محمد بن فطيس بن واصل الغافقي الألبيري. كما أن الفقيه الأندلسي محمد بن الفرج بن عبد الولي الأنصاري الطليطلي درس الفقه - بالإضافة إلى مكة والقيروان - في مصر على فقهاء أمثال أبي محمد ابن النحاس، وأبي القاسم يحيى بن علي بن محمد بن ابراهيم.

ويذكر الحميدي[3] الكثير من الفقهاء الأندلسيين الذين تتلمذوا في مصر، أو فقهاء من مصر رحلوا إلى الأندلس ومن الفقهاء الذين رحلوا الى مصر: محمد بن هارون بن عبد الرحمن بن عبد الفضل بن عميرة العتقي، وهو من فقهاء الأندلس، رحل الى مصر وسمع من الفقيه أبي يزيد يوسف بن يزيد بن كامل بن

---

(١) المقدسي: احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، ص ٢٠٢.
(٢) المقدسي، المصدر نفسه، ص ٢٣٦.
(٣) الحميدي: جذوة المقتبس، ص ٩٥.

حكيم القراطيسي ثم عاد الى الأندلس وحدث فيها، ثم توفي سنة ٣٠٦ هـ، كما أن أبا العباس أحمد بن محمد الحاج بن يحيي الأشبيلي، كان فقهياً ومحدّثاً مكثراً. رحل إلى مصر وسكن فيها وحدث فيها طويلاً ثم توفي في الفسطاط سنة ٤١٥ هـ. وقد أشار الى علمه القاضي المصري أبي الحسن علي بن الحسن بن الحسين الفقيه المصري المعروف بابن الخلعي. ومن فقهاء الأندلس الذين رحلوا الى مصر وبغداد ومكة أحمد بن عبد الله بن محمد بن علي أبو عمر الفقيه المعروف بابن الباجي المتوفى حوالي سنة ٤٠٠ هـ، وقال أحد الفقهاء فيه: «كان أبو عمر الباجي أمام عصره وفقيه زمانه جمع الحديث والرأي والبيت الحسن والهوى والفضل. ولم أرَ بقرطبة ولا بغيرها من كور الأندلس رجلاً يقاس به في علمه بأصول الدين وفروعه. كان يذاكر بالفقه ويذاكر بالحديث.. رحل متأخراً للحج فكتب بمصر عن أبي بكر أحمد بن محمد بن اسماعيل المعروف بابن المهندس..».

هذا وقد رحل أيضاً إلى مصر الفقيه الأندلسي ابراهيم بن موسى بن جميل (أبو اسحاق مولى بني أمية)، وسمع فيها محمد بن عبد الله بن عبد الحكم (شقيق المؤرخ المصري عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم) كما رحل الى العراق وسمع من فقهائها، ثم عاد الى مصر فحدّث فيها، ثم مات سنة ٣٠٠ هـ، كما أن الفقيه العالم أبا العباس القمري الوليد بن بكر بن مخلد بن أبي زياد، رحل من سرقسطة الى طرابلس الغرب، ثم استقر فترة في مصر فدرس على فقهائها. ثم تابع رحلته الى الشام والعراق وخراسان، طلباً للعلم ما لبث أن توفي سنة ٣٩٢ هـ.

وعن التبادل الأدبي والمؤثرات الشعرية بين مصر والأندلس، فقد سافر الكثير من الأدباء والشعراء في رحلات متبادلة بين البلدين، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر: الشاعر الأندلسي محمد بن هاني الذي رحل الى مصر، والتقى هناك بشعرائها وأدبائها. والشاعر والأديب الأندلسي سعيد بن أحمد بن خالد الذي رحل أيضاً إلى مصر والتقى بعلمائها وشعرائها وأدبائها. وقد طلب بعض الشعراء المصريين استنشاد الشعر لأهل الأندلس، فأنشد شعراً جميلاً. فقال أحد شعراء مصر: «لا يخفى أشعاركم إلى جانب أشعارنا، كما لا يخفى البدر في سواد الليل»

قال الشاعر سعيد: «وأين لأهل الأندلس بمثل قول الحسن بن هاني؟ وأنشده أبيات يحيى بن حكم الغزّال..» فلما سمعها المصري طرب واهتز وقال: لله در الحسن. فلما أكثر قال له: الشعر والله ليحيى بن حكم الأندلسي، وإنما أردت تجربة نقدك، والنقض عليك. فرد ذلك وأنكره حتى صحّ ذلك عنده، فخجل وأظهر التعجب، ولم يراجع بعد في اشعار أهل الأندلس قال: وكان كثيراً ما يستنشدني لهم»[1].

من جهة ثانية لا بد من الإشارة بأن مصر شهدت تمازجاً سكانياً مع الأندلسيين في بعض الحقب التاريخية. ففي القرن التاسع الميلادي، وبعد أن تم قمع الفتنة في قرطبة سنة ٨٠٥ م وفي طليطلة سنة ٨٠٧ م، وبعد اضطرابات قرطبة سنة ٨١٤ م، اضطر بعض السكان الأندلسيين إلى الرحيل الى شواطيء المغرب العربي والى مصر. وقد قصد مصر خمسة عشر ألفاً ما عدا النساء والأطفال على ما قاله الكندي «تاريخ الولاة والقضاة»، فاستقر هؤلاء في ضواحي الاسكندرية بين ٨١٤ ـ ٨١٥ م (١٩٩ هـ). ولم يلقوا معارضة عند نزولهم الى مصر. ثم لبثو أن تفاعلوا بسكانها، فنقلوا عاداتهم وتقاليدهم، وأخذوا من العادات والتقاليد المصرية. وبلغ نفوذهم حداً أنهم استطاعوا السيطرة على الاسكندرية سنة ٨١٨ ـ ٨١٩ م، وتنصيب واحد منهم عليها هو أبو حفص عمر بن شعيب. غير أن الخليفة المأمون تعاون مع هؤلاء المهاجرين الأندلسيين، وأرسلهم سنة ٨٢٦ ـ ٨٢٧ م إلى جزيرة كريت حيث احتلوها وأعملوا بها السلب والنهب. ثم استطاع زعيمهم أبو حفص اتخاذ كريت مقراً له ولجماعته فيما بعد[2].

ومن الأهمية بمكان القول بأن المؤثرات المشرقية التي «تأندلست» عادت مجدداً الى بلدان المشرق بعد هجرة المسلمين من اسبانيا إثر حركة الاسترداد

---

(١) الحميدي: جذوة المقتبس، ص٢٢٨ ـ ٢٢٩. أنظر أيضاً حول المؤثرات المصرية الأدبية والفقهية في بلاد الأندلس، الحميدي، ص ٩٦ ـ ١٠٨، ١٢٨ ـ ١٢٩، ١٥٦ ـ ١٥٧، ٣٦١.

(٢) د. السيد الباز العريني: الدولة البيزنطية، ص ٢٦٥ ـ ٢٦٦.

المسيحية، فانتقلت العائلات أو بعضها إلى بلدان المغرب، ومنها انتقلت عائلات إلى الحجاز ومصر والعراق وبلاد الشام وقد شهدت بيروت والمناطق الساحلية الشامية حركة نزوح من المغرب، علماً أن أكثر العائلات البيروتية تعود بنسبها وأصولها إلى المغرب والأندلس، وقد حملوا معهم لهجات وأسماء وعادات وتقاليد مغربية وأندلسية.

الفصل السادس

السفارات الاسلامية ـ المسيحية في الأندلس

الله غالب

الفصل السادس

السفارات الإسلامية ـ المسيحية في الأندلس

لم تكن العلاقات الإسلامية ـ المسيحية كلها علاقات حربية وعداء، إنما تخللها علاقات حضارية وتبادل علمي وثقافي وفترات من السلام، وتبادل في السفارات السياسية والعلمية بين الممالك الإسلامية والمسيحية في الأندلس وفي المشرق، أو بين المسلمين في الأندلس وحكام بيزنطة[1]. ففي العام ٣٤٤ هـ ـ ٩٥٥ م وصلت الى قرطبة سفارة اسبانية مسيحية من قبل الملك « أردون الثالث (.Ordono III) ٩٥١ ـ ٩٥٦ م، ابن ردميره الثاني (.Ramiro II) ٩٣١ ـ ٩٥١ م، ملك مملكة ليون، وبسبب الأوضاع الداخلية السيئة والصراعات العائلية بين أردون الثالث وبين أخيه شانجه السمين (سانشو) (Sancho) طلب أردون الثالث اقامة معاهدة سلام مع عبد الرحمن الثالث، وقد استجيب لطلبه، بعد أن الزم نفسه دفع الجزية.

ثم ما لبث سانشو أن جاء الى قرطبة سنة ٣٤٧ هـ ـ ٩٥٨ م على رأس وفد هام يلتمس من الخليفة الناصر مساعدته في استعادة ملكه، فاستقبله الناصر استقبالاً حافلاً. وانتهى اللقاء بعقد معاهدة بين الطرفين، كسب الناصر من جرائها امتيازات ومراكز استراتيجية في مملكة ليون، مثل تمركز الجيوش الاسلامية في الحصون الهامة. وبالفعل وبفضل المساعدة العسكرية التي قدمها الناصر

---

(١) استمرت العلاقات ومعاهدات السلام بين المسلمين والقوى الأوروبية طيلة عهود طويلة، بالرغم من استمرار التوترات العسكرية. ومنها على سبيل المثال المعاهدة التي عقدت في عهد المماليك عام ٨٣٣ هـ ـ ١٤٣٠ م بين الأشرف برسباي وبين ألفونسو الخامس ملك ارغون. انظر: د. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، ص ٥٧٩ ـ ٥٨١.

لسانشو استطاع في سنة ٣٤٩ هـ - ٩٦٠ م استرداد ملكه. وكثيراً ما كان أمراء وملوك اسبانيا يلجأون إلى الحكام المسلمين لمساعدتهم على استعادة اماراتهم وممالكهم على غرار ما فعل فيما بعد أردون الرابع.

وفي سنة ٣٥٦ هـ - ٩٦٦ م وفد إلى قرطبة سفارة ملك برشلونة وملك طركونة، وطلبت هذه السفارة من الحكم المستنصر تجديد الصلح واقرارهما على ما كانا عليه من علاقات. وكانت هذه السفارة تضم هدية للحكم مؤلفة من عشرين صبياً من الصقالبة وعشرين قنطاراً من فراء السمور وخمسة قناطير من القصدير، وعشرة دروع صقلبية ومائتي سيف فرنجية. فتقبل الحكم الهدية، ثم وافق على التماسهما، شرط هدم الحصون التي تضر بالمسلمين، وشرط عدم التعاون مع الملوك المسيحيين ضد المسلمين. ووفد عليه أيضاً سفارات غرسية بن شانجة (بن سانشو) ملك نبرة، وسفارة أم رودريك (لذريق) بن بلا شك أعظم قوامس جليقية.

وفي أثناء سفارة الملك أردون ملك جليقية إلى قرطبة واجتماعه مع الحكم المستنصر بالله قال له: «أنا عبد أمير المؤمنين مولاي، المتورك [المعتمد] على فضله، القاصد إلى مجده، الحكم في نفسه ورجاله، فحيث وضعني من فضله، وعوضني من خدمته، رجوت أن أتقدم فيه بنية صادقة، ونصيحة خالصة» ثم شكا له مشكلته مع ابن عمه شانجه الذي «تقدم إلى الخليفة الماضي مستجيراً به مني»[1] وطلب أردون من الحكم التأييد ودعم حكمه على أعدائه من عائلته ومن سواهم.

وفي عهد الحاجب عبد الملك بن المنصور، طلبت اليه الممالك المسيحية التوسط بينها، فتوسط بين قشتالة وجليقية بواسطة مبعوثه الخاص النصراني أصبغ بن عبد الله بن نبيل. ولما تولى رودريجو دياز (Rodrigo Diaz) او لذريق النصراني كما سماه ابن علقمة، والملقّب بلقب السيد والقنبيطور (Campeador) قيادة جيش

---

(١) المقري: نفح الطيب، جـ ١، ص ٣٦٧-٣٦٨.

الفونسو السادس والسياسة العليا في البلاد، تمت المراسلات والسفارات بين الفونسو والمعتمد بن عباد ملك اشبيلية بواسطته. ولما طرد رودريجو دياز من قشتالة، أقام علاقات جيدة مع المدن الاسلامية وحارب الى جانب أمرائها وملوكها مثل ملك سرقسطة. وكان للسيد في بلنسية ممثلاً مباشراً له هو ابن الفرج (Aben Alfarex) وهو رجل مسلم شديد الاخلاص له. وكذلك توطدت العلاقات بين المنصور وبين بعض ملوك اسبانيا مثل ملك نبره (Naverra) سانشو اباركا (Sancho) (٩٧٠ - ٩٩٥ م) وقد تزوج المنصور ابنته التي اعتنقت الاسلام وتسمت باسم عبدة، وانجب منها المنصور ابنه عبد الرحمن الذي أطلقت عليه أمه اسم سانشويلو (Sanchuelo) أي سانشو الصغير، وقد حرفت العامة هذا اللفظ إلى شنجول [1]. كما أقام المنصور علاقات سلمية مع الدولة البيزنطية زمن الامبراطور باسيل الثاني (٩٧٦ - ١٠٢٥ م). وكانت علاقته سلمية مع الامبراطور أوتو الثالث ملك المانيا (٢٨٣ - ١٠٠٢ م) وايطاليا والامبراطورية الرومانية المقدسة. وكان هذا الامبراطور رجلاً محباً للسلام مشجعاً للعلوم يجيد عدة لغات كالالمانية واللاتينية واليونانية [2].

وفي طليطلة (Toledo) استقبل الملك المأمون يحيى بن اسماعيل ذي النون ملك طليطلة الفونس السادس ملك قشتالة، بعد خلافات وحروب مع أخيه الملك سانشو الذي هزمه سنة ١٠٧٢ م. وقد استقبل المأمون الملك الفونس بالتكريم وأعطاه بيتاً في القصر الملكي، بعيداً عن الحي المأهول بالسكان المسلمين، وكانت إقامته بين البساتين وفي حقول الصيد، ولم يكن متضايقاً أو متذمراً، بل كان في بعض الأحيان مقاتلاً ضد أعداء المأمون من المسلمين. واستمر الفونس في بلاط المأمون إلى تشرين الأول (أكتوبر) ١٠٧٢ م إلى حين مقتل أخيه سانشو. وصار الفونس حراً طليقاً، وقد تبادل والمأمون الوعود الودية ومواثيق المحالفة، ثم

---

(١) د. احمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ٤٥٧. انظر أيضاً: د. عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص ٢٤٣.

(٢) د. احمد مختار العبادي، المرجع نفسه، ص ٤٥٦.

صحبه المأمون وأوصله إلى آخر حدود دولته. غير أن الفونسو قابل استضافة المأمون بالاستعدادات العسكرية ضد المسلمين بعد أن تسلم حكم قشتالة وليون. وبدأ يتباهى بأنه بطل حركة الاسترداد المسيحي. وبالفعل فقد استطاع احتلال طليطلة بالذات بعد ثلاثة عشر عاماً من خروجه منها أي في أيار (مايو) ١٠٨٥ م. وكان المأمون قد توفي في قرطبة في حزيران (يونيه) ١٠٧٥ م أي بعد ثلاث سنوات من رحيل الفونسو.

والحقيقة فإن هناك العديد من الوثائق والمراسلات السياسية تشير الى العلاقات السلمية بين المسلمين والمسيحيين في الأندلس وبقية الممالك الأوروبية أو الممالك الاسبانية، بما فيه رسالة أرسلها الخليفة الموحدي المرتضى الى البابا أنوصان الرابع في ١٨ ربيع الأول سنة ٦٤٨ هـ، ومما جاء فيها: «.. فإنه سبقت منا إليكم مراجعات عن كتبكم المؤثرة الواصلة إلينا، وأرسلنا نحوكم من الجواب عنها ما تمنا به بركم ووفينا... ونشكر لكم ما توالى علينا من حسن ايثاركم لجانبنا وتردد» وعن السفير البابوي قال الخليفة الموحدي عبد الله عمر «قد وصل بكتابكم الينا، انصرافاً لم يعده منا فيه بر واكرام، ولم يغبه فيه اعتناء به واهتمام، كما أنه في المدة التي قضى له فيها لدينا بالمقام، لم نزل نتعهده أثناءها بالاحسان والانعام، ومتى سنح لكم ـ أسعدكم الله بتقواه ـ أن توجهوا لها ولاء النصارى المستخدمين ببلاد الموحدين ـ أعزّهم الله ـ من ترونه برسم ما يصلحهم في دينهم ويجريهم على معتاد قوانينهم، فتخيروه من أهل الفضل الراجح والسمت الحسن، وممن يستلذ في النزاهة على واضح السنن.. وذلكم هو الذي إذا تعين من قبلكم مستجمعاً للصناعات المذكورة ومتحلياً بالخلال المشكورة حسن في كل ما يستخدم.. وشكرنا لكم على كل ما تذهبون إليه في جانبنا من تمشية الأغراض والمذاهب، وتحتفلون فيه من المساعدة الصادرة فيكم عن كرم الضرايب، وتبادرون الى بذله من المكارمة المناسبة لما لكم في تحلتكم من انافة المناصب..».

وفي سنة ٧٠١ هـ، أرسل سلطان غرناطة محمد الثالث بن محمد الثاني (أبو عبد الله) رسالة الى الدون خايمة (دون جايم) ملك أراغون وبلنسية ومرسية

وكندبرجلونة رداً على رسالته إليه جاء فيها: « ... ننعم لكم أيها السلطان المعظم دون جايم... بأن نكون لكم صاحباً وفياً، ويكون بيننا وبينكم صلح ثابت وصحبة صادقة، يكون فيها أصحابكم أصحابنا، وأعداؤكم ـ أهل قشتالة ـ أعداءنا. ونرفع الضرر والفساد عن بلادكم وأرضكم من بلادنا وأرضنا، ولا نجعل سبيلاً لأحد من ناسنا لا في البر ولا في البحر عليكم، وإن اتفق أن أصدر لأحد أو لموضع من ناسكم وبلادكم ضرر من أحد ممن يرجع إلى حكمنا، فنحن ننصف منه بالحق الواجب، على أن تكونوا أنتم لنا كذلك، صاحباً وفياً كما ذكرتم في كتابكم وتلتزموا لنا صحبة صادقة وصلحاً ثابتاً.. وكذلك ننعم لكم بأن يصل إلى بلادنا كل من يريد الوصول برسم التجارة من بلادكم بما شاؤوا من أنواع التجارات، ويسرح لهم ما أرادوا من ذلك ويكونوا مؤمنين على أنفسهم وأموالهم... وعلى أن يكون ايضاً كل من يتوجه من بلادنا إلى بلادكم من التجار مؤمنين في نفوسهم وأموالهم.. كما ذكرتم في كتابكم.. وعلى أن تمنعوا أهل بلادكم من الدخول بالتجارة إلى اشبيلية وغيرها من بلاد أعدائنا في البحر والبر ...»[1].

وبعد مفاوضات بين الجانبين عقدت معاهدة تحالف وصداقة بين سلطان غرناطة وملك أراغون وهي تجديد للمعاهدة التي سبق أن وقّعت بين الملكين سنة ٦٩٥ هـ، وهي تنص على ما يلي: « صلح ثابت وصحبة صداقة، وأن يلتزم كل من الفريقين عدم الاضرار بالآخر على يد أحد من رعاياه، وأن تكون أراجون معادية لأعداء غرناطة، سواء من المسلمين أو قشتالة، وأن يفتح بلد كل من الفريقين لمن يقصده من تجار البلد الآخر، مؤمنين في أنفسهم وأعمالهم».

وهناك رسائل صداقة ومعاهدات سلام عديدة عقدت بين المسلمين والمسيحيين، ومنها معاهدة بين السلطان اسماعيل وملك أراغون الدون خايم الثاني تنص على أنه « يعقد بين الفريقين صلح ثابت لمدة خمسة أعوام، نؤمن خلالها

---

(١) شكيب ارسلان: الحلل السندسية، جـ ٢، ص ٢٨٦ ـ ٢٩٨. د. محمد ماهر حمادة: الوثائق السياسية والإدارية في الأندلس وشمالي افريقية، ص ٤٥٠ ـ ٤٥٣.

أرض المسلمين بالأندلس وأرض أراغون تأميناً تاماً براً وبحراً، وأن تباح التجارة لرعايا كل من الفريقين في أرض الآخر، وأن يتعهد كل من الملكين بمعاداة من يعادي الآخر، وأن لا يأوي له عدواً أو يحميه، وأن تكون سفن كل فريق وشواطئه ومراسيه آمنة، وأن يسرح كل فريق من يؤسر في البحر من رعايا الفريق الآخر.. ويتعهد ملك أراغون بألا يمنع خروج المدجنين من أراضيه إلى أرض المسلمين بأهلهم وأولادهم وأموالهم »[1]. وقد اتبعت هذه المعاهدة برسائل تثبيت لها تبودلت بين السلطان اسماعيل الأول بن فرج (٧١٣ - ٧٢٥ هـ، ١٣١٤ - ١٣٢٥ م) ملك غرناطة وبين ملك أراغون بين سنة ٧٢١ هـ، ٧٢٤ هـ. وقد استمرت العلاقات الودية بين غرناطة وأراغون في عهد السلطان محمد الرابع والدون خايم الثاني. كما جرت اتصالات بين محمد الرابع والفونسو الرابع الذي تولى أراغون وملحقاتها بعد وفاة والده خايم الثاني سنة ١٣٢٧ م. ففي ٣٠ جمادى الأول سنة ٧٢٨ هـ أرسل سلطان غرناطة محمد الرابع إلى الفونسو الرابع ملك أراغون الجديد رسالة، ومما جاء فيها: « ... فأنا كتبناه اليكم من حمراء غرناطة، حرسها الله،... وإلى هذا فإنه توجه في هذه الأيام خمسة أشخاص من التجار من أهل بلادنا ثقة بعهدكم وركوناً إلى صحبتنا معكم، فيعرفنا أن النائب عنكم في قربليان ثقفهم، وثقف أموالهم، فخاطبناكم في شأنهم، وقصدنا منكم تسريحهم، وتسريح أموالهم، وأن تنفذوا أمركم بذلك لمن ينوب عنكم، تحتفظوا بذلك عهدنا ونقضوا لنا في ذلك... نشكركم عليها... »[2].

---

(١) د. محمد ماهر حمادة، المرجع نفسه، ص ٤٥٤، نقلاً عن: العنان: نهاية الأندلس، ص ١٢٠.

(٢) الأمير شكيب إرسلان: الحلل السندسية، جـ ٢، ص ٣٢٠ - ٣٢١. د. محمد ماهر حمادة: الوثائق السياسية والإدارية في الأندلس وشمالي أفريقية، ص ٤٦٧ - ٤٦٨.

الفصل السابع

السفارات الإسلامية ـ المسيحية
بين الأندلس وبيزنطة

الله غالب

الفصل السابع

السفارات الاسلامية ـ المسيحية بين الأندلس وبيزنطة

في الوقت الذي كان فيه الامبراطور البيزنطي قنسطانز الثاني منصرفاً الى الاهتمام بالغرب، صار معاوية بن أبي سفيان خليفة واتخذ دمشق مقراً سنة ٦٦١ م، واستؤنفت حركة الفتوح الاسلامية، وتوغل المسلمون في آسيا الصغرى، وصقلية والقيروان والقسطنطينية، واستولى المسلمون على قبرص ورودوس وكوس وخيوس وأزمير، وتعرضت كريت للهجوم سنة ٦٧٢ م. وعقدت معاهدة بين الجانبين سنة ٦٨٥ م، بين جستنيان الثاني وعبد الملك بن مروان. واستمرت الحروب في عهد العباسيين ضد البيزنطيين كما شهدت الفترة معاهدات بين هارون الرشيد والامبراطور شارلمان سنة ٨٠٦ م.

فالعلاقات بين الشرق والغرب لم تقتصر على الحروب، بل شملت صلات ودية ومعاهدات سلمية. وعلى سبيل المثال، فقد ساعد أمبراطور الروم البيزنطيون، الأمويين في عملية إعادة بناء بعض الأبنية في الحجاز والشام. وكانت التجارة نشطة بين الدولتين براً وبحراً. وتشير بعض المصادر إلى أن المنصور استقبل سفيراً بيزنطياً بعد انتقاله إلى بغداد عاصمة العباسيين الجديدة، والذي أشار عليه بكيفية بناء السوق حفظاً للأمن من الشغب والتجسس. ويروى أيضاً بأن الامبراطور شارلمان بدأ يخطب ود الخليفة هارون الرشيد، فأرسل له وفداً رسمياً سنة ٧٠٧ م، ثم أرسل رسولاً إلى بطريق القدس سنة ٧٩٩ م. وقد رد الرشيد بإرسال وفد سنة ٨٠١ م، وأعقبه شارلمان بإرسال وفد ثان سنة ٨٠٢ م، فرد الرشيد بوفد آخر سنة ٨٠٧ م. وكانت الوفود تحمل الهدايا المتنوعة والثمينة، ومنها هدية

هارون الرشيد إلى شارلمان وهي عبارة عن ساعة مائية دقاقة وفيل أبيض ومجموعة من الثياب الحريرية والعطور والتوابل [١]. وربما كان لهذه العلاقات الثنائية الجيدة صلة بعداء هارون الرشيد للدولة الأموية في الأندلس، في محاولة للاتفاق مع الفرنجة لمساعدته ضد ما يعتقده أنهم أعداء دولته العباسية.

والحقيقة فإن العلاقات البيزنطية ـ الاسلامية لم تقتصر على بلاد المشرق أو المناطق الآسيوية، وإنما أقيمت علاقات بين البيزنطيين والمسلمين الأندلسيين وجرت عدة سفارات في مختلف العهود، ولما تولى الأمير عبد الرحمن الثاني استمرت السفارات البيزنطية ـ الأندلسية. ويشير المقري «نفح الطيب جـ ١»، الى قدوم سفارة من قبل الامبراطور تيوفيل (تيوفلس) (Thlophile) امبراطور الأسرة العمورية» ملك الروم الكبير وصاحب القسطنطينية»، حوالي سنة ٢٢٥ هـ، ٨٣٩ ـ ٨٤٠ م على الأمير عبد الرحمن الأوسط (٨٢٢ ـ ٨٥٢ م) الذي أرسل في العام نفسه وفداً إلى القسطنطينية. ويشير «ابن حيان» (المقتبس) وسواه من المؤرخين، بأن «تيوفلس» أرسل ترجمانه قراطيوس الرومي (Kartlyus) وكان يحمل هدايا إلى أمير الأندلس، ورسالة رسمية يطلب فيها من عبد الرحمن استمرار العلاقات بينهما، ويرغبه في ملك سلفه بالمشرق، ويطلب منه عقد معاهدة صداقة. كما تعهد له في الوقت نفسه بأن يستعيد من أيدي العباسيين ميراث أجداده الأمويين في بلاد الشام، في مقابل مساعدة عبد الرحمن للامبراطور باستعادة جزيرة «كريد» التي وقعت بأيدي المغامرين الاسبان، إضافة إلى أن من أهداف سفارة الامبراطور للأمير، كانت مواجهة الأخطار الاسلامية في صقلية وأفريقية [٢].

والواقع وإن كان للسفارات المتبادلة بين الامبراطور والامير بعض الأهداف

---

(١) خالد محمد القاسمي: العلاقات بين الشرق والغرب في عصر الدولة العباسية، (مقال) مجلة تاريخ العرب والعالم، العددان ٧٩ ـ ٨٠، أيار (مايو) حزيران (يونيه) ١٩٨٥، ص ٤٥.

(٢) ليفي بروفنسال: الإسلام في المغرب والأندلس ص ٩٣. انظر أيضاً: د. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص ٣١٥ ـ ٣١٦.

السياسية والعسكرية، غير انه كان لها ايضاً أهداف علمية. وقد لوحظ بأن عبد الرحمن الأوسط استقبل السفير البيزنطي استقبالاً حافلاً، ولم يتوان بدوره عن إعادة الترجمان قراطيوس الى القسطنطينية مع وفد إسلامي. فاختار لهذا الغرض بعض العلماء المسلمين المتخصصين في العلوم البحتة منهم: يحيى بن حكم الغزّال العالم والشاعر المشهور، ويحيى المنيقلة الذي لقب بهذا اللقب لاختراعه نوعاً خاصاً من الساعات. وقد جاء ذكر يحيى بن حكم الغزّال (١٥٦ ـ ٢٥٠ هـ) في كتاب الحميدي «جذوة المقتبس» الذي وصفه بالقول: «رئيس كثير القول، مطبوع النظم في الحكم والجد والهزل، وهو مع ذلك جليل في نفسه وعلمه ومنزلته عند امراء بلده. ارسله بعض ملوك بني امية بالأندلس رسولاً إلى ملك الروم..»[1].

هذا وقد عهد إلى الوفد الإسلامي الذي صحب معه قراطيوس بالرد على الامبراطور، وقد نقل ابن حيان نص هذه السفارة كاملاً. وفي بلاط القسطنطينية ظهرت حكمة وصرامة يحيى بن حكم الغزال. وفي العاصمة كلف موظف بيزنطي ـ كان مقدم السفراء ـ بالتعريف بآداب البلاط البيزنطي والاستقبال فيه. ثم دعي الغزال لمقابلة الامبراطور توفلس، فاشترط الغزال عدم السجود للامبراطور لا هو ولا زميله يحيى، وإلا يخرجهما الامبراطور عن شيء من سنة الله ورسوله، فأجابهما إلى ذلك. ولم يملك توفلس اخفاء اعجابه بالسفير يحيى الغزال فقال لرجال دولته: «كان الحكماء على حق في قولهم ان من شخصية الرسول يعرف سيده. ان هذا الأندلسي حكيم من حكماء القوم، وداهية من دهاتهم».

أما الرد الذي أرسله الأمير عبد الرحمن الأوسط للامبراطور توفلس، فقد بدأه بالبسملة (بسم الله الرحمن الرحيم) ومما جاء فيه: «.. أما بعد، فقد بلغني كتابك، نتذكر فيه الذي كان عليه من مضى منكم لأولينا من المودة الصادقة وأنه قد دعاك ذلك الى مكاتبتنا وارسال قرطيوس رسولك الينا لتجديد تلك المودة، وترتيب تلك المصادقة، وتسأل أن ينعقد فيما بيننا وبينك من ذلك ما نتمسك به

(١) الحميدي: جذوة المقتبس، ص ٣٧٤.

وتتواصل له، ونبعث رسولاً من عندنا إليك ليعلموك بالذي نحن عليه من الرغبة فيما حضضت عليه، ودعوت إليه، لتثبت بقدومهم عليك مودتنا وتتم به صداقتنا».. ثم شرح له الموقف من الخليفة مروان وأبي جعفر وابن مراجل وابن ماردة وأبي حفص الأندلسي، ثم قال «.. وقد أدخلنا رسولك قرطيوس علينا، وكشفناه على الذي أوصيت به إلينا، وعن كل ما يجب لصديق أن يعرفه من حال صديقه، ووجهنا إليك بكتابنا هذا رسولين من صالحي من قبلنا، فاكتب إلينا معهما بالذي أنت عليه من الأمر الذي كتبت به إلينا، والذي يجب عليك من سائر خبرك ومتعة عافيتك، للنظر فيما يتصرفان به من عندك على حسب ما يأتينا به من عندك إن شاء الله»[1].

ويذكر أيضاً بأن الامبراطورة «تيودورا» (Theodora) زوجة توفلس، أعجبت بتصرفات وحنكة يحيى الغزال، فلما اجتمعت به وبالوفد الأندلسي، نظم الغزال لها قصيدة تمتلىء بالصور الشعرية الرائعة وقد ألقاها في القصر الذي نزل فيه الوفد الأندلسي والذي سماه ابن حيان «أكادمية من مرمر».

من جهة أخرى، فقد أشار ابن عذارى «البيان المغرب، جـ ٢» وابن خلدون «العبر، جـ ٤». بأن عبد الرحمن الثالث الناصر لدين الله، قد استقبل سفارة الامبراطور البيزنطي قسطنطين الرابع في ٣٣٨ هـ - ٩٤٩ م، محملة بالهدايا الثمينة، وقد تمنى الوفد البيزنطي على الخليفة المؤالفة واتصال المكاتبة، وسلمه رسالة مكتوبة باليونانية بأحرف من ذهب، بدأ فيها بعبارة «من قسطنطين ورومانين (ابن قسطنطين) المؤمنان بالمسيح الملكان العظيمان ملكا الروم... إلى العظيم الاستحقاق الفخر الشريف النسب عبد الرحمن الخليفة الحاكم على العرب بالأندلس أطال الله بقاءه..»، ولما اجتمع الخليفة بالوفد البيزنطي احاط به مستشاروه وعلماؤه وأبناؤه وقضاته ومنهم: يحيى بن محمد بن الليث، محمد بن عبد البر، أبو علي القالي، المنذر بن سعيد البلوطي، وإلى جانبه أولاده: الحكم، عبيد الله، عبد العزيز،

---

(١) انظر: ليفي بروفنسال: المرجع السابق، ص ١١٥-١١٨.

الأصبغ، مروان، المنذر، عبد الجبار، وسليمان، بينما تخلف ابن عبد الملك بسبب مرضه [1].

ولما انتهت مهمة السفارة البيزنطية وتوجهت إلى بيزنطة، أرسل الخليفة بصحبة الموفدين البيزنطيين، سفيراً هو هشام بن هذيل، يحمل الى الامبراطور هدية قيمة تأكيداً للعلاقات الودية بينهما، وقد أمضى السفير هشام في سفارته سنتين عاد بعدها الى قرطبة مصحوباً بسفراء بيزنطيين جدداً لبحث الأمور المستجدة على العلاقات الثنائية.

وفي عهد الحكم المستنصر (٩٦١ - ٩٧٦ م) ابن عبد الرحمن الثالث تجددت هذه العلاقات مع بيزنطة، وقد أرسل الامبراطور نقفور فوكاس (Nicephore Phocas) بعض الخبراء والصنّاع المتخصصين في صناعة الفسيفساء الى الأندلس بناء على طلب الحكم، للأشراف على زخرفة الأجزاء الجديدة من المسجد الجامع في قرطبة. واستمرت العلاقات بين البلدين، وقد تجددت بين بيزنطة وقرطبة في عهد الوزير الحاجب عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر وفي عهد الامبراطور باسيل الثاني.

ومن الأهمية بمكان القول، أن التبادل الحضاري والثقافي والإجتماعي بين المجتمعين العربي والغربي، لم يكن محصوراً في منطقة واحدة، بل في كل منطقة قدر لها أن تشهد تواجداً إسلامياً - مسيحياً. فمن المعروف انه ترتب على الفتوح الإسلامية في المشرق، أن انفصل عن جسم الدولة البيزنطية كل من قال بالطبيعة الواحدة للمسيح، فأصبحت الدولة ارثوذكسية موحدة، تتفق حدودها مع سلطان بطريركية القسطنطينية. ثم بسقوط الاسكندرية وانطاكية وبيت المقدس بأيدي المسلمين، أصبح لبطريرك القسطنطينية الصدارة في الشرق، واصبح بابا المسيحية في المشرق.

وبدون أدنى شك فإن الأباطرة البيزنطيين ورجال الدين المسيحيين تأثروا

(١) ليفي بروفنسال: الإسلام في المغرب والأندلس، ص ٩٢ - ٩٣. انظر أيضاً: د. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص ٣١٦ - ٣١٩.

بالمناخ الإسلامي المحيط بهم، من حيث المؤثرات الدينيـة والعـادات والتقـاليـد واللغة. ففي المجال الديني، عـرف عـن الإسلام محاربتـه للصـور والإيقـونـات والتماثيل. وفي حين نرى بأن الكثير من المسيحيين تمسكوا فيما عرف بإسم «عبادة الصور المقدسة» نرى أن قسماً كبيراً من المسيحيين تأثروا بالمعتقدات الإسلامية التي تنبذ الصور والتماثيل. ولما تولى الامبراطور البيزنطي «ليو الثالث» الحكم سنة ٧١٧ م، جرت في عهده صراعات بين مؤيدي عبادة الصور والإيقونات وبين مناهضي هذه العبادة. وظهرت المعارضة لهذه العبادة في الجهات الشرقية (العربية) من الامبراطورية البيزنطية، ويشير البحاثة الدكتور السيد الباز العريني في كتابه (الدولة البيزنطية) الى الأثر الإسلامي في هذا المجال بقـولـه: «على أن الاتصـال بالمسلمين والعالم الإسلامي، يعتبر اكبر عامـل في تـأجيـج نـار الكـراهيـة ضـد الايقونات وما اشتهر به ليو الثالث من العداوة للإيقونات، ارجعها خصـومـه إلى مؤثرات يهودية وإسلامية»[1].

والحقيقة انه بالرغم من اضطهاد ليو الثالث لليهود، وبالرغم من حروبه مع المسلمين، غير أنه تأثر بالديانتين اليهوديـة والإسلاميـة. وقـد أخـذ الكثير عـن الحضارة الإسلامية، وبسبب المؤثـرات الإسلاميـة في تفكير ليـو، اطلـق عليـه المعاصرون «ليو ذي العقلية الإسلامية». ولعل نشأة ليو في مرعش في شمالي الشام، كان له الأثر على قراراته، إضافة الى انه اشتهر عنه اتقانه للغتين العربية والرومانية.

ولقد تبين أيضاً بأن العرب لم يحملوا معهم في حروبهم في آسيا الصغرى فكرة الجهاد فحسب، وإنما نقلـوا معهم ما اشتهروا به من حضارة وكراهية لتصوير الإنسان، والقرآن الكريم أشار الى ذلك بقوله: «يا أيها الذين آمنوا، إنما الخمر والميسر والأنصـاب والازلام رجس مـن عمـل الشيطـان فـاجتنبـوه، لعلكـم تفلحون»[2].

---

(١) د. السيد الباز العريني: الدولة البيزنطية، ص ٢٠١.

(٢) سورة المائدة، الآية ٩٠.

ومن المعروف أن الخليفة يزيد بن عبد الملك أصدر سنة ٧٢٣ م قراراً - أي قبل قرار ليو الثالث بثلاث سنوات - يقضي بإزالة الإيقونات من الكنائس المسيحية في الدولة الإسلامية. واعتبر الأباطرة البيزنطيون الشرقيون، أنه لا بد من تطهير الديانة المسيحية، وبرأيهم فإن عبادة الصور والايقونات ليست هي في حقيقتها إلا بقايا متخلفة من الوثنية، وينبغي إزالتها والتخلص منها. ففي العام ٧٢٦ م أصدر ليو أول قرار ضد عبادة الصور بناء على طلب أساقفة آسية الصغرى، ثم أمر بتدمير تمثال المسيح المنصوب بأعلى أفخم مداخل القصر الأمبراطوري. وكان لهذه القرارات الأثر البارز في خروج نفوذ روما من الشرق، بينما خرجت بيزنطة من الغرب اللاتيني، وازدادت مظاهر حضارتها الشرقية، وبذلك انهارت فكرة الوحدة بين الدولة البيزنطية والبابوية. وقد حذا حذو ليو الامبراطور قسطنطين سنة ٧٦٤ - ٧٦٥، فكان أول من أدى قسماً بالتخلي عن عبادة الأصنام.

ومن خصائص عهد الامبراطور قسطنطين السابع (٩١٩ م - ٩٤٤ م) المحافظة على استمرار العلاقات الدبلوماسية مع الدول الخارجية. وبالرغم من انه كان يحث رعاياه على الجهاد ضد المسلمين، غير أن العلاقات البيزنطية - العربية في الشرق اتسمت بروح العطف والمحبة، نظراً لموقف المسلمين وسياستهم العادلة إزاء الرعايا البيزنطيين. وكان للمسلمين في الشرق من المكانة عند بيزنطة، ما جعلهم في مرتبة تعلو مرتبة الملوك المسيحيين في الغرب، علماً أن قسطنطين السابع بعد أن رأى تزايد النفوذ الإسلامي في المشرق وتزايد رقعة بلاد المسلمين، بدأ يجهز حملات جهادية ضد المسلمين بإثارة الروح الدينية. ولهذا فقد قيل فيه بانه هو الذي استهل عصر الحروب الصليبية في الشرق والغرب، وعند البيزنطيين والفرنج على السواء[1].

---

(١) د. السيد الباز العريني، المرجع السابق، ص ٤٢٤.

الله غالب

الفصل الثامن

التبادل الحضاري بين الأندلس والغرب

الله غالب

الفصل الثامن

التبادل الحضاري بين الاندلس والغرب

أصبحت قرطبة من أهم الحواضر في العالم، فانتشر حولها آلاف من القرى نتيجة للرخاء والتطور الاقتصادي. وكانت وضواحيها الثماني والعشرين في عهد الأمير عبد الرحمن الثالث أكبر مدن أوروبة كلها. وقد ضمت قرطبة بالإضافة إلى قصورها العديدة ما يقارب (١١٣) ألف منزل و (٦٠٠) مسجداً و (٣٠٠) حماماً و (٨٠) مدرسة، و (١٧) مدرسة عليا و (٢٠) مكتبة عامة تضم عشرات الآلاف من الكتب.

وكان الحكم الثاني المشهور برعايته للعلماء قد حرص على رعاية التمازج الثقافي والتبادل الحضاري بين المسلمين والمسيحيين. ففي فترة ولايته للعهد ألف الأسقف جودمار الجيروني (Godmar Von Gerona) كتاباً بالعربية عن تاريخ الفرنجة، كما ألف أسقف قرطبة ربيع بن سعيد كتاباً عن العلوم الطبيعية بالعربية ترجمه جيرار الكريموني (Gerhard Von Cremona) إلى اللاتينية. وقد اختار عبد الرحمن الثالث الأسقف ربيع (ريكيداموندوس فيما بعد) مندوباً عنه سنة ٩٥٥ م للقيصر أوتو الأكبر.

ومن حكام الأندلس الذين اهتموا بالتبادل الحضاري بين الشرق والغرب وبين المسيحية والإسلام المظفر ملك بطليوس الذي اخرج مائة مجلة نحوية تحوي كل علوم عصره، والمقتدر ملك سرقسطة الذي كان فيلسوفاً وعالماً فذاً في الفلك والرياضيات. وقد أصبحت الصفة المميزة للإدارة الأندلسية، أن ما من أحد يتولى منصباً هاماً إلا ويكون قد أثبت كفاءته وحبه للعلم.

ومن المؤثرات المشرقية العربية في التراث الأندلسي والأوروبي الشعر العربي، وتلاحظ هذه المؤثرات في اشعار فرنسيس الأسيزي (Franz Von Assissi) ودانتي (Dante) وفراجا كابانا داتودي (Fraja Capane de todi) ومديتشي (Lorenzo de Medici) ومكيافيلي (Machiavelli) وهؤلاء وسواهم نظموا اشعارهم على أسس الأوزان الشعرية العربية، وبقيت هذه المؤثرات الشعرية واضحة في اسبانيا وصقلية وتوسكانا والبندقية.

ويلاحظ أيضاً بأن الشعر الأوروبي تأثر أيضاً «بالموشح» العربي الذي يرجح أن مبتكره هو مقدام بن معافى القبري الضرير (٢٢٥ - ٢٩٩ هـ، ٨٤٠ - ٩١٢ م) كما تأثر بالزجل العربي (ينظم باللغة الدارجة بينما ينظم الموشح باللغة الفصحى). وهذان النوعان من النظم اللذان ابتكرهما أهل الأندلس، هما اللذان أثرا في نشأة الشعر الأوروبي. وأول من قال بهذه النظرية هو خليان ريبيرا (Julian Ribera) المستشرق الاسباني الذي عكف على دراسة موسيقى الأغاني الاسبانية ودواوين الشعراء «التروبادور» «والتروفير» (الشعراء الجوالة في العصر الوسيط) والمينسنجر (Minnesanger) شعراء الغرام. وأكد على المؤثرات العربية الشعرية والموسيقية في الشعر والموسيقى الأوروبية.

ويؤكد المستشرق ليفي بروفنسال على وجود المؤثرات العربية الأندلسية في الشعر الأوروبي المعروف باسم «التروبادور» (Troubadours) الذي ظهر في جنوب ووسط فرنسا وفي شمالي شبه جزيرة ايبيريا وإيطاليا. وقد بلغ الأثر العربي والتأثر الغربي حد القول: «إن إحساس المسافر القشتالي أو الليوني أو البشكنسي بالغربة وهو في اسبانيا الإسلامية أقل من إحساس المسلم الوافد من الشرق ومن شمال افريقيا أيضاً، وذلك للإتصال القائم في الحياة اليومية». أضف إلى ذلك بأن ثلاثمائة وخمس وثلاثين (٣٣٥) قطعة شعرية من الشعر الشعبي الأندلسي هي من أصل أربعمائة (٤٠٠) قطعة شعرية يتألف منها مجموع أناشيد الفونس العاشر.

وكانت اشعار «التروبادور» تدور كأشعار عرب المشرق حول «الحب

العذرى » وهو ما اطلق عليه في اسبانيا « حب المروءة » والتمجيد للحب الروحي الذي تميزت به الآثار الشعرية الأوروبية. وانتشر في اوروبا اللفظ القائل: « أن المحب لمن يحب مطيع » (Qui amat obedit) وهو الموقف الذي سبق أن قام بايراده وتحليله ابن حزم في كتابه « طوق الحمامة ». كما أن العرب يسلكون حيال المحب التقدير والاحترام، ويخاطبون الأنثى بصفة المذكر كقولهم: « سيدي ومولاي وحبيبي »، ولا يقولون « سيدتي ومولاتي وحبيبتي ». والشعراء التروبادور يسلكون هذا الأسلوب فيقولون: سيدي (Mio Cid) أو (Midons) بدلاً من سيدتي (Ma Donna) وهناك صفات مشتركة عديدة بين الشعر العربي الأندلسي وشعر التروبادور، كالهيام، والمدح، والأساليب الشعرية... ولقد حاول بعض الدارسين والمفكرين الغربيين إنكار التأثير العربي على شعر التروبادور. وقد رد المستشرق ليفي بروفنسال على هؤلاء بالقول: « إن اسبانيا الإسلامية كانت تعتبر بالنسبة لبلاد البحر المتوسط الأوروبية مركز الحضارة المترفة والحياة المتمدينة الناعمة... ولا ننسى أن كثيراً من قطع النسيج الثمينة والحلي والتحف التي كانت تزدان بها المقاصير الدينية أو تملأ علب سيدات المجتمع الإقطاعي في العصر الوسيط الأعلى إنما كان يأتي من الأندلس أو فارس أو العراق.. فأغلب اسماء النسيج تظهر في صورها العربية، وبعضها وهو أغناها يوصف بأنه قرطبي أو شامي أو عراقي. فلماذا إذن ينفر المجتمع الإقطاعي من أن يأخذ من الحضارة الأندلسية الإطار والأغراض التي أوحت إليه بمحاولاته الشعرية الأولى.وهي اشبه شيء بألف باء شعره الغنائي الذي كان حينئذٍ يتلعثم به؟ لماذا ينفر وقد اعارته هذه الحضارة طرق قص الشعر والثياب والعاج والحلي. ولم تكن الخلافات السياسية والدينية ـ التي كان من شأنها أن تفصل المسيحية عن الإسلام ـ من القوة بحيث تقيم بين العالمين حاجزاً غليظاً لا يمكن قهره والتغلب عليه »[1].

ومن الأهمية الإشارة إلى أن التفاعل الحضاري في الأندلس لم يكن بين المسلمين والمسيحيين فحسب، وإنما كان أيضاً بين المسلمين أنفسهم القادمين من

(١) انظر: ليفي بروفنسال: الإسلام في المغرب والأندلس، ص ٢٨٠ ـ ٢٩٦.

منـاطـق وبلـدان متعـددة مـن المشرق، وأيضـاً بين مسلمـي المشرق والمغـرب والأندلس.

ويمثل عهد المرابطين، مظهراً من مظاهر هذا التفاعل والتبادل الحضاري. فالمرابطون منذ مطلع القرن الثـاني عشر الميلادي بـدأوا بـالتفـاعـل مـع البيئـة الاسبانية، بل انهم «تأسبنوا» في عهد اميرهم يوسف بن تاشفين وابنه علي، وبعد وفاة يوسف كان اسم ابنه علي يذكر من فوق الفين وثلاثمائة منبر في مساجد المغرب والأندلس، وكانت الثقافة الأندلسية قد سادت في مراكش، وحرص الأمير علي على الإستمرار في الأخذ من هذه الحضارة، فوالدته نصرانية وهو من مواليد سبتة علي البحر المتوسط، كما تلقى منذ الصغر الثقافة الأندلسية البحتة. ولم يكن مثله الأعلى أمراء المغرب الضعفاء الذين انتصر والده عليهم، وإنما كان همه التشبه بخلفاء قرطبة العظام وحجّاب بني عامر.

والحقيقة فإن اسبانيا أثرت كثيراً في مراكش التي قصدها عدد كبير من الأندلسيين للإقـامـة في بلاط الأمير بمراكش. وقـد ذكـر المؤرخ عبـد الرحمن المراكشي هذا الواقع بقوله: «ولم يزل امير المسلمين من أول إمارته يستدعي أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس، وصرف عنايته الى ذلك حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك، كأبي القاسم بن الجد المعروف بالأحدب أحد رجال البلاغة، وأبي بكر محمد بن محمد المعروف بابن القبطرنة وأبي عبد الله ابن أبي الخصال، وأخيه أبي مروان وأبي محمد عبد المجيد بن عبدون..». كما أن الأندلسيين القادمين إلى بلاط الأمير سـاهمـوا بما لـديهم مـن تجارب بقسـط كبير في الإصلاحـات الإداريـة والسياسية والعلمية، كما استعان علي بن يوسف بفرقة من جنود النصارى، وكلف بعض ضباطهم بأعمال هامة، بينها جباية الضرائب ومما قرّب العلماء إلى يوسف ومن بعده ابنه علي أن العلماء اعتبروا أن دولة المرابطين هي المنقذ للمسلمين من الإضمحلال ومن ملوك الطوائف في الأندلس.

الفصل التاسع

طليطلة : من مراكز التبادل الحضاري الإسلامي ـ المسيحي

الله غالب

الفصل التاسع

طليطلة : من مراكز التبادل الحضاري الإسلامي ـ المسيحي

بقيت طليطلة (Toledo) في أيدي العرب من سنة ٧١٢ م إلى سنة ١٠٨٥ م، أي حوالي أربعة قرون، وقد غلبت العروبة على نصارى طليطلة، فلبثوا نصارى، ولكن اتخذوا اللغة العربية والثقافية العربية لأنفسهم وكانوا يقيمون صلواتهم وطقوسهم الكنسية باللغتين العربية والقوطية. وصار الأسبان يطلقون عليهم اسم « موزاراب » (Mozarabes) أي نصف عرب.

وكانت طليطلة في عهد المأمون مزيجاً من التراث الشرقي والغربي والإسلامي ـ المسيحي. وقد ازدهرت هذه المدينة ازدهاراً قوياً في عهده نتيجة العلاقات الحضارية التي نشأت فيها. ولم تمنعه حروبه المتصلة مع جيرانه من ملوك الطوائف من أن يكفل لعاصمته إزدهاراً لم يتهيأ لها من قبل. إذ ضم بلاط طليطلة نخبة الإرستقراطية الأندلسية. وكان القصر الملكي فيها تحفة في الفن الهندسي والمعماري. وذكر المقري « نفح الطيب جـ ٢ » بأن المأمون بنى في طليطلة قصراً تأنق في بنائه وانفق فيه مالاً كثيراً. وفي وصف لحفل قيل فيه: « ... واحضر فيه جميع آلات الأنس، فلما استوى بالقوم مجلسهم، واشرأبوا إلى الأخذ في شأنهم.. وقد مدت ستارة الغناء لأهل الحجاب، ونظمت نوبة المغنين زمراً، فهاجوا الأطراب واستخفوا الألباب.. » ويذكر بروفنسال، بأن قصر المأمون مثل في نظر الأندلسيين وجيرانهم المسيحيين غاية من الرشاقة والترف، وقد تأثروا به كثيراً. ولم يكن يضارع طليطلة من المدن الاسبانية سوى سرقسطة وبلنسية وإشبيلية. وأضاف بأن طليطلة رغم اختلاف سكانها، فإن المسلمين والمسيحيين واليهود

عاشوا فيها متآخين في كل شيء. وكانت طليطلة من أنشط مراكز الثقافة فلم ينقطع وجود الشعراء في بلاط المأمون الذي كان يشجع بدوره الدراسات الإسلامية. وقد قام الكثير من مشاهير فقهاء مملكته بالتعليم في عهده في جامع طليطلة الكبير ومن هؤلاء: ابن القرطبي (المتوفى ٤٦٧ هـ) وأبو الوليد احمد بن عبد الرحمن بن صاعد (المتوفى ٤٤٩ هـ) وأبو زيد عبد الرحمن بن الحشاد قاضي طليطلة (المتوفى ٤٧٣ هـ) وأبو القاسم صاعد بن احمد بن عبد الرحمن بن حمد بن صاعد الشهير صاحب كتاب «طبقات الامم» وهو موجز في تاريخ العلوم، ذاع صيته فترة طويلة في الشرق وأخذوا عنه.

ويذكر بأن ألفونس السادس عندما احتل طليطلة سنة ٤٧٨ هـ ـ ١٠٨٥ م حرص على تعيين قائد مستعرب على المدينة، يستطيع التفاهم مع المسلمين، هو الكونت المستعرب «ششند» (Sinando Davidiz) الذي كان على درجة كبيرة من التسامح، وقد عمل ما بوسعه لمنع ألفونس من نقض مواثيقه وعهوده المعطاة للمأمون قبل وفاته، وللمواثيق التي سبق أن أبرمها في أيار (مايو) ١٠٨٥م مع مسلمي طليطلة. غير أن الفئات النصرانية أصرت على تحويل مسجد طليطلة إلى كنيسة، وكان ذلك بتأثير من رهبان «كلوني» (Cluny) الفرنسيين الذين وفدوا من فرنسا إلى اسبانيا، وبتأثير من «برنار» (Bernard) رئيس أساقفة «دير سهاجون» (أسقف طليطلة فيما بعد). ويقال بأن ألفونسو استشاط غضباً عند سماعه هذا الخبر، كما أن مسلمي طليطلة سعوا لدى الملك ومنعوه من إنزال عقاب شديد بالأسقف.

وكان ألفونس السادس متأثراً ببعض العادات والتقاليد الإسلامية، كما تزيا بزي المسلمين، ورفض بعض النصائح بلبس زي الأفرنج الذين كانوا يحكمون قبل المسلمين. ويقول ابن بسام «الذخيرة»: «وقد حدثت أن شيعة أدفونش ـ لعنها الله وبددها ـ أشاروا عليه يومئذ بلبس التاج، وزينوا له زي من سلف بالجزيرة قبل فتح المسلمين إياها من إعلاج. فقال: لا، حتى أطأ ذروة الملك وآخذ

قرطبتهم واسطة السلك. وكان أعد لمسجدها الجامع ناقوساً تأنق في إبداعه وتجاوز الحد في استنباطه واختراعه».

وبالرغم من بعض التناقض في مواقف ألفونس من المسلمين في طليطلة غير أنه ما لبث أن أطلق عليه بالعربية لقب «الأمبراطور ذي الملتين» أي الإسلام والمسيحية ويقابلها في اللاتينية (Imperatur totius hispaniae). وبالرغم من الذهول الذي أصاب المغرب العربي بسبب سقوط طليطلة، وبالرغم من الاستعدادات العسكرية لابن تاشفين لاستعادتها، وبالرغم من أن طليطلة قد تنصرت، غير أنها لم تخل من سكانها المسلمين الذين استمروا فيها لفترات طويلة كاكبر جالية إسلامية في اسبانيا التي استردها المسيحيون. ولا بد من الإشارة الى أن زوجة ألفونس المسلمة المعروفة باسم «زايدة المسلمة» أثرت على سياسة زوجها حيال المسلمين بالرغم من تنصرها فيا بعد واعتناقها الكاثوليكية، وقد عمدت باسم ايزابيلا. وكان الزواج المختلط بين المسلمين والمسيحيين أمراً شائعاً في اسبانيا. بل أن ألفونس لم يمانع بعد سيطرته على طليطلة من سك العملة وضربها بالنقوش والأحرف العربية. كما أن رودريجو دياز، بعد احتلاله لبلنسية ١٠٩٤ م أقر المسلمين على تشريعاتهم وتقاليدهم وعاداتهم علماً أنه اضطهدهم فيا بعد وغيّر من سياسته. والحقيقة فإن سكان طليطلة ظلوا متمسكين باستخدام اللغة العربية في تجاراتهم ومعاملاتهم وجميع صكوكهم، وذلك إلى سنة ١٥٨٠ م. بل أن النقش على قبورهم كتب بالعربية واللاتينية لا سيا قبور النصارى الأسبان المستعربة، وقد وجدت عدة قبور في طليطلة تعود إلى الأعوام ١١٥٦ـ١١٦٠م نقشت عليها الكتابة باللغتين، ابتدأ بعضها بالتعابير الإسلامية والقرآنية مثل البسملة، مثال ذلك وجد قبر وقد كتب عليه «بسم الله الرحمن الرحيم»، كان من مضى لله برحمته مقاييل بن سمنة من دار الدنيا إلى دار الآخرة يوم الأحد ماضي من نونبر أربعة أيام سنة أربعة وتسعين ومائة وألف لتاريخ الصفر نضر وجهه..».

ولا بد من التأكيد بأن اللغة العربية لم تنته من اسبانيا إلا في القرن السادس عشر الميلادي، وذلك بعد محاربتها رسمياً والتهديد بمعاقبة كل من يتكلم العربية

من الاسبان في طليطلة أو يكتب بها. وقد جمع العلاّمة الأسباني المدريدي « انجل غونزاليز بالانسيه » (Angel Conzales Balencia) تحت عنوان « نصف عرب، أو موزاراب طليطلة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر » ثلاثة مجلدات تقارب الألف صفحة تضم عدداً كبيراً من الصكوك والوثائق والمعاملات، كلها باللغة العربية. ويلاحظ في بعض هذه الصكوك اختلاط الاسماء العربية بالأجنبية، فبينما الأب هو عمر فإذا الابن هو بطرة، وبينما الأب هو عبد العزيز، فإذا الابن هو ميقيال، ومرتين بن عثمان وشلبطور بن عبد الرحمن ودون شبيب بن عبد الرحمن.. ولا غرو في ذلك فقد حدث أنه في زمن الخليفة عبد الرحمن الناصر أن احد المطارنة المسيحيين في طليطلة (أسقف إشبيلية فيما بعد) كان اسمه عبيد الله بن قاسم، كما عرف قس باسم القس ماير عبد العزيز بن سهيل [1].

إن تلك الأسماء المختلطة الإسلامية ـ النصرانية تعود إلى ما بعد استرداد طليطلة سنة ١٠٨٥ م وبعد البدء بتنصير المسلمين فيها، غير أن بعض المسلمين بقوا على إسلامهم، وكان لا يزال عدد منهم إلى أوائل القرن السابع عشر الميلادي في طليطلة يتزيا بزي النصارى. وكان بعض المسلمين الذين تعرضوا للضغوطات قد تنصروا علانية وبقوا على إسلامهم سراً، وكانوا يعلّمون أولادهم الصغار سراً تعاليم الإسلام، ويوصونهم كتم ذلك وعدم ذكره لأي إنسان خوفاً من الحرق والإبادة. وقد روى مثل هذه الحوادث المؤرخ العالم سيدي محمد بن عبد الرفيع الأندلسي (المتوفى في رجب ١٠٥٢ هـ) والذي كان والده يعلمه الإسلام سراً.

ولقد تبيّن أيضاً أنه كان في جيان وغرناطة وإشبيلية وقرطبة، حتى القرن السابع عشر الميلادي، أناس لا يزالون يدينون بالإسلام سراً. بل اللافت للنظر أن عادات وتقاليد الإسلام استمرت في الأندلس إلى القرن العشرين ومنها أن أهالي طليطلة كانوا لا يزالون يذبحون الخراف في يوم عيد الأضحى ويقولون إنها عادة توارثوها عن آبائهم وأجدادهم.

---

(١) الأمير شكيب أرسلان: الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، جـ ١، ص ٣٦٦.

وكانت طليطلة من المراكز العلمية الهامة ومما اسبغ عليها مكانة علمية ممتازة مدرسة المترجمين التي انشئت بها والجهود الحثيثة التي بذلت فيها لترجمة العلوم العربية، وخاصة كتب ابن رشد وكان « ميخائيل سكوت » (Michael Scottus) أحد علماء هذه المدرسة، وهو أول من نقل مؤلفات ابن رشد من العربية الى اللاتينية. ومهّد بهذا الطريق امام الفلسفة الإسلامية للعبور الى الفكر الأوروبي والتأثير فيه. ومن أكثر الذين تأثروا بفلسفة ابن رشد القديس « توما الأكويني » الذي استفاد منها وتتلمذ عليها، ثم انقلب أخيراً ضدها. وبعد فترة من الزمن كانت جامعة باريس خير مركز احتضن افكار ابن رشد ورعاها ودرسها. ومع حركة الاسترداد المسيحي إزدادت حركة الترجمة وعنيت بالدرجة الأولى بترجمة مؤلفات الطب والفلسفة والرياضيات. كما استتبع ذلك ترجمة القرآن الكريم وترجمة سيرة الرسول محمد (ﷺ). بالإضافة إلى تأليف المعاجم اللاتينية ـ العربية، وذلك لفهم اللغة العربية وتاريخ العرب والإسلام. والحقيقة فقد تطورت حركة الترجمة في طليطلة بصورة واضحة في عهد الملك ألفونسو العاشر الملقب « بالعالم » (Elsabio) في القرن الثالث عشر. فاستعان لتحقيق النهضة العلمية بعدد كبير من العلماء المسلمين والمستعربين واليهود. وقد انتهت هذه الترجمات بقالب لاتيني ومن ثم قشتالي.[1]

ومن الأهمية بمكان القول، بأن طليطلة بعد سقوطها بأيدي المسيحيين ١٠٨٥م، استمرت من المراكز العلمية الهامة، وتدفق طلاب العلوم من غربي أوروبا اليها والى المدن الأسبانية لتعلم العلوم والدراسات الإسلامية. ونشطت حركة الترجمة من العربية الى اللاتينية واستمرت نشطة الى القرن الخامس عشر الميلادي وقد ترجم الى اللاتينية الكثير من مؤلفات العرب في مختلف العلوم والفنون، كما ترجم عن العربية الكثير من مؤلفات اليونانيين المعربة مثال كتب جالينوس وابقراط وافلاطون وارسطو وسواهم. وقد وجد من الحكام الأسبان

---

(١) د. جمال الدين الشيّال، المرجع السابق، ص ٢٢ ـ ٢٥.

من قدروا العلوم والثقافة الإسلامية والعربية، فاستفادوا منها وشجعوا على نقلها ومن هؤلاء: ألفونس الخامس (الحكيم) (١٢٥٢ ـ ١٢٨٤ م) ملك قشتالة وليون. وبالمقابل فقد وجد بعض المتعصبين ضد الحضارة الإسلامية مثال رئيس أساقفة «اكزيمنيس» الذي أمر بإحراق ثمانين ألف كتاب من كتب العرب والمسلمين بعد جلائهم عن الأندلس. فيما تشير مصادر بعض المستشرقين إلى أن رجال الأسقف أحرقوا مليوناً وخمسة آلاف من المجلدات هي مجهود العرب في الأندلس وثمرة نهضتهم خلال ثمانية قرون. بالرغم من أن رئيس الأساقفة سبق له أن اعترف بحاجة الأسبان إلى علوم وصناعة المسلمين بقوله: «ينقصهم إيماننا وتنقصنا صناعاتهم»[1].

ولقد استمرت المؤثرات العربية والإسلامية في اسبانيا بعد استرداد المسيحيين لها، فبعد تحويل المساجد إلى كنائس، بنيت كنائس جديدة جاءت تقليداً للفن المعماري الإسلامي الأندلسي، وظهر تقليد العرب في نقش الكتابات على جدران المباني العامة وكتابة الخطوط ووضعها على الأبواب ولما بنى الملك بترو الملقب بالغاشم (القصر) (Alcazar) بناه على الطراز العربي بأيدي بنّائين من العرب. ومن القصور الأسبانية المبنية على الطراز العربي قصر «الانفانتادو» في وادي الحجارة وقصر «كازادل كردون» (Casa del cardon) في برغش، وهو من بناء مهندس عربي اسمه محمد من سقوبية، وتاريخ بنائه يرجع إلى القرن الخامس عشر[2]. وهناك الكثير من المهندسين الإيطاليين ممن زاروا اسبانيا وتأثروا بالفن المعماري الإسلامي فنقلوا مؤثراته وملامحه الى ايطاليا رغم تطور فن البناء الإيطالي. كما

---

(١) انظر: زيغريد هونكه: أثر الحضارة العربية في أوروبة، ص ٥٣٢، ٥٣٥؛ د. سعيد عاشور: المدنية الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوروبية، ص ٥٢ ـ ٥٣، ١٩٠.

(٢) الأمير شكيب ارسلان، المرجع السابق، جـ ١، ص ٣٠٨ ـ ٣٠٩. للمزيد من التفصيلات عن الآثار المعمارية في الأندلس من اسوار وحصون وأبراج انظر:

Lévi-Provençal; L'Espagne Musulmane aux xe siècle, p. 149...
Lévi-Provençal; Histoire de L'Espagne Musulmane, T. III, p. 64...

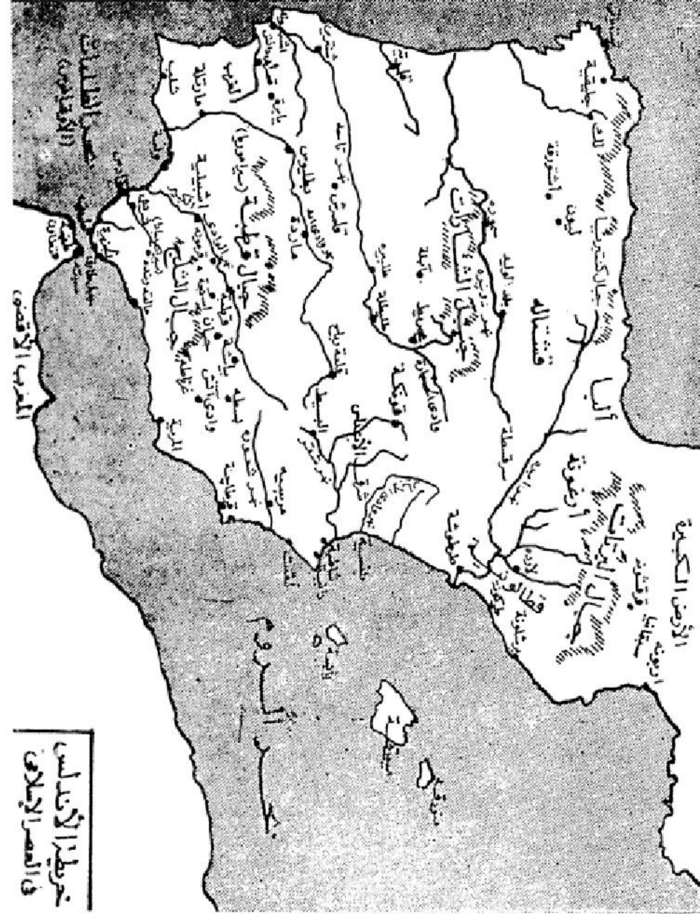
حمل لواء الحضارة الإسلامية من الأندلس إلى أوروبا فرسان ايطاليا وفرنسا والمانيا وانجلترا، والأسرى الأوروبيون الذين عادوا من قرطبة وسرقسطة وغيرهما من مراكز الثقافة الأندلسية. كما مثّل تجار ليون وجنوى والبندقية ونورمبرج دور الوسيط بين المدن الأوروبية والمدن الأندلسية، كما احتك الحجاج الأوروبيون المسيحيون في طريقهم إلى سانت ياجو بالتجار المسلمين والحجاج المسيحيين القادمين من شمال الأندلس فنقلوا معهم المؤثرات الإسلامية والعربية.

الله غالب

الخرائط والصور[*]

(*) هذه الخرائط والصور مأخوذة من: د. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، وقرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، شوقي أبو خليل: أطلس التاريخ العربي.

الله غالب



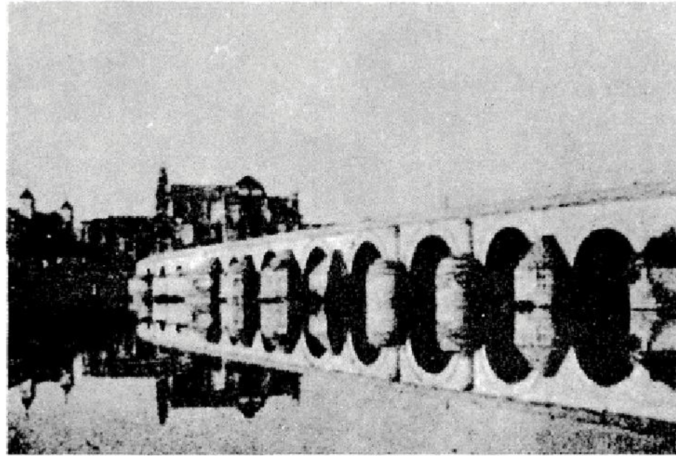
خريطة الأندلس في العصر الاسلامي



جامع قرطبة الشهير (الحمراء)



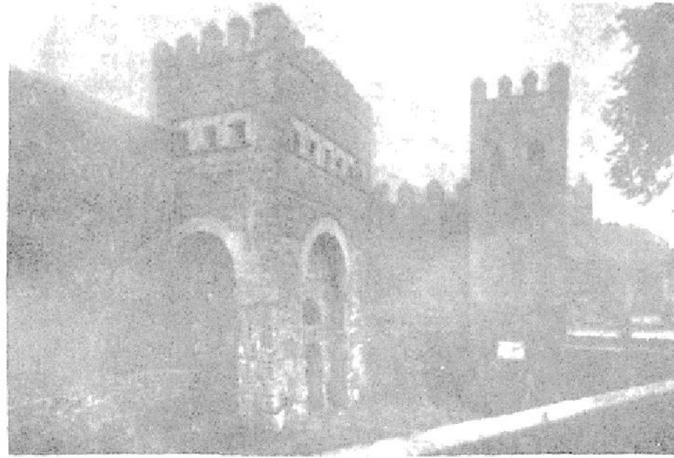
العقود المتشابكة في مقصورة جامع قرطبة.



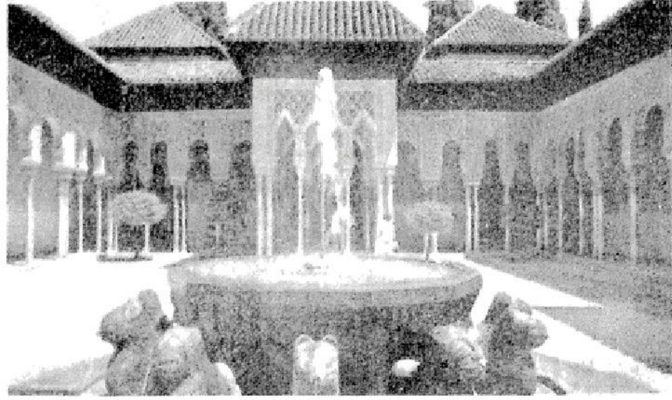
قنطرة قرطبة على الوادي الكبير



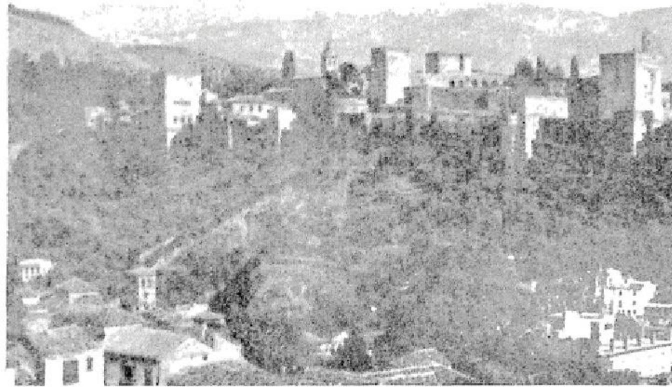
باب المدور من أبواب قرطبة



باب شاقرة من أبواب طليطلة



ساحة الأُسُود في قصر الحمراء



مدينة غرناطة

الله غالب

القسم الثاني

العلاقات الاسلامية ـ المسيحية
في
صقلية

اللّٰہ غالب

الفصل الأول

مقدمة في تاريخ صقلية

الله غالب

الفصل الأول

مقدمة في تاريخ صقلية

تقع جزيرة صقلية بين ساحل ايطاليا الجنوبي وبين الساحل الفرنسي القريب منها جنوباً. وصقلية (Sicily) شبيهة بمثلث ضخم أطرافه ثلاثة رؤوس. وهي محاطة بثلاثة أبحر: البحر اليوني (Mare Ionio) شرقاً، والبحر التيريني (Mare Terreno) شمالاً والبحر الصقلي أو الأفريقي جنوباً وغرباً. ويمكن تقسيم صقلية إلى ثلاثة أقاليم جغرافية هي: اقليم مازر (Val de Mazara) واقليم نوطس (Val di Noto) واقليم دمنش (Val Demone). أما مساحة صقلية فهي خمسة وعشرون ألفاً وأربعمائة وستون كلم (٢٥,٤٦٠ كلم). وأهم مدنها عاصمتها بالرمو (Palermo) وترميني ايميريسه (Termini Imerese) واتراباني (Trapani) ومرسالا (مرسى علي) (Marsala) ومازر أومزاره (Mazara) وكركنته (Agrigenta) وجيليه (Gela) وسيراكوزه (Siracuse) وأوغوسطه (Augusta) وكتانيه (Catania) ومسينا (Messina) وعلقامو (من علقمة) (Alcamo) وسواها من المناطق والمدن. أما عدد سكانها في فترة الحكم العربي فكان يقارب مليوناً وستمائة ألف نسمة (١,٦٠٠,٠٠٠) وهي كثافة سكانية عالية بالنسبة لتلك الفترة، بينهم ستمائة ألف من المسلمين [١].

كانت صقلية من حيث موقعها الجغرافي معرضة لهجمات المسلمين من جهتين:

---

(١) د. مارتينو ماريو مورينو: المسلمون في صقلية، ص ١-٣. د. عزيز أحمد: تاريخ صقلية الإسلامية، ص ٨.

من بلاد الشام ومن أفريقية. فهاجمها معاوية بن أبي سفيان والي الشام في زمن الخليفة عثمان بن عفان مرتين: مرة عام ٦٥٠ م من سواحل الشام (لبنان) عندما كان والياً، ومرة عام ٦٧٠ م من بلاد المغرب العربي (أفريقية) عندما أصبح خليفة. غير أن هذه الغزوات لم تكن منظمة أو قوية ولهذا لم يتسن للعرب السيطرة على صقلية في تلك الفترة. هذا وقد تكررت الغزوات العربية على صقلية في أوائل القرن الثامن الميلادي. فبعد السيطرة على الأندلس، بعث موسى بن نصير عام ٧٠٤ أسطولاً صغيراً بقيادة ابنه عبد الله لغزو صقلية وسردينية وجزر البليار فاحتلها بشكل مؤقت. وفي عام ٧٢٧ م غزا العرب صقلية بقيادة بشر بن صفوان. ثم تعرضت صقلية لغزوتين من العرب في عامي ٧٢٨ ـ ٧٢٩ م بقيادة عثمان بن أبي عبيدة وبقيادة المستنير بن الحجاب[1].

والحقيقة فإن المسلمين استمروا في محاولاتهم باستمرار للسيطرة على هذه الجزيرة نظراً لموقعها الاستراتيجي الهام ونظراً لخطورتها على البلاد الاسلامية والعربية، ولأنها كانت منطقة وقاعدة لهجمات البيزنطيين والروم والبربر (الهاربين اليها) على العرب في برقة وبلاد المغرب، وعلى الأساطيل الاسلامية ومراكب المسلمين[2]. واستمر هذا التجاذب العسكري إلى أن ولّى الخليفة هارون الرشيد ابراهيم بن الأغلب على أفريقية الذي عانى من عدم الاستقرار السياسي والعسكري في تعامله مع البيزنطيين. وفي عهد ولاية ابنه عبد الله عام ٨١٢ م بديء ببناء أسطول بحري قوي، وفي المقابل بدأ البيزنطيون يعززون أسطولهم لمواجهة المسلمين. وبين عامي ٨١٩ ـ ٨٢٠ م قام محمد بن عبد الله بن الأغلب بحملة ضد صقلية، انتصر فيها المسلمون ثم انسحبوا من الجزيرة.

وفي عهد الوالي زيادة الله الأول (حكم بين ٨١٧ ـ ٨٣٨ م) والي دولة

---

(١) د. مارتينو ماريو مورينو، المرجع السابق، ص ٦ ـ ٧.

(٢) للمزيد من التفصيلات حول واقع صقلية في العهد البيزنطي انظر: Bury: History of the Eastern Roman Empire.

الأغالبة في تونس، تـمّ الاعداد لغزو جزيرة صقلية، الذي أوكل قيادة الحملة الى قـاضي القيروان أسـد بـن الفـرات الخراسـاني. ففـي ١٤ حـزيـران (يـونيـه) ٢١٢ هـ - ٨٢٧ م أقلعت قوات أسد بن الفرات من ميناء سوسة، وكانت مؤلفة من الأفارقة والأندلسيين المقيمين في تونس ومن المسلمين الخراسانيين. وقد بلغ عددهم ما يقارب عشرة آلاف وسبعمائة رجل وفارس (١٠٧٠٠)، أبحروا على متن مائة مركب. ولما وصل المسلمون إلى صقلية، لاقتهم القوات المسيحية في بالرمو، وقد استمر القتال في الجزيرة أكثر من سنتين، عانى المسلمون خلالها معاناة كبيرة، فحاقت بهم الأخطار والمجاعة والأمراض. غير أن أسد بن الفرات رفض دعوة بعض معاونيه العودة إلى تونس، وفضّل الاستشهاد على العودة. وتابع غزوته الى ان استشهـد عـام ٢١٣ هـ - ٨٢٨ م عند أسوار مدينة سرقوسة (سيراكوزه). وكان تصميمه على الاستمرار في القتال قد أحرز نتيجة ثابتة للمسلمين في الجزيرة، كانت مقدمة لافتتاح الجزيرة بأسرها. وبعد استشهاده عيّن مكانه القائد محمد بن أبي الجواري وكان المسلمون في حالة يائسة بعد محاصرتهم من قبل البيزنطيين، ولكن ثلاثمائة سفينة مشحونة بالجنود جاءتهم بالنجـدة مـن أفـريقيـة أصلحـت أوضاعهم العسكرية، فاستأنفوا الزحف وتمكنوا من فتح بالرمو العاصمة في عام ٨١٣ م[1].

ومن اللافت للنظر أن المسلمين لم يستطيعوا فتح صقلية بسهولة أو بسرعة ففي حين تمّ فتح الأندلس في حوالي ثلاث سنوات، استغرق فتح صقلية ما يقرب الثمانين عاماً، ولم تتم السيطرة عليها نهائياً إلاّ في العام ٩٠٢ م. والسبب في تفاوت فترة السيطرة في الأندلس عنها في صقلية، أن العرب في اسبانيا لم يجدوا أمامهم إلا حكماً محلياً محدوداً لا يعتمد إلا على قواه الذاتية المحلية، بينما واجهتهم في صقلية امبراطورية قوية يمدها الشرق والغرب بقواها، كما أنها كانت امبراطورية

---

(١) د. مارتينو ماريو موربنو، المرجع السابق، ص٨-٩. د. عزيز احمد: تاريخ صقلية الإسلامية، ص١٥-١٧.

بحرية تمتلك الأساطيل الكبرى والقواعد البحرية والبرية معاً. غير أنه من اللافت للنظر أيضاً، هو التصميم والإرادة والمثابرة العربية والاسلامية التي تمثلت في رفض التراجع عن الهدف، والعمل على تحقيقه ولو بعد ثمانين من الأعوام.

في عام ٢٩٧ هـ - ٩٠٩ م انتهى حكم الأغالبة في المغرب، وقضى الفاطميون عليهم في أفريقية، ومن ثم فقد دخلت صقلية تحت الحكم الفاطمي اسمياً لا سيما في عهد أسرة الكلبيين (٩٤٨هـ - ١٠٥٢م). وقد تمتعت صقلية في هذا العهد باستقلال ذاتي. غير أن صقلية لم تنعم كثيراً بالاستقرار لا سيا بعد سقوط دولة الكلبيين[١] عام ١٠٥٢م، فقد شهدت اضطرابات وثورات وحروباً أهلية، كانت بوادرها وجذورها قد بدأت في عهد الكلبيين، وكان ذلك من أسباب تدهور الحكم العربي الاسلامي وضعفه، الأمر الذي أدى أخيراً الى سيطرة النورمان (أهل الشمال) (North-Men) على جزيرة صقلية. وعلى حد قول المؤرخ ابن أبي دينار في كتابه: المؤنس، من أن أسباب هلاك مسلمي صقلية الحسد والشقاق.

ولا بد من الإشارة إلى ان انتهاء الحكم الاسلامي والعربي في صقلية[٢] لا يعني انتهاء حضارتهم وعاداتهم وتقاليدهم ولغتهم. فقد تمتعت صقلية خلال العهدين الأغلبي والفاطمي بحكم اسلامي مزدهر، فانتشر المسلمون فيها وانتشرت معهم الحضارة الاسلامية في بالرمو ومسينا وسرقوسة وسواها، وانتشرت فيها القصور والمساجد[٣] والبيمارستانات والأسواق والأسوار والقلاع والقناطر، وصناعة الورق والسفن والحرير والفسيفساء، والكبريت، واستخرج المسلمون النفط والرصاص والحديد. وشاركوا في ميادين التجارة والصناعة. ونشروا اللغة العربية، كما نشروا

---

(١) نسبة إلى المنصور الحسن بن علي بن أبي الحسين الكلبي.

(٢) انتهى الحكم العربي في صقلية قبل خروج العرب من اسبانيا بأربعمائة عام.

(٣) للمزيد من التفصيلات انظر: الطاهر أحمد مكي: الفن العربي في اسبانيا وصقلية، ص ٨٩ - ١٠٨

عاداتهم وتقاليدهم. واستمر حكمهم في الجزيرة ما يقارب قرنين ونصف القرن من الزمن (من أوائل القرن الثالث الهجري إلى أواخر القرن الخامس الهجري - من التاسع الميلادي الى القرن الحادي عشر الميلادي). ومما يلاحظ بأن النورمان بعد أن استعادوا بالرمو سكوا نقوداً كانت تحمل في أحد وجهيها آية قرآنية كريمة هي ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾[1].

وقد استمر تأثير المسلمين في صقلية بعد انتهاء حكمهم مدة تقارب قرنين من الزمن، ولا تزال آثارهم ماثلة إلى الآن في الجزيرة. وقد استمر التمازج الحضاري بين المسلمين والمسيحيين في صقلية رغم سيطرة النورمان عليها. فرغم الاضطرابات في صقلية أثناء الحكم الاسلامي، غير أن الأنشطة الفكرية ظهرت واضحة في فترة هذا الحكم، وكانت قاعدة مؤثرة فيما بعد في التراث النورماني والصقلي، والغربي، ومن بين العلماء المسلمين في صقلية نذكر على سبيل المثال لا الحصر علياً بن حمزة البصري (المتوفى في صقلية عام ٨٩٥ م) وكان لغوياً وأديباً، وابن البر شارح ديوان المتنبي، ومحمد بن خراسان النحوي من علماء القرآن الكريم، واسماعيل بن خلف الصقلي عالم في فن النحو وفن القراءات، وأبا العباس من علماء الحديث، ومحمداً بن ابراهيم التميمي الصقلي وهو عالم آخر من علماء الحديث. كما ظهرت في صقلية الكثير من الكتب والدراسات الفقهية والأدبية والنحوية والعلمية، فالعالم عبد الله الصقلي ترجم إلى العربية رسالة في علم النبات، وكان عبد الله محمد بن الحسن بن الطازي طبيباً وشاعراً وأديباً، وكان أبو سعيد بن ابراهيم طبيباً وصيدلياً، وكان أبو بكر الصقلي طبيباً عالماً ماهراً أورده ابن أبي أصيبعة في مصنفه. كما وضع أبو العباس أحمد بن عبد السلام شرحاً لأحد مصنفات ابن سينا الطبية. وهناك من العلماء والأدباء الصقليين من العرب والمسلمين مما لا يتسع المجال لذكرهم في هذه الدراسة الموجزة[2]

(١) سورة الصف، الآية ٩.

(٢) للمزيد من التفصيلات انظر: د. عزيز أحمد: تاريخ صقلية الاسلامية، ص ٤٩ - ٥٦.

الفصل الثاني

العلاقات الحضارية
والسياسية بين المسلمين
والمسيحيين في العهد النورماني

الفصل الثاني

العلاقات الحضارية والسياسية بين المسلمين والمسيحيين في العهد النورماني

تولى روجر الأول (Roger I) حكم صقلية بين (١٠٩٢ ـ ١١٠١م) وقد تخوف بعض المسلمين فغادروا الجزيرة، بينما استقر آخرون، وغيروا نسبتهم الى صقلية بقلب الياء ووضعها قبل القاف، فأصبحوا يعرفون باسم الصياقلة (صيقلي)، والحقيقة فإن روجر (رجار) عامل المسلمين معاملة حسنة، فعمل على استمالتهم وحمايتهم وأقرهم على ديانتهم وأعيادهم، وجند منهم فرقة في جيشه، وقد رفض الاشتراك في الحملات الصليبية على المشرق العربي رغم الحاح البابا [١]. ومن يطلع على كتاب الأدريسي يرى أن ما من منطقة في صقلية إلا وكانت تضم المساجد والجوامع. مما دعا القزويني إلى انتقاد مسلمي بلرمو لكثرة ما وجد من المساجد [٢]. ويذكر أنه لما ذهب (رجار) إلى نابولي لضرب الحصار على مدينة كابُوا (Capua) استصحب معه جيشاً اسلامياً. وقد زاره في معسكره الأسقف انسلمو الكنتربري الكاثوليكي، فوجد أن الجنود المسلمين يحتفون ويكرمون الملك روجر مما حمله على الظن بأنهم يميلون لاعتناق المسيحية، فسأل الأسقف حاشية روجر: لماذا لم يأمرهم الكونت بالتنصر؟ فكان جوابهم بصوت واحد لا تقل هكذا، بل منع رجار المسلمين أشد المنع عن ترك دينهم [٣]. ويذكر العالم الجغرافي الأدريسي في كتابه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) أنه

---

(١) د. أحمد مختار العبادي: العلاقات بين الشرق والغرب، ص ٧٥.

(٢) القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد. المكتبة الصقلية، ص ١٤٠.

(٣) د. مارتينو ماريو مورينو، المسلمون في صقلية، ص ١٩ ـ ٢٠

. لما صار أمرها [أي الجزيرة] إليه واستقر بها سرير ملكه، نشر سيرة العدل في أهلها وأقرهم على أديانهم وشرائعهم وأمّنهم في أنفسهم وأموالهم وأهليهم وذراريهم. ثم أقام على ذلك مدة حياته إلى أن وافاه الأجل المحتوم، وتقضّاه يومه المعلوم»[1]. ومن يطلع على مجمل كتاب الأدريسي يستطلع مدحاً متزايداً لرجار بن تنغريد ولابنه من بعده. ولعل اكرامه واحترامه كان السبب في كثرة هذا المدح.

والحقيقة فإن روجر أخذ عن العرب والمسلمين النظم التي اعتمدوها كما أخذ عنهم أساليبهم في ادارة البلاد وفي الدواوين والنظم المالية والضرائبية والوظيفية. كما أخذ عنهم طرق حصر الأملاك العامة وادارتها. وبالتالي فقد تأثر روجر الأول بالتنظيمات العربية العسكرية. فاقتبس الأنظمة الخاصة بالجيوش البرية والبحرية، وطبقها على قواته وأدخلها في النظام العسكري في صقلية.

وفي فترة حكم روجر الأول طرأ تحسن في العلاقات بينه وبين البابا. غير أن الخلافات استمرت بينهما بشأن تنصير مسلمي صقلية. ففي حين كان البابا يرى ضرورة تنصير المسلمين لأنهاء الوجود الاسلامي تماماً في صقلية ولزيادة عدد المسيحيين في الجزيرة، كان روجر يرى أن الزمن كفيل بتنصير المسلمين. كما كان يرى أن استمرار هجرة النصارى من شبه الجزيرة الايطالية هو الكفيل باعطاء الدين المسيحي مكان الصدارة بوصفه الدين الرسمي للجزيرة. ولهذا وبالرغم من معاملة روجر الأول الحسنة للمسلمين، غير أنه لم يتردد في اعادة الكنائس الى وضعها القديم، بعد أن كان المسلمون قد حولوها الى مساجد، غير أنه لم يمس مساجدهم التي بنوها بأنفسهم. علماً أن المصادر تشير بدورها الى أنه في بداية حكم روجر، أرسل الأسرى المسلمين الذين وقعوا في الأسر أثناء فتح صقلية الى ايطاليا وبيعوا عبيداً هناك[2].

---

(١) الادريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ـ المكتبة الصقلية، ص ٢٦.

(٢) عبّر الشاعر عبد الحليم بن عبد الواحد الأفريقي المنشأ الصقلي الاقامة شكوى وواقع المسلمين في =

ومن الملاحظ أيضاً أن روجر الأول، حرص على بناء القصور والمظاهر العمرانية على الطراز العربي. فهو الذي قضى ثلاثين عاماً في محاربة المسلمين لفتح صقلية، فإنه لم يتورع بعد حكمها على الاقتداء بفنون أعدائه. فقد شيّد القصور والحمامات قرب القصر الملكي في العاصمة بالرمو، وهي تعتبر من أقدام الآثار العربية الاسلامية التي ما زالت باقية في صقلية. والملاحظ أن زخارف هذه القصور والحمامات وطرازها المعماري لا يختلف كثيراً عن الطراز والبناء المعماري في الأندلس والعراق في العهد العباسي. هذا وقد اتفقت المصادر التاريخية على أن صقلية في أيام روجر الأول كانت مملكة نصف إسلامية في دينها ونظامها الاداري والعسكري. وكان للمسلمين في عهده قضاتهم يتقاضون إليهم، وكان للقرى الاسلامية رؤساء يلقبون بالقادة، وكان يسمع من المساجد الآذان، وأطلقت حرية المسلمين في الاحتفال بأعيادهم. ومما قاله المقدسي عن احتفال المسلمين بأعيادهم في صقلية «... حُسن رمضان بمكة وليلة الختمة بالمسجد الأقصى والعيدين باصقلية...»[1].

ولما توفي روجر الأول تولى الحكم ابنه روجر الثاني الذي حكم بين (١١٠١ - ١١٥٤م) واتفق المؤرخون في أنه كان كأبيه، بل أكثر منه حرصاً في حماية ورعاية المسلمين الصقليين، فأحبه المسلمون ومدحوه في شعرهم، لدرجة أن بعضهم اعتقد خطأ أنه كان مسلماً في السر. وقد اتخذ لنفسه لقباً اسلامياً فسمى نفسه «المعتز بالله» المقتدر بقدرته على حد ما جاء في قول الادريسي[2]. وضرب نقوداً باللغة العربية اضافة الى اللاتينية واليونانية. كما أصدر قراراته باللغات العربية واللاتينية واليونانية. وكان الولاة الأغالبة والكلبيون قد تركوا في

= ظل حكم النورمان بما يلي:

عشقت صقلّية يافعاً ... وكانت كبعض جنان الخلودِ

فما قُدِّر الوصلُ حتى اكتهلتُ ... وصارت جهنّم ذاتِ الوقودِ

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، ص ١٨٣

(٢) الادريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق. المكتبة العربية الصقلية، ص ١٥.

صقلية نظاما اداريا متقناً فأبقاه مثلما فعل والده. ثم قلّد العرب المناصب والوظائف الهامة والعليا وكان له جيش اسلامي رافقه في كل غزواته سواء نحو ايطاليا أو نحو طرابلس الغرب وتونس. واتخذ روجر الثاني (أورجار كما يلفظها العرب القدامى) ديواناً عربياً، وقد وقع على المعاملات الرسمية الصادرة عن هذا الديوان بعلامة عربية اسلامية مستوحاة من القرآن الكريم وهي «الحمد لله حق حمده» و«الحمد لله وشكراً لأنعمه». «ناصر النصرانية»، وسمى منتزهه الملكي الواقع قرب بلرمو باسم «المعتزية»[1].

هذا، وقد حاكى روجر الثاني ملوك العرب وقياصرة بيزنطية في أزيائهم وشاراتهم، فلبس الطراز البيزنطي والعباءة العربية الموشحة بالكتابة الكوفية وكأنه أراد بذلك اقامة التوازن حتى في التقاليد والعادات بين عناصر شعبه الاسلامي والمسيحي، على غرار ما فعل في تعيين الموظفين في ادارة دولته من المسلمين والمسيحيين على السواء[2]. أضف الى ذلك أنه رفع فوق رأسه المظلة العربية، وأقام مصنعاً للطراز والنقوش، كانت تصدر عنه مطرزات عليها النقوش العربية والتاريخ الهجري. أما المباني التي أمر ببنائها فهي أقرب الى الفن المعماري العربي الاسلامي منه الى الفن المعماري البيزنطي، ويكفي القول بأن دير القديس يوحنا، شفيع النساك (San Giovanni) في بالرمو هو أشبه بمسجد اسلامي منه بدير مسيحي. وليس السبب في ذلك مقدرة وتوفر المهندسين والبنائين المسلمين فحسب. بل لأن روجر أعجب وأحب الطراز المعماري والهندسة العربية. كما أن أسلوب الحياة في بلاطه كان أسلوباً شرقياً لا غربياً، فقد كان بلاطاً سلطانياً فيه الحريم والفتيان ويرى المستشرق (اماري) (Amari) بأن روجر الثاني (سلطان معمّد) وهو ـ كما قيل ـ سلطان عربي يحمل تاجاً كملوك الأفرنج[3].

(١) انظر: د. احسان عباس: العرب في صقلية، ص ١٤٥.

(٢) د. أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص ٧٥ ـ ٧٦. د. مارتينو ماريو مورينو، المرجع السابق، ص ٢١. د. عزيز أحمد، المرجع السابق، ص ٧٣.

(٣) د. مارتينو ماريو مورينو، المرجع السابق، ص ٢٢. انظر أيضاً: د. عزيز أحمد، المرجع السابق، ص ٧٣ ـ ٧٤.

ويمكن القول بأن بلاطه كان بلاطاً متوازناً أيضاً، فقد ضمّ التقاليد والمظاهر العربية والمشرقية اضافة إلى المؤثرات اليونانية واللاتينية. وقد حرص على الاهتمام بالآداب والعلوم والفنون العربية. وكان طبيب البلاط طبيباً عربياً، ونظراً لإعجابه بالطب العربي وأسلوب الأطباء العرب، فقد أقر الأساليب الطبية العربية السائدة في صقلية قبل عهده غير أنه أصدر عام ١١٤٠ م قانوناً يقضي باجراء امتحان للأطباء قبل اعطائهم (الاجازة) متبعاً أسلوب المسلمين وعلى غرار ما قام به من قبل وبوقت طويل الخليفة المقتدر بالله في بغداد، وكان روجر الثاني يؤمن بالتنجيم، ولذا فقد قرّب اليه بعض المنجمين المسلمين الذين كانوا في صقلية، ومن بين المنجمين المرموقين فيها محمد بن عيسى بن عبد المؤمن الذي ربط بين التنجيم والفلك والهندسة باعتباره كان أيضاً مهندساً أو عالماً هندسياً [١].

وترى المستشرقة الالمانية «زيغريد هونكه» بأن للعرب الفضل في جعل روجر الثاني أغنى ملك في أوروبة بعد أن كان أقل ملوكها، وذلك بسبب اهتماماتهم الاقتصادية والعمرانية، وبسبب نظامهم المالي الدقيق ونظامهم الاداري وقانونهم الجيد. وقد تدفقت على دولته الخيرات من شمالي أفريقيا التي ضمها الى أملاكه لفترة قصيرة، ثم ما لبث أن تركها. وقد لقب روجر بعد توسعاته باسم «ملك صقلية وايطالية وشمالي افريقيا» [٢]. وقد قال الادريسي فيه: «وأما معرفته بالعلوم الرياضيات والعمليات فلا تدرك بعدّ، ولا تحصر بحدّ، لكونه قد أخذ من كل فن منها بالحظ الأوفر، وضرب فيه بالقدح المعلي، ولقد اخترع من المخترعات العجيبة وابتدع من الابتداعات الغريبة، ما لم يسبقه أحد من الملوك اليه ولا تفرد به» [٣].

هذا ومن مظاهر ثقته بالعلماء العرب والمسلمين وتقريبهم إليه، دعوته للعالم

---

(١) د. عزيز أحمد، المرجع السابق، ص ٨٩.

(٢) زيغريد هونكه، المرجع السابق، ص ٤١٦.

(٣) الادريسي: نزهة المشتاق. المكتبة العربية الصقلية، ص ١٦. انظر أيضاً: طبعة دوزي ودي غويه من الادريسي.

الجغرافي الأندلسي الشريف الادريسي (أبو عبد الله محمد) (٤٩٣ ـ ٥٤٨ هـ، ١١٠٠ ـ ١١٥٤ م)[١]. للمجيء الى بلاطه للاطلاع منه على جغرافية مملكته والعالم. وقد طلب منه تأليف كتاب عن جغرافية العالم. وذكر الادريسي أنه عندما خضعت البلاد الايطالية لروجر الثاني أراد أن يعرف حدودها وطرقها البرية والمائية. ومناخ كل منطقة، وواقع البحار والخلجان التي تحيط بها. ولمعرفة نباتاتها وعاداتها وتقاليدها ولغاتها. وكان الادريسي قد تلقى دروسه في قرطبة وقام برحلات عديدة بين آسية والساحل الغربي لبريطانية ووصل إلى جنوبي افريقية، وقد اكتسب خبرة في الميدان الجغرافي. وبعد أن قضى الادريسي في بالرمو خمسة عشر عاماً منكباً على اعداد ما طلب منه. انتهى عمله في شوال ٥٤٨ هـ ـ أوائل عام ١١٤٥ م، وقدم للملك روجر الثاني خريطة وكتاباً تفوق خريطة بطليموس الشهيرة في دقتها ووضوحها وقلة أخطائها. ووضع خريطة العالم على دائرة فضية مسطحة (Olani-Sphere) طولها ثلاثة أمتار ونصف المتر وعرضها متر ونصف المتر. ووضع عليها مختلف التفصيلات والتوضيحات لمختلف بلدان العالم. أما الكتاب الذي ألفه الادريسي فهو المعروف باسم «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق»، أو (الكتاب الروجري) وهو يضم معلومات تفصيلية عن تلك الخريطة وعن مختلف المناطق، واهتم المستشرقون بهذا الكتاب الهام، فعملوا على نشر أجزائه وترجمتها الى لغات عدة، وترجم العالم الهولندي «دوزي» (Dozy) القسم الخاص بالمغرب والسودان ومصر والأندلس من العربية الى الفرنسية.

ويمكن القول بأن روجر الثاني بما لديه من اطلاع على ثقافة العرب، وبما يمتاز من تسامح وعدل، قد ساعد كثيراً على امتزاج الحضارتين العربية والأوروبية من خلال جزيرة صقلية، التي سهلت انتقال الحضارة العربية والاسلامية إلى بلدان أوروبية عديدة وقد أصبحت صقلية معبراً هاماً من معابر الحضارة الاسلامية. وقد قيل عن روجر الثاني بأنه كان سلطاناً عربياً بتاج افرنجي. وإذا كان صحيحاً

(١) انظر: د. جمال الدين الشيال: التاريخ الاسلامي وأثره في الفكر التاريخي الأوروبي، ص ٤٦.

القول بأن روجر كان طوال عهده متسامحاً مع المسلمين، فصحيح القول أيضاً بأنه غير سياسته في أواخر عهده، ففي نهاية عام ١١٥٣ م، بدأ يطبق سياسة عنصرية قائمة على التعصب والاضطهاد الديني، وانقلب رأساً على عقب، فانتهج سياسة ترمي الى تنصير المسلمين واليهود. ويبرر البعض هذا التغيير المفاجيء في سياسته الى عدة عوامل منها:

١ - أسباب نفسية وشخصية تعود إلى اضطرابه النفسي والى تزايد أحزانه بسبب وفاة ثلاثة من أبنائه خلال فترة تسع سنوات، مما بدّل انفتاحه وأوقعه في عزلة وتشاؤم.

٢ - أسباب سياسية وعسكرية، بسبب تنامي وتزايد قوة الموحدين المسلمين في شمالي أفريقية، وظهورهم كقوة اسلامية يحسب حسابها. وكان هذا العامل من أهم الأسباب التي أدت الى التخوف من مسلمي الداخل، تحسباً من أن يكونوا مستقبلاً ظهيراً ونصيراً لمسلمي الخارج. وكان ذلك مدعاة لروجر للعمل على تنصير المسلمين بعد أن رفض هذه الخطة ردحاً من الزمن.

هذا، وقد خلف روجر الثاني ابنه وليم الأول[١] (غليام) (William) (١١٥٤ - ١١٦٦ م) الذي اتبع سياسة والده وجده من قبل في الأخذ والاهتمام بالحضارة الإسلامية والاعتماد عليها، وفي التسامح مع المسلمين وحمايتهم وتشجيع الدراسات الاسلامية. وكان حراسه من النورمان والسودان تحت إمرة أحد القادة المسلمين. كما أن جيشه كان مكوناً من النورمان والمسلمين، وقد اعتمد على العنصرين معاً. وحمل وليم الأول لقب «الهادي بأمر الله» واقتدى بوالده عندما كان يوقع اسمه ممهوراً بعبارة «الحمد لله وشكراً لأنعمه» كما استعان وليم الأول بالعالم الجغرافي الشريف الادريسي الذي وضع له أيضاً مصنفاً في الجغرافية على غرار ما فعل لوالده.

---

(١) انظر: د. أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص ٧٧.

ومن الأهمية بمكان القول، إن المسلمين في عهده شهدوا تسامحاً واضطهاداً في آن: فقد بدأ رجال الاقطاع يظلمون الأهالي، وحاولوا توسيع أملاكهم بانتزاع الأراضي من أيدي المسلمين، مبررين ذلك، بأنها كانت في الأصل للنصارى. كما أن طبقة البارونات النورمان بدأوا يسيئون معاملة المسلمين خلال فترة حكم وليم الأول. ومع أن المسلمين استمروا يدينون بالولاء للملك، غير أنهم دفعوا ثمن انتصار الموحدين في المهدية، فتخوف منهم النصارى منذ عهد روجر الثاني، واستمر هذا التخوف، فبدأت عملية تجريد المسلمين من السلاح في العاصمة بالرمو. وبعد أن جردوا من أسلحتهم، أصبحوا في مركز ضعف، وهدفاً للاضطهاد والانتقام لا سيما من البارونات النورمان واللومبارديين في عام ١١٦١ م، حيث جرت مذابح بحق المسلمين في المناطق الريفية، فلجأ المسلمون إلى الجبال والغابات وإلى مدن الجنوب حيث ما تزال توجد أعداد كبيرة من المسلمين. غير أن العناصر الاسلامية في جيش وليم الأول استطاعت حماية المسلمين الهاربين، ثم تمكنت من الوقوف في وجه حركة البارونات. ولكن المسلمين استمروا يعيشون هاجس المذابح في مجتمع بدأوا يشعرون بأنه غريب عنهم.

ولما تولى وليم الثاني (١١٦٦ - ١١٨٩ م) ابن وليم الأول الحكم[١]، حاول التقرب من المسلمين والتشبه بخلفائهم كما أتقن اللغة العربية، وحمل لقب «المستعز بالله» وكان شعاره «الحمد لله حق حمده»[٢]. غير أنه يلاحظ بأن الالتزام بخط التسامح نحو المسلمين بدأ يتغير تباعاً في صقلية ففي عهده حدث تغيير في السياسة النورمانية الخارجية، فقد شارك وليم الثاني في الحملات الصليبية على الاسكندرية عام ٥٦٩ هـ - ١١٧٢ م في أوائل عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي وأصبح المسلمون أهل ذمة وفرضت عليهم الجزية والضرائب الاستثنائية. ويذكر الرحالة الأندلسي ابن جبير الذي زار صقلية عام ٥٨٠ هـ - ١١٨٥ م، خلال حكم وليم

---

(١) انظر: د. احسان عباس، المرجع السابق، ص ١٤٨ - ١٥٠.

(٢) د. مار تينو ماريو مورينو، المرجع السابق، ص ٢٣.

الثاني، بعض ما رآه من التناقض في السياسة الصقلية إزاء المسلمين، فقد تأرجحت معاملة المسلمين بين التسامح والريبة، لا سيما وأنه وجدت فئة من المسلمين تنصرت ظاهراً وبقيت على الاسلام سراً، تؤدي الصلاة الاسلامية بعيداً عن الانظار. وكانت صلاة الجمعة محظورة عليهم ويصلون الأعياد بخطبة دعاؤهم فيها للخليفة العباسي. ومما قاله ابن جبير في ذكره لما رآه في مدينة مسينة:

« .. معمورة بعبدة الصلبان، يمشون في مناكبها ويرتعون في أكنافها، والمسلمون معهم على أملاكهم وضياعهم، قد حسنوا السيرة في استعمالهم واصطناعهم، وضربوا عليهم أتاوة في فصلين من العام يؤدونها، وحالوا بينهم وبين سعة في الأرض كانوا يجدونها.. وليس في مسينة هذه من المسلمين الا نفر من يسير من ذوي المهن، ولذلك ما يستوحش بها المسلم الغريب.. »[1]. وعن وليم الثاني قال ابن جبير « وشأن ملكهم هذا عجيب في حسن السيرة واستعمال المسلمين، واتخاذ الفتيان المجابيب وكلهم أو أكثرهم كاتم ايمانه، متمسك بشريعة الإسلام ـ وهو كثير الثقة بالمسلمين..، ومن عجيب شأن المتحدث به أنه يقرأ ويكتب بالعربية، وعلامته على ما أعلمنا به أحد خدمته المختصين به « الحمد لله حق حمده »، وكانت علامة أبيه « الحمد لله شكراً لأنعمه » وأما جواريه وحظاياه في قصره فمسلمات كلهن »[2].. ثم أشار ابن جبير الى المسلمين الكاتمين اسلامهم تخوفاً ومنهم فتى اسمه عبد المسيح وبعض فتيان القصر.

ويذكر ابن جبير وضع المسلمين في مدينة ثرمه (Therma) التي زارها في شهر رمضان فقال « .. وللمسلمين فيها ربض كبير لهم فيه المساجد.. فانتهينا الى قصر سعد... وهذا القصر على ساحل البحر، مشيد البناء عتيقه، قديم الوضع من عهد ملكة المسلمين للجزيرة، لم يزل ـ ولا يزال بفضل الله ـ مسكناً للعبّاد منهم، وحوله قبور كثيرة للمسلمين أهل الزهادة والورع. وفي أعلاه مسجد من أحسن

---

(١) ابن جبير: رحلة ابن جبير ـ تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص ٢٢٥.
(٢) ابن جبير: الرحلة، ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦.

مساجد الدنيا بهاء ... وسمعنا الآذان وكنا قد طال عهدنا بسماعه وأكرمنا القوم الساكنون فيه، وله إمام يصلي بهم الفريضة والتراويح في هذا الشهر المبارك » [1]

وعن وضع المسلمين في العاصمة بالرمو قال ابن جبير « .. وللمسلمين بهذه المدينة رسم باق من الايمان، يعمرون أكثر مساجدهم، ويقيمون الصلاة بآذان مسموع، ولهم أرباض قد انفردوا فيها بسكناهم عن النصارى، والأسواق معمورة بهم، وهم التجار فيها، ولا جمعة لهم بسبب الخطبة المحظورة عليهم، ويصلون الأعياد بخطبة دعاؤهم فيها للعباسي، ولهم بها قاض يرتفعون إليه في أحكامهم وجامع يجتمعون للصلاة فيه، ويحتفلون فيه وقيده في هذا الشهر المبارك، وأما المساجد فكثيرة لا تحصى وأكثرها محاضر لمعلمي القرآن. وبالجملة فهم غرباء عن أخوانهم المسلمين تحت ذمة الكفار، ولا أمن لهم في أموالهم ولا في حريمهم ولا أبنائهم، تلاقاهم الله بصنع جميل بمنه » [2]. أما وضع المسلمين في مدينة « اطرابنش » (Trapani) فيشير ابن جبير الى أنه وصلها قبل عيد الفطر بقليل « وكان مصلانا في هذا العيد المبارك بأحد مساجد اطرابنش المذكورة، مع قدم من أهلها امتنعوا من الخروج الى المصلى لعذر كان لهم، فصلينا صلاة الغرباء ... وخرج أهل البلد الى مصلاهم مع صاحب أحكامهم، وانصرفوا بالطبول والبوقات. فعجبنا من ذلك، ومن اغضاء النصارى لهم عليه .. وفي مدة مقامنا بهذه البلدة تعرفنا ما يؤلم النفوس تعرفه من سوء حال أهل هذه الجزيرة مع عبّاد الصليب بها .. وما هم عليه معهم من الذل والمسكنة، والمقام تحت عهدة الذمة وغلظة الملك، الى طوارىء دواعي الفتنة في الدين على من كتب الله عليه الشقاء من أبنائهم ونسائهم » [3] واعطى ابن جبير أمثلة على تنصير المسلمين بالقوة ومن

---

(١) ابن جبير، المصدر نفسه، ص ٢٢٨، ٢٢٩.

(٢) ابن جبير: الرحلة، ص ٢٣٠.

(٣) ابن جبير: الرحلة، ص ٢٣٣، ٢٣٥.

بين هؤلاء ابن زرعة الذي حفظ الانجيل وأصبح في جملة القسيسين، وحوّل مسجده الى كنيسة. وقيل لابن جبير أن ابن زرعة لا يزال على دين الاسلام سراً. كما أعطى ابن جبير مثالاً على وضع القيود وحجز المسلمين، ومن هؤلاء قاضي وسيد (اطرابنش) أبو القاسم بن حمود (ابن الحجر)، الذي ألزمه وليم الثاني بالبقاء في داره بتهمة الاتصال ومراسلة الموحدين. وبعد أن اجتمع ابن جبير بأبي القاسم، «أظهر لنا من باطن حاله وبواطن أحوال هذه الجزيرة مع أعدائهم، ما يبكي العيون دماً، ويذيب القلوب ألماً. فمن ذلك قال: كنت أود لو أباع أنا وأهل بيتي، فلعل البيع كان يتخصلنا مما نحن فيه، ويؤدي بنا الى الحصول في بلاد المسلمين»[1]. وأشار ابن جبير أيضاً الى عمليات التنصير والتعميد في الكنيسة لأبناء المسلمين، مما أوجد تخوفاً عند بعض المسلمين، فبدأوا يطلبون من التجار المسلمين أن يتزوجوا من بناتهم وأن يأخذوهن معهم حفاظاً على اسلامهن ودينهن.

ويلاحظ بأن المسلمين في صقلية كانوا في عهد وليم الثاني يعيشون هاجس الخوف والشكوى من التنصير والاضطهاد والضغوط. وبالفعل فبعد حوالي خمس سنوات من زيارة ابن جبير لصقلية تحققت تخوفات المسلمين، ففي عام ١١٨٩ م وقعت أعمال الشغب، وتعرض المسلمون للانتقام والتعصب من قبل النصارى في الجزيرة. ويصف المستشرق الدكتور مارتينو ماريو مورينو واقع المسلمين في صقلية ويبرره بالتالي: «كان التوازن بين اتباع الديانتين عادم القرار، رغماً من مجهودات الحكام. فما كان للمسلمين أن يرضوا بالخضوع بعد أن كانوا أسياداً، وأن لا يرنو الى اعادة الأمور الى نصابها، خصوصاً وأن رايات الموحدين الخافقة في سماء المغرب، كانت تنعش عزائمهم. وما كان من المستطاع للنصارى أنصاف المسلمين، لبقاء ذكر النهب والغصب الذي كانوا عانوه في الماضي، ولسنوح الفرصة لاسترجاع المغصوب عند الطرفين»[2].

هذا وقد عبّر أحد الصقليين وهو «فلقندو» عن مخاوفه بعد بلوغه خبر وفاة

---

(١) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢٣٦.

(٢) د. مارتينو ماريو مورينو، المرجع السابق، ص ٢٤.

وليم فقال في رسالة لصديقه « انني لأرى جموع البرابرة الغاصبين ومدننا الفسيحة وقصورها التي زهت في ظل سلام طويل تميد بالخوف ، وقد جرت فيها الدماء ودنستها الشهوات ، إنني لأرى بعيني بني وطني فريسة للذبح والأسر ، وأرى العدوان واقعاً على العذارى والنساء . وفي مثل هذه الضائقة ، أيها الصديق ، ماذا ترى يفعل الصقليون ؟ إنهم إن اجتمعوا على ملك شجاع مجرب احتفظوا بصقلية وقلورية . إن بلرم لا تزال مكللة بالعز وأسوارها تضم المسيحيين والمسلمين النشطاء ، فلو أن الشعبين اتحدا في ظل ملك واحد ، من أجل سلامتها ، لاندفعا يصدان البرابرة بأسلحة لا تنثني . ولكن إن عاد المسلمون الى الثورة لشدة ما لحقهم من أذى ، وما رهقهم من اساءة ، وراحوا يحتلون القلاع في الجبال وعلى السواحل . فليوطن المسيحيون التعساء أنفسهم على عبودية لا خلاص منها ، لأنهم سيكونون فريسة لهجوم مزدوج وسيقعون بين المطرقة والسندان »[1] .

أما على الصعيد الحضاري ، فقد استمر النورمان في الأخذ من الحضارة العربية والإسلامية نظراً لتطورها وتقدمها ، وتظهر الآثار العربية واضحة في قصر العزيزة (La Ziza) والقبة (La Cuba) في بالرمو ، كما تظهر تلك الآثار في بناء كاتدرائية جفلوذي (Cefalu) وكنيسة القصر الملكي وأقبية كاتدرائية بلرم (بالرمو)[2] . وقصر القبة مثلاً الذي شيده وليم الثاني كأنه قصر من قصور بني حماد ، وهو كمباني الفاطميين في المهدية ، كما أن كنيسة القصر الملكي في بلرم ، فيها الكثير من التشابه مع بناء المسجد الجامع في قرطبة . وهنالك آثار معمارية عربية عديدة تظهر واضحة في البناء الصقلي ومنها قصر « الفواره » (Favara) في بلرم ، الذي يعود بناؤه الى أيام الكلبيين ، كما أن برج بيش بالقصر الملكي في بلرم ، مقتبس من قصر المنار في قلعة بني حماد . وقد وصل أثر البناء والهندسة الإسلامية الى أضرحة النورمان والغربيين ، بحيث أن ضريح بوهمند في كانوسا ، بتصميمه الهندسي ذي الاضلاع الأربعة وقبته ، يبدو تقليداً مباشراً للأضرحة الإسلامية . وهناك العديد من الأمثلة حول المؤثرات الاسلامية في الهندسة النورمانية .

(١) د . احسان عباس : العرب في صقلية ، ص ١٥٣ ـ ١٥٤ .
(٢) د . عزيز أحمد : تاريخ صقلية الاسلامية ، ص ١١٥ .

الفصل الثالث

العلاقات الحضارية والسياسية بين المسلمين والمسيحيين في عهد أسرة الهوهنشتاوفن الالمانية

الله غالب

الفصل الثالث

العلاقات الحضارية والسياسية بين المسلمين والمسيحيين في عهد أسرة الهوهنشتاوفن الالمانية

توفي وليم الثاني بدون عقب، وكان قد أوصى بالملك من بعده للأمبراطور الالماني هنري السادس (١١٩٤-١١٩٧م) باعتباره زوجاً لابنة الملك روجر الثاني، غير أن المواطنين رفضوا هذه الوصية، ووقعت منازعات عديدة، ثم تولى الحكم لفترة معينة الأمير «تنكريد»، وفي عهده وقعت مذبحة للمسلمين في عام ١١٨٩م، وكانوا هدفاً سريعاً للاضطهاد، نظراً لاختلاف زيهم وعاداتهم ودينهم[١]. الأمر الذي دعا المسلمين الى تحصين أنفسهم، وأعلن مائة ألف منهم الثورة في بلرم، التي استمرت الى عام ١١٩٠م فحسب، وبعد أن وطد تنكريد حكمه، أدرك المسلمون أن وجودهم في الجزيرة أصبح أمراً صعباً، خاصة بعد محاولات ابعادهم عن مناصب الدولة، والابتعاد عن سياسة التوازن التي كانت متبعة من قبل، كما أن اللغة العربية لم تعد مستعملة كثيراً. وبالتدريج بدأ يقل عدد المسلمين في بلرم اما نتيجة للهجرة الى بلاد المسلمين، واما نتيجة للتنصير. وكانت هجرة المسلمين قد بدأت تتزايد من صقلية الى أفريقيا والأندلس والمشرق ابتداء من عام ١١٥٣م، غير أن الدراسات التاريخية الصقلية تشير الى قيام ثورات إسلامية في الجزيرة رغم تناقص عدد المسلمين فيها.

وبين أعوام (١١٩٨-١٢٥٠م) أصبح فريدريك الثاني (Frédéric II) ابن

---

(١) د. عزيز أحمد: المرجع السابق، ص ٨٥.

هنري السادس الالماني امبراطوراً على المانيا وعلى مملكة الصقليتين التي تشمل بلاد نابولي وجزيرة صقلية[1]. وبذلك انتقل الحكم في صقلية من الأسرة النورماندية الى أسرة الهوهنشتاوفن الالمانية، غير أن فريدريك الثاني كان في الرابعة من عمره، ولم يستطع أن يحكم فعلياً وباسمه الا في العام ١٢١١ م، وما أن أتى عام ١٢٢١ م حتى استطاع توطيد حكمه في أرجاء جزيرة صقلية، وأعاد النظام والأمن والهدوء اليها. غير أن المسلمين رفضوا في البدء الخضوع له، وثاروا ضده بقيادة ابن عبّاد الذي تسميه المصادر الصقلية التاريخية (Mirabetto) وكان عدد الثائرين المسلمين في عام ١٢٢١ م ما يقارب ثلاثين ألفاً[2]. وقد هاجم المسلمون مستشفى القديس يوحنا في بلرم وأسروا أسقف مدينة جرجنت، وتمركزوا في حصون بلرم ومنها: حصن «انتيله» (Entella) وحصن «جاطو» (Giato) وفي عام ١٢٢٢ م أسر ابن عباد وتم إعدامه، ثم ما لبث فريدريك عام ١٢٢٤ م إن جهز حملة ضد المسلمين المعتصمين في الجبال، فقضى عليهم، أما أسراهم فتم ترحيلهم وترحيل بقية مسلمي صقلية الى لوشيرة (Lucera) في مقاطعة أبوليه (Apulia). وقد ذكر ابو الفداء بأن «لوشيرة من بلاد الانبرور ولما استولى الانبرور على صقلية نقل المسلمين من صقلية وأسكنهم في لوشيرة المذكورة»[3]. ونقل فريدريك آخرين الى نصيره (Nocera) و«جيروفالكو» (Girofalco). أما القلة القليلة التي بقيت من المسلمين في صقلية، فإنها رغم قلة عددها فقد قامت بثورة بعد حوالي عشرين عاماً أي حوالي عام ١٢٤٤ م.

ويلاحظ بأن فريدريك الثاني لم يستطع التخلي عن المسلمين، فاستعان بهم

---

(١) للمزيد من التفصيلات عن عهد فريدريك الثاني انظر: د. عزيز أحمد: تاريخ صقلية الاسلامية ـ الفصل العاشر، ص ٩٤ ـ ١٠٠.
انظر أيضاً الدراسة المتخصصة: Kantorowicz, E; Fredrick The Second 1194-1250.

(٢) د. عزيز أحمد: المرجع نفسه، ص ٩٥ ـ ٩٦. د. مارتينو ماريو مورينو، المرجع السابق، ص ٢٥.

(٣) أبو الفداء: تقويم البلدان، المكتبة الصقلية، ص ١٤٩.

مجدداً ، لا سيما المسلمين الذين رحّلهم الى لوشيره. فقام بتجنيدهم في جيشه. وأوكل اليهم مهام عسكرية هامة . كما اعتمد على الصناع المسلمين المهرة في صناعة الأسلحة . وكان مسلمو « لوشيرة » يمارسون عقائدهم الدينية ويتكلمون العربية . وقد صبغوا هذه المدينة بصبغتهم العربية والإسلامية . غير أنه في أواخر القرن الثالث عشر شهدت صقلية والمدن الإيطالية مأساة إسلامية . وذلك بإرغام المسلمين وإكراههم بالقوة على الدخول في الكثلكة وترك إسلامهم وعلى يد شارل الثاني تم تنصير المسلمين عنوة وكرها وانتهى بذلك تماماً الوجود الإسلامي في صقلية وإيطاليا ، في حين قاوم فريدريك الثاني في السابق كل الضغوط الصادرة عن الكنيسة لتنصير مسلمي لوشيرة بالإكراه.[1]

ومن الناحية الحضارية ، فمن الملاحظ أن فريدريك الثاني منذ صغره شغف بتعلم اللغة العربية الى جانب اليونانية واللاتينية وكان للتراث العربي والنورماني اثر بارز في تكوين شخصية فريدريك الذي أمر بترجمة المؤلفات العربية العلمية والأدبية ، وأقام صلات ودية مع ملوك مصر والشام الأيوبيين . ففي عام ١٢٢٦ ، وصل الى بلاط فريدريك الثاني فخر الدين يوسف بن حموية ، شيخ الشيوخ مبعوثاً من قبل السلطان الأيوبي الكامل للاستعانة به ضد أخيه المعظّم وضد جلال الدين الخوارزمي ، على أن يسلمه مقابل الدعم العسكري بيت المقدس . وقد استنكر المسلمون على الملك الكامل تنازله عن بيت المقدس بهذه البساطة ، بعد عقد معاهدة سلام بينه وبين فريدريك عام ٦٢٦ هـ ـ ١٢٢٩ م[2] .

وقد جرت مراسلات علمية بين فريدريك الثاني والملك الكامل ، كان

---

(١) د. عزيز أحمد ، المرجع السابق ، ص ١٢١.

(٢) للمزيد من التفصيلات أنظر : ابن واصل : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب . جـ ٤ . ص ٢٤٣ . انظر أيضاً : المقريزي السلوك . جـ ١ ، ص ٢٣٠ ـ ٢٣١ ، ٢٣٣ . انظر أيضاً القسم الثالث : العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في بلاد الشام . وحول العلاقة بين الكامل وفريدريك الثاني . انظر أيضاً : د . سعيد عاشور : مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك . ص ٨٥ ـ ٩٠ .

فريدريك خلالها يسأل الكامل عن بعض المسائل العلمية، فكان يحولها إلى علمائه للإجابة عليها. وبذلك قال ابن واصل: « ... وسيّر الانبرطور الى الملك الكامل في اثناء ذلك مسائل حكمية ومسائل هندسية ورياضية مشكلة، ليمتحن بها من عنده من الفضلاء. فعرض الملك الكامل ما أورده من المسائل الرياضية على الشيخ علم الدين قيصر بن أبي القاسم إمام هذه الصناعة. وعرض الباقي على جماعة من الأفاضل فأجابوا عن الجميع »[1].

هذا وقد تبودلت الهدايا النفيسة بين الرجلين تأكيداً على تحالفهما ومصالحهما المشتركة. وبذلك يقول المقريزي: « وفيها وصل رسول ملك الفرنج بهدية سنية وتحف غريبة الى الملك الكامل وكان فيها عدة خيول، منها فرس الملك، بمركب ذهب مرصع بجوهر فاخر. فتلقاه الكامل بالإقامات من الاسكندرية الى القاهرة، وتلقاه بالقرب من القاهرة بنفسه، وأكرمه إكراماً زائداً، وأنزله في دار الوزير صفي الدين بن شكر. واهتم الكامل بتجهيز هدية سنية الى ملك الفرنج: فيها من تحف الهند واليمن، والعراق والشام، ومصر والعجم، ما قيمته أضعاف ما سيره، وفيها سرج من ذهب، وفيها جوهر بعشرة آلاف دينار مصرية، وعين الكامل للسير بهذه الهدية جمال الدين بن منقذ الشيزري »[2].

وكان للسفارات بين الحاكمين نتائج علمية إضافة الى النتائج السياسية، فمن المعروف أن المبعوث فخر الدين كان عالماً، وقد استفاد فريدريك من علمه وثقافته خلال إقامته في صقلية أو خلال لقائها ثانية في الشرق. كما قدم فخر الدين الى فريدريك قائمة باسماء الكتب القيّمة التي يبحث عنها. وتوطدت الصداقة بين الرجلين. ومما قاله فريدريك لفخر الدين: « لماذا تكون الحرب واستخدام القوة وسيلتي تفاهم بيني وبين السلطان؟ لماذا لا يمد الرجلان المحبان للفكر والثقافة والكارهان للعنف وإراقة الدماء يد الصداقة الخالصة لبعضهما؟

---

(١) ابن واصل، المصدر السابق، جـ ٤، ص ٢٤٢.
(٢) المقريزي: السلوك، جـ ١، ص ٢٢٣.

أيجوز لهما ان يتوانيا والفرصة سانحة امامهما عن حقن الدماء التي طال هدرها وتوحيـد الشرق والغـرب وقـد طـال صراعهما »؟ ولهذا اقترح فخـر الديـن على فريدريك ان لا يرسل للسلطان مبعوثه القانوني الذي يثير غضبه بتصرفاته، إنما من الأفضل إرسال الكونت توماس الأكرى (Thomas Acerra) لا لأنه يجيد العربية بل لأنه يحسن التصرف، وتصرفه كالمسلمين تماماً. وبعد هذه السفارات المتبادلة تم اللقاء فعلاً في يافا بين فريدريك والكامل في ١٨ شباط (فبرايـر) ١٢٢٩ م، وقال السلطان الكامل لفريدريك: « اقسم بالله العظيم وبقلب ونية سليمة ان أنفذ كل ما اتفقنا عليه في هذه الوثيقة والا أحنث بقسمي ». بينما اقسم فريدريك بقوله: « اقسم بالله العظيم بأني سأنفذ كل ما اتفقنا عليه، وأني سآكل لحم يدي اليسرى إن حنثت بهذا القسم العظيم ». وقد أشار ابن واصل بأن الامبراطور فريدريك الثاني قال لرسول الكامل الأمير فخر الدين بن الشيخ: « لولا اني اخاف انكسار جاهي عند الفرنج، لما كلفت السلطان شيئاً من ذلك، وما لي غرض في القدس ولا غيره، وإنما قصدت حفظ ناموسي عندهم »[1].

وتشير المصادر التاريخية بأن هذا الاتفاق السلمي يعود عقده الى عدة عوامل منها:

١ ـ وجود جند من المسلمين في جيش فريدريك الثاني، ولهذا كان من الأفضل الاتفاق السلمي على أن يقاتل المسلمون بعضهم البعض.

٢ ـ شعور فريدريك الثاني بالمخاطر السياسية والعسكرية التي كانت تواجهه في الغرب، في مقابل المخاطر السياسية والعسكرية التي كانت تواجه الكامل في الشرق من جراء تحالف أخيه المعظّم مع السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه[2].

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، جـ ٤، ص ٢٤٣، انظر أيضاً مع شيء من الاختلاف في النص: المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ ١، ص ٢٣٠.

(٢) حول هذا الموضوع انظر: المقريزي: السلوك، جـ ١، ص ٢٢١ ـ ٢٢٢.

٣ ـ احراج البابوية التي أصدرت الحرمان الكنسي عام ١٢٢٧ م بحق فريدريك الثاني، وذلك بتقوية فريدريك بالسيطرة على بيت المقدس.

٤ ـ إن الاتفاق السلمي بين الجانبين يسهّل لفريدريك الثاني وللشعب الصقلي امكانية الاستفادة من حضارة المسلمين وثقافتهم أكثر من ذي قبل.

ومن مظاهر التبادل الحضاري والثقافي واستفادة صقلية من الحضارة العربية والاسلامية، الكتاب العربي المعروف باسم «المسائل الصقلية» وهي المسائل التي وجهها فريدريك الى علماء المسلمين، وأجابه عليها الفيلسوف الأندلسي «ابن سبعين» بأمر الخليفة الرشيد خليفة الموحدين [1]. حتى أن فريدريك الثاني في فترة الحروب الصليبية استرفق معه العلامة ابن الجوزي الصقلي ليواصل تدريسه في علم الجدل. كما سبق أن استفاد فريدريك من أحد مبعوثي الملك الكامل اليه، وهو الشاعر الفيلسوف صلاح الدين الاربلي. اضافة الى أن الملك الكامل أغنى حديقة الحيوان الخاصة بفريدريك بإهدائه أحد الفيلة، بينما أهدى فريدريك السلطان «الدب الأبيض الى الملك الأشرف أخي الكامل». كما أهداه طاووساً أبيض. ولم يكتف سلطان مصر بذلك، بل ارسل إلى فريدريك منجماً اسمه «ثيودوروس» (Theodoros) يحسن اللغة العربية ليكشف له أسرار علم الكواكب العربي. وكان عند فريدريك نفسه فيلسوف يتقن العربية والاسبانية، اسمه «ميشال اسكوتوس» (Michel Scothus). وقد ترجم له عن العربية «كتاب الحيوانات» وكتباً أخرى. أما المترجمون الآخرون فقد ترجموا له من العربية إلى اللاتينية «كتاب البيطرة» وشرح ابن رشد وكتاب «الشباب والملاح» للرازي. ولقد أظهرت الوقائع مدى تأثر فريدريك بالثقافة العربية. وبذلك يقول أبو الفداء: «لقد رأيت تلك البلاد عندما سافرت الى امبراطورها كسفير للملك. والامبراطور كان أحد ملوك الفرنجة الكرماء، يهتم كثيراً بالفلسفة والمنطق والطب ويحب المسلمين لأنه

(١) للمزيد من التفصيلات انظر: ابن سبعين المكي المرسي الأندلسي: كتاب المسائل العقلية. المكتبة الصقلية، ص ٥٧٣ ـ ٥٧٧.

تربى في جزيرة صقلية حيث أغلبية الشعب من المسلمين». وأكد ذلك صاحب جامع التواريخ فقال: كان فريدريك «الانبرور ملكاً متميزاً عالماً محباً للحكمة والمنطق والطب...»[١].

هذا، وقد استمر فريدريك في طلب المساعدات العلمية من المسلمين، ولم يتوان عن الاستمرار في الطلب من السلطان الكامل مساعدته على حل بعض المعضلات الرياضية والفلكية والفلسفية، فكان السلطان يحولها بدوره الى علماء المسلمين، وهذا ما حدث مرة عندما حول المسائل الرياضية إلى العالم الرياضي علم الدين قيصر الاسفوني الصعيدي الحنفي الملقب باسم «تعاسيف» الذي استطاع حلها، فأعادها الكامل الى فريدريك مرفقة بكتاب هدية عن علم الفلك، ولهذا ازداد فريدريك علماً بحيث أن المقريزي وصفه بأنه كان «عالماً متبحراً في علم الهندسة والحساب والرياضيات بعث الى الملك الكامل بعدة مسائل مشكلة في الهندسة والحكمة والرياضة، فعرضها على الشيخ علم الدين قيصر الحنفي - المعروف بتعاسيف - وغيره، فكتب جوابها...»[٢].

وأضاف بأنه كان محباً للمسلمين ولسماع آذانهم، فعندما كان في بيت المقدس ينتظر سماع آذان المؤذنين، تبين له بأن قاضي نابلس منع الآذان احتراماً له، فإذا بفريدريك يبدي استياءه ويلتفت الى شمس الدين قاضي نابلس ويقول له: «أخطأت فيما فعلت، والله إنه أكثر غرضي في المبيت في القدس أن أسمع آذان المؤذنين وتسبيحهم في الليل»[٣].

ولما تولى الحكم الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد عرش مصر سار على سياسة الود والصداقة التي انتهجها والده نحو فريدريك الثاني، فاستمرت العلاقات

---

(١) حسين اليافعي: جامع التواريخ. المكتبة الصقلية، ص ٥١١.
(٢) المقريزي: السلوك، جـ ٢، ص ٢٣٢.
(٣) ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، جـ ٤، ص ٢٤٥. المقريزي: السلوك، جـ ١، ص ٢٣١.

الحسنة بينهما، وتبادلا السفارات والعلوم والهدايا. ومن بين تلك السفارات سفارة الملك الصالح الى فريدريك برئاسة الشيخ سراج الدين الأرموي قاضي قونية الذي أقام فترة في صقلية ألّف خلالها كتاباً في المنطق قدمه لفريدريك. وبلغت الصداقة بين الملكين حداً دعت فريدريك الى إرسال مبعوث خاص في زي تاجر الى الملك الصالح لابلاغه بحملة لويس التاسع (ريد فرانس) على مصر. وهذا المبعوث هو سرترد مهمندار (أمين سر ديوان رسائل الامبراطور) الذي قال: «كان ذهابي الى مصر ورجوعي في زي تاجر. ولم يشعر أحد باجتماعي بالملك الصالح خوفاً من الفرنج أن يعلموا ممالأة الامبراطور للمسلمين عليهم»[1].

وتشير بعض المصادر الى أن فريدريك تزوج في المرة الأولى من أميرة اسبانية من أرغون، التي صحبت معها وصيفاتها من سيدات المجتمع الاسباني. وبواسطتهن تدفق سيل من التأثيرات العربية الاسبانية على صقلية التي كانت هي ذاتها مركزاً للحضارة العربية والاسلامية. ويذكر أيضاً بأن فريديك تدرب مع أولاده على نظم الشعر الغنائي المتأثر بالشعر العربي، وأن كل ما أنتجوه هو اللبنة الأولى التي أنبتت فيما بعد الأدب الايطالي الكلاسيكي، وفي ذلك قال الشاعر الايطالي «بترارك» (Petrarque) (٣٠٤ - ١٣٧٤ م) «في زمن قصير شاع ذلك النوع من الشعر، الذي ولد بصقلية، في كل ايطاليا وتعداها».

وقال «دانتي» (Danté) (١٢١٦ - ١٣٢١ م) الشاعر الايطالي صاحب «الكوميديا الالهية» (La Divine Comedia): «... لذلك يسمى كل ما نظمه أجدادنا من أشعار بلغة البلاد بالشعر الصقلي». وفي هذا الصدد لا بد من القول من أن بترارك ودانتي تأثرا بالأشعار والآداب العربية، فمن المعروف أن دانتي اهتم كثيراً بالشعر العربي والتصوف والفلسفة الأندلسية وبفلسفة ابن رشد. وبينما نجد في أشعار بترارك تأثيرات عربية غير مباشرة نجد أثر أبي العلاء وابن عربي واضحاً وضوحاً تاماً في أشعار دانتي.

---

(١) ابن واصل، المصدر السابق، جـ ٤، ص ٢٤٧.

وفي عهد فريدريك الثاني استمرت المؤثرات الهندسية العربية واضحة في البناء الصقلي. فقد بنى قصوره وقلاعه وأعاد ترميم ما تهدم على النمط العربي. وتبين بأن قلاع باري (Bari) وتراني (Trani) وبرانديزي (Brandisi) تتشابه مع قلاع اسبانيا والشرق العربي. وظهر الأثر العربي المعماري أيضاً في نوع الأقبية والأعمدة وخامات البناء، والنقوش التي وجدت في أبنية صقلية، وظهرت أسماء العمال والفنيين والتعابير العربية منقوشة على تلك الأبنية.

من جهة أخرى فإن فريدريك الثاني استفاد كثيراً من الأنظمة الادارية الاسلامية. فاقتبس قواعد الحكم والادارة والأنظمة المالية والضرائبية العربية، مما خفف كثيرا من اعباء وضع مملكته المالي والاداري. وقد فرض الضرائب وضريبة الرأس على اليهود والمسلمين التي يقابلها في النظام الاسلامي الزكاة على المسلمين، والجزية على غير المسلمين. والواقع فإن صقلية ليست وحدها التي تأثرت بالأنظمة المالية الاسلامية. إنما انتقلت هذه المؤثرات بواسطة النورمان الى مختلف المناطق الأوروبية. وكان بعض المسلمين قد تولوا مناصب ادارية هامة في صقلية، وكانوا بمثابة خبراء في الإدارة الصقلية ومن هؤلاء «ريتشارد العربي» (Ruchard of Arabia) الذي كان مسؤولاً عن جمع أموال الضرائب، وعن وجوه توزيعها على الموظفين ومرافق الدولة. وكان ابن عبد الرحمن رئيساً لمالية صقلية كلها، ثم أصبح مبعوثا للملك الى الأندلس ومراكش وتونس. وكان يملك الصلاحيات للتوقيع على المعاهدات والاتفاقات الاقتصادية باللغة العربية أيضاً. ذلك لأن اللغة العربية كانت الى جانب اليونانية واللاتينية لغة رسمية في صقلية، وبواسطتها تدون سجلات الدولة ومختلف دواوين الادارة. وكان العالم العربي تيودور الانطاكي (مسيحي من انطاكية) أحد المقربين من فريدريك الثاني، وكانت تتم بينهما المناقشات والمداولات العلمية، وقد ترجم تيودور لفريدريك عدداً من الكتب العلمية. فأصبح موضع ثقته، لذا أصبح سفيراً له الى بعض المناطق العربية. وكان من بين المقربين الى فريدريك الثاني البربري «المورو» (Il Moro) الذي عرف باسم يوحنا موروس (Johannes Morus) وكان حارساً خاصاً

بفريدريك، ثم أصبح مستشاراً للبلاط، وأصبح زمن حكم الملك كونراد حاكماً لمدينة لوشيرة.

هذا ولما استرد المسلمون بيت المقدس عام ٦٤٢ هـ - ١٢٤٤ م، رفض فريدريك الثاني تحريض بطريرك انطاكية للقيام بحملة صليبية لاسترداده. واتهم وقتذاك بأنه يقرب اليه المسلمين أكثر من المسيحيين. وكان فريدريك يردد دائماً «أن صديقي السلطان المسلم أثمن لديّ من أي شخص آخر ما عدا ولدي الملك كونراد» ومن ألقابه التي اعتز بها دائماً «فريدريك هو هنشتاوفن صديق الملك المسلم». وقيل إنه في آخر حياته كان كلما وقع في ضيق يتنهد قائلاً: «آه، لو كان صديقي الكامل على قيد الحياة». ولما توفي فريدريك الثاني عام ١٢٥٠ م، كفّن بأثواب عربية، ودفن في مسجد بلرمو الذي كان قد حول إلى كاتدرائية.

ولما تولى الحكم في صقلية «منفرد» (Manfred) الابن غير الشرعي لفريدريك الثاني وآخر ملوك أسرة هوهنتشاوفن، استمر في سياسة والده، وجرت اتصالات بينه وبين السلطان المملوكي الظاهر بيبرس (١٢٦٠ - ١٢٧٧) وتبادلا السفارات العلمية والسياسية[1]. وقد أوفد بيبرس اليه المؤرخ الحموي ابن واصل (المتوفى ٦٩٧ هـ - ١٢٩٧ م) صاحب كتاب «مفرج الكروب في أخبار بني أيوب» الذي وصف بعثته الى منفرد في كتابه، والتي قام بها في شهر رمضان سنة ٦٥٩ هـ، فاشار الى اجتماعه بالملك، والى المسلمين المقيمين في مدينة لوجارة (لوشيرة) وإقامتهم للصلاة، والمعاملة الحسنة التي يلقونها من الملك. كما أشار الى تقرب الملك من المسلمين واشتغالهم معه ومما قاله واصفاً ما رآه: «فأقمت عنده [أي عند منفرد] مكرماً بمدينة من مدائن أنبوليه في البر الطويل، المتصل ببر أندلس. واجتمعت به مراراً ووجدته متميزاً ومحباً للعلوم الصقلية، يحفظ عشر مقالات من كتاب أوقليدس في الهندسة. وبالقرب من البلد الذي كنت نازلاً به مدينة تسمى لوجاره أهلها كلهم مسلمون من أهل جزيرة صقلية، تقام فيها الجمعة، ويعلن

(١) د. عزيز أحمد: تاريخ صقلية الاسلامية، ص ٩٩.

بشعار الاسلام، وهي على هذه الصفة من عهد أبيه الانبرطور. وكان منفريد قد شرع في بناء دار علم بها، ليشتغل فيها بجميع أنواع العلوم النظرية. ووجدت أكثر أصحابه الذين يتولون أموره الخاصة به مسلمين. ويعلن في معسكره بالآذان والصلاة...»[1]. وأكد ابن واصل مجدداً بأن منفرد على علاقة متوترة وسيئة مع البابا، وأن البابا أصدر قرار الحرمان بحقه «لميله الى المسلمين وخرقه ناموس شرعهم». وكان هذا القرار قد صدر في أواخر أيلول (سبتمبر) ١٢٢٧م - ٦٢٤هـ[2].

هذا وقد عرف عن «منفرد» بأنه كان شاعراً وراعياً لمنشدي «التروبادور» (Troubadours) المتأثرين بالتراث الغنائي والموسيقي العربي، كما أعطي لقب «ملك العرب وسلطان لوشيرة». وقد ذكر بأن فريدريك الثاني وورثته الذين تولوا الحكم من بعده كانوا كلهم «ممقوتين عند البابا خليفة الفرنج صاحب رومية، لميلهم الى المسلمين»[3].

ولا بد في هذا المجال من أن نشير بشيء من الايجاز الى المؤثرات اللغوية العربية في اللغة اللاتينية واليونانية التي انتشرت في صقلية وانتقلت منها الى مختلف مناطق أوروبة، وهي على سبيل المثال لا الحصر:

الفندق	Fondaco
ديوان	Douane (Dohana)
دفتر	Defetari
رحبه	Rahba
حجّام	Cangemi
كابل (سلك)	Kabel

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، جـ٤، ص ٢٤٨.

(٢) انظر: Kantorowicz; Fredrick the Second, p.111.

(٣) ابن واصل، المصدر السابق، جـ٢٤٨.

صك	Scheek
تعرفة	Tariffa
مخزن	Magazin
الملح القلوي (بوتاس)	Calsium
فلوكه (قارب)	Feluke
قيثارة	Gittare
راحة اليد (مضرب الكرة)	Rakete
بازار	Bazzariotu
سكر	Sucre, Zuker
حرارة	Carara
ترصيع .	Tarsia
قلعة أبو شامة	Buscemi
منزل الأمير	Misilmeri
أمير (أميراتوس)	Amiratus
أمير البحر (اميرال)	Amiragghiu, Admiral
التقويم والمناخ	Almanach
المقنطرات	Almuquantarat
الكحول	Alcool, Al Khohol
البرقوق (المشمش)	Apricot, Aprikose
عسكري	Askari
دار صناعة حربية	Darsenal
لازورد (أزرق سماوي)	Azur
قهوة	Cafe, Caffee
السيد	Cid
مسكين	Mesquino
قماش المخيّر (من الماعز)	Mohair

Tasse	طاسة
Artichoke, Carcloffa	أرضي شوكي (خرشوف)
Gasena	خزانة
Cassara	خسارة
Alcamo	علقمة
Marsala	مرسى علي
Trabia	تربيع
Favara	فوارة
Zecca	السكة
Rotola	الرطل
Cantaro	القنطار
Azzalora	الزعرورة
Marascia	المرشة
Zabbara	الصبارة
Mazzara	المعصرة
Cassaro	القصر
Marzameni	مرسى الحمام
Pasteque, Pastecca	البطيخ
Naranzu	النارنج
Noria	الناعورة
Gebbia	الجابية
Galiggi	الخليج
La Cuba	القبة
La Ziza	العزيزة
AlMotacen	المحتسب

وهكذا يلاحظ من خلال هذه الدراسة بأن صقلية كانت معبراً من معابر الحضارة العربية والإسلامية، فقد استفادت صقلية من هذه الحضارة، وأفادت سواها من بلدان أوروبا. وبالرغم من أن العلاقات الاسلامية ـ المسيحية في صقلية شهدت التوتر والتقاتل غير أن الثابت ايضاً بأن هذه الجزيرة شهدت علاقات حضارية على غاية من الأهمية. هذا وقد نظم ابن حمديس شعراً في صقلية [1] معبراً عن اشتياقه لها فقال:

ذكـرت صقليـة والهوى　　يهيـج للنفس تـذكـارهـا
فإن كنت أخرجت من جنـة　　فإني احدّث أخبارها

(١) انظر: المكتبة الصقلية، ص ١٤١.

الفصل الرابع

بالرمو عاصمة صقلية

الله غالب

الفصل الرابع

بالرمو عاصمة صقلية

بالرمو أو بلرم عاصمة صقلية وقاعدة ملوكها زمن حكم المسلمين والنورمان والجرمان، وكان المسلمون يعرفونها باسم المدينة والنصارى يسمونها بالرمو، وقد زارها ووصفها الرحالة المسلمون أمثال ابن حوقل البغدادي (المتوفي عام ٣٨٠ هـ) والمقدسي (زارها بعد ابن حوقل بثلاث سنوات) والشريف الادريسي (المتوفى حوالي عام ٥٤٨ هـ) وابن جبير (المتوفى عام ٦١٤ هـ) وقد وصفها ابن حوقل التي زارها عام ٩٧٣ م، بقوله [1]: « .. المدينة الكبرى المسماة بلرم وعليها سور عظيم من حجارة شامخ منيع، يسكنها التجار وفيها مسجد الجامع الأكبر، وكان بيعة للروم قبيل فتحها ... وببلرم طائفة من القصابين والجزارين والاساكفة وبها للقصابين دون المائتي حانوت لبيع اللحم... وأشهر أبوابها باب البحر... وباب أبو الحسين.. وباب شنتغاث.. وباب روطه.. باب الرياض.. وباب ابن قرهب.. وباب الأبناء.. وباب الأودان.. وباب الحديد.. والغالب على البلد المعلمون، والمكاتب به في كل مكان، وبالبلد منهم ما يقارب ثلاثمائة معلم..»، ويلاحظ بأن ابن حوقل يتهجم كثيراً على أهل صقلية وفي مواقع عديدة منها مثلاً قوله: « .. والطارىء عليهم عظيم شديد، لا يألفون ولا يؤلفون آخذين لذلك عن حاضرتهم لأنهم أيضاً في بغض التجار والغرباء.. لأنها جزيرة لم تختص بوجه من فضائل البلدان غير القمح

(١) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ١١٣ ـ ١١٤.

منازلهم..»[1]. كما أن القزويني انتقد مسلمي بلرمو لكثرة المساجد وقربها من بعضها البعض ومما قاله: «... فسألت عن ذلك فقالوا القوم لانتفاخ أدمغتهم لا يرضى أحدهم أن يصلي في مسجد غيره، ويكون له مسجد لا يصلي فيه غيره»[2].

ومما قاله المقدسي في وصف بلرمو «بلرم هي قصبة اصقلية على البحر في الجزيرة أوسع من الفسطاط إلا أنها متفرقة. بناؤهم حجر وجيل وهي صحراء وبيضاء يحدق بها الفوارات والجنازير، ويسقيها نهر يقال له وادي عباس والأرحية وسطها. كثيرة الفواكه والخيرات والأعناب. الماء يضرب الحائط، ولها مدينة داخلة، بها الجامع والأسواق في الربض، ومدينة أخرى خارجة مسورة تسمى الخالعة بأربعة أبواب... وبها أيضاً جامع ولها أسواق... وصقلية جزيرة واسعة جليلة ليس للمسلمين جزيرة أجلّ ولا أعمر، ولا أكثر مدناً منها...»[3].

وجاء في وصف الباكوي لبلرمو من أنها «مدينة بجزيرة صقلية في بحر المغرب بها هيكل عظيم، ويقال أن سقرط فيها في شيء من الخشب معلق، والنصارى يعظمون قبره. فيها من المساجد أكثر منها في جميع البلاد»[4]. أما الادريسي فقد امتدح بلرمو ومما قاله فيها «مدينة بلرم وهي المدينة السنية العظمى، والمحلة البهية الكبرى، والمنبر الأعظم الأعلى على بلاد الدنيا».. وأشار إلى أنها تشتمل على كثير من القصور والمنازل الشامخة «وكثير من المساجد والفنادق والحمامات وحوانيت التجار الكبار... وبها الجامع الأعظم الذي كان بيعة في الزمن الأقدم وأعيد في

---

(١) ابن حوقل، المصدر السابق، ص ١٢٤. للمزيد من التفصيلات عن وصف ابن حوقل لأحوال الاندلس. انظر: المصدر نفسه، ص١١٣ - ١٢٥.

(٢) القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، المكتبة الصقلية، ص ١٤٠.

(٣) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، ص ٢٣١ - ٢٣٣، أنظر أيضاً ص ٢٢١ - ٢٢٢، انظر أيضاً: أماري: المكتبة العربية الصقلية، ص ٥٥ - ٥٧.

(٤) عبد الرشيد بن صالح بن نوري الباكوي: تلخيص الآثار وعجائب الملك القهار. انظر: أماري: المكتبة العربية الصقلية، ص ٦٠ من المقدمة.

هذه المدة على حالته في سالف الزمان... » [1].

وإذا كان ابن حوقل قاسياً في أهل بلرم وصقلية كلها، غير أن الادريسي كان أكثر انصافاً فوصف بلرم وصفاً جيداً بقوله: ان صقلية هي لؤلؤة هذا القرن في الغنى والجمال، وأول بلاد العالم في خصوبة أرضها وكثافة سكانها وقدم حضارتها. يأتي اليها المسافرون والتجار من كل الأنحاء وكلهم مقدر لصقلية مكانتها، الجميع يثنون على جمالها، ويتحدثون عن مزاياها وبضائعها التي تأتيها من أرقى البلاد، وبلرم مركز الملك منذ القدم، تقع على الساحل المكتنف بالشمس محاطة بالجبال مزينة بالمباني الفخمة لدرجة أن الناس تأتي اليها لترى فن البناء فيها وتحفها الفنية، ولتشاهد قصورها المتوجة بالأبراج ومبانيها ومساجدها وحماماتها وحوانيت تجارها، ولا يستطيع المرء أن يتصور مدى جمال جامعها، بالإضافة الى التحف والزينات والنادر من التماثيل والرسوم والزخارف الذهبية والملونة. وبلرم غنية بفواكهها ولا يستطيع الانسان أن يتصور فخامة مبانيها، إن هذه المدينة تخلب لب زائرها. ومما قاله فيها أيضاً «إن جزيرة صقلية فريدة الزمان فضلاً ومحاسن، ووحيدة البلدان طيباً ومساكن. وقديماً دخلها المتجولون من سائر الأقطار... وكلهم أجمعوا على تفضيلها وشرف مقدارها، وأعجبوا بزاهر حسنها، ونطقوا بفضائل ما بها... فملوكها أعظم الملوك قدراً وأكبرهم خطراً وأرفعهم همة وأشمخهم رتبة... » [2].

أما ابن جبير الذي زار صقلية عام ٥٨٠ هـ ـ ١١٨٥ م، فقد وصف العاصمة بالرمو (أشرنا سابقاً الى بعض ما قاله عنها) ومما قاله: « .. هي بهذه الجزائر أم الحضارة، والجامعة بين الحسنين غضارة ونضارة، فما شئت بها من جمال مخبر ومنظر، ومراد عيش يافع أخضر، عتيقة أنيقة.. فسيحة السكك والشوارع.. وللمسلمين بهذه المدينة رسم باق من الايمان، يعمرون أكثر مساجدهم، ويقيمون

---

(١) الادريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، المكتبة الصقلية، ص ٣٨.
(٢) الادريسي: المصدر نفسه، ص ٣٥ ـ ٣٦ وما يليها من صفحات.

الصلاة بآذان مسموع.. ومن أعجب ما شاهدناه بها من أمور الكفران: كنيسة تعرف بكنيسة الانطاكي.. وزي النصرانيات في هذه المدينة زي نساء المسلمين، فصيحات الألسن، ملتحفات متنقبات.. لبسن ثياب الحرير المذهب.. حاملات جميع زينة نساء المسلمين..»[1].

ومما يلاحظ أن ما من مؤرخ أو رحالة وصف صقلية إلا وأشار الى وجود البراكين. اضف الى ذلك إلى أن ابن فضل الله الدمشقي وصف بلرمو أيضاً ومما قاله: «مدينة بلرم وهي على ساحل البحر بالجانب الغربي، والجبال محدقة بها، وعليها أسوار منيعة بأبراج مشيدة، وبدنات مكينة، وهي على قسمين قصور وربض، وبها الديار والحمامات والفنادق والأسواق الممتدة والمساجد الباقية من زمن ملك الاسلام لها. وبها دار الصناعة لإنشاء السفن وبساتين محدقة ومياه جارية وأرحا دايرة»[2].

ويلاحظ أن بالرمو كانت حاضرة صقلية من النواحي السياسية والادارية والثقافية والعمرانية. وقد أقيم فيها في القرن الثالث عشر الميلادي مدرسة خاصة للترجمة من العربية الى اللاتينية واليونانية على غرار ما كان معمولاً به في مدرسة طليطلة (Toledo) في القرن الثاني عشر الميلادي. وقد أقيمت العلاقات الثقافية بين مدرسة بالرمو ومدرسة طليطلة، ومن العلماء الذين ترددوا على مدرسة بالرمو من مدرسة طليطلة العالم الاسكوتلندي ميخائيل سكوت (Scott) الذي ترجم أعمال أرسطو وشروح ابن رشد[3]. وفي النصف الأول من القرن الثاني عشر ترجم القرآن الكريم الى اللاتينية. كما ترجمت حادثة الاسراء والمعراج وانتشرت في

---

(١) ابن جبير: الرحلة، ص ٢٣٠ ـ ٢٣١.

(٢) ابن فضل الله الكاتب الدمشقي: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار. المكتبة الصقلية، ص ١٥٩. ومن يود الاطلاع على تفصيلات واستزادة حول صقلية وبلرمو وبقية المدن والتاريخ الصقلي، يمكن العودة إلى ميشيل اماري: المكتبة العربية الصقلية، حيث تضم أكثر من سبعمائة صفحة متخصصة كلها عن تاريخ صقلية عبر العصور.

(٣) ميخائيل سكوت (Scott) هو نفسه ميشال اسكوتوس (Michel Scothus) مترجم فريدريك.

اسبانيا وايطاليا منذ القرن الثالث عشر الميلادي، وقد استفاد منها الشاعر الايطالي «دانتي» في ملحمته «الكوميديا الالهية» بواسطة أستاذه برونيتولا تيني (Prunetto Latini) الذي كان يزور دائماً مدرستي بالرمو وطليطلة في عهد الفونسو الحكيم في القرن الثالث عشر. كما اتجهت مدرسة بالرمو الى ترجمة المؤلفات العلمية منها كتب ابن سينا (المتوفى ١٠٣٧ م) وأبي بكر الرازي (المتوفى ٩٣٢ م) في الطب. وكان من أعلام المترجمين فيها أوجينوس البالرمي (Eugenius) وليوناردو بيزانو (Pisano). ولعل من مظاهر النهضة العلمية في صقلية عامة وبالرمو خاصة، تلك الآلاف من المخطوطات العربية القديمة التي لا تزال محفوظة إلى الآن في مكتبة الفاتيكان في روما [1].

والحقيقة فإن بالرمو لا تزال الى الآن تتميز بالروح العربية والاسلامية في كثير من مظاهرها العمرانية والاجتماعية والثقافية. وهناك حرص من الصقليين على احياء العلاقات الثقافية بينهم وبين البلدان العربية، فمنذ عام ١٩٥٩ افتتح في جامعة بالرمو قسماً خاصاً لتعليم اللغة العربية وآدابها، مع الحرص على احياء التراث الصقلي العربي، من خلال الدراسات التاريخية والمؤلفات والأبحاث المتنوعة.

---

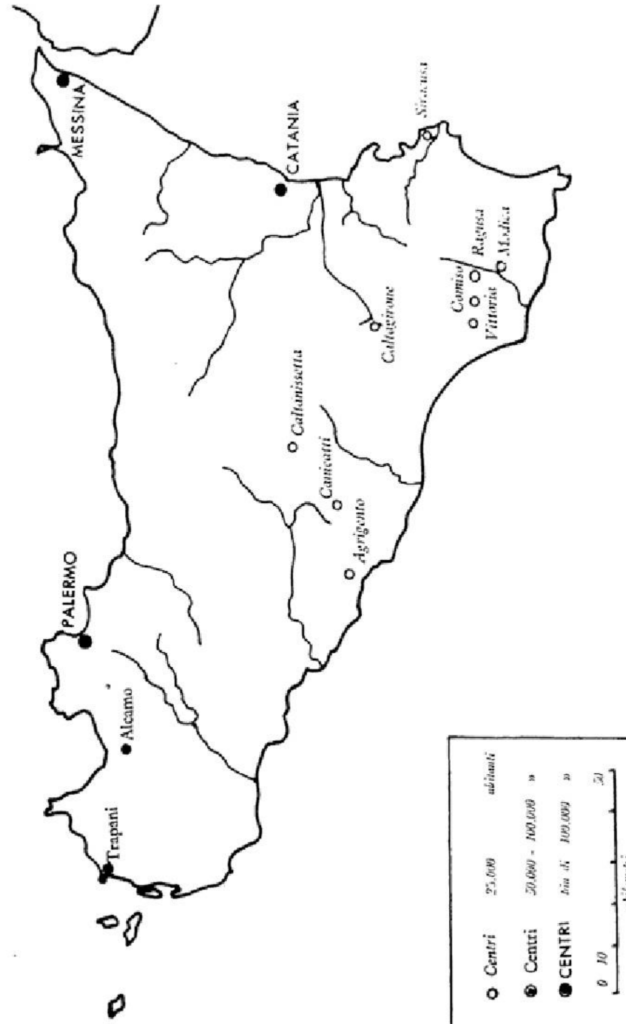
(١) انظر: د. أحمد مختار العبادي، العلاقات بين الشرق والغرب، ص ٨١ ـ ٨٢.

الله غالب

الخرائط والصور[*]

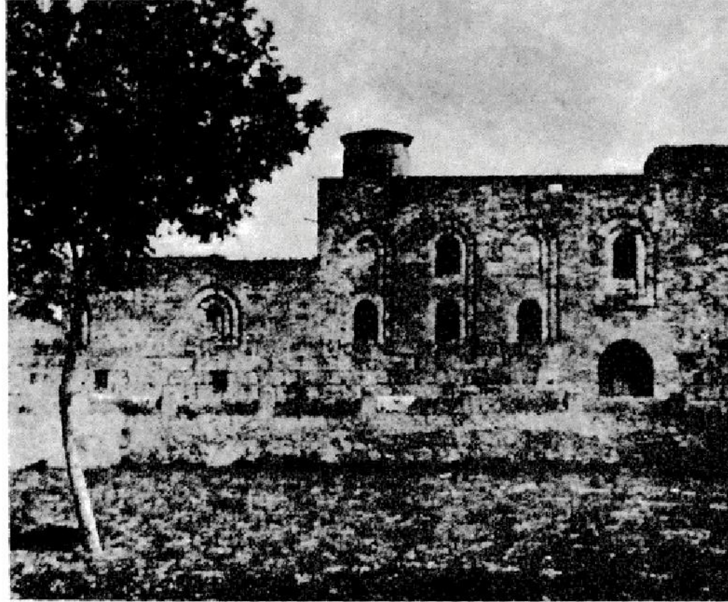
(*) هذه الخرائط والصور مأخوذة من: د. مارتينو ماريو مورينو: المسلمون في صقلية، د. عزيز أحمد: تاريخ صقلية الاسلامية.

الله غالب

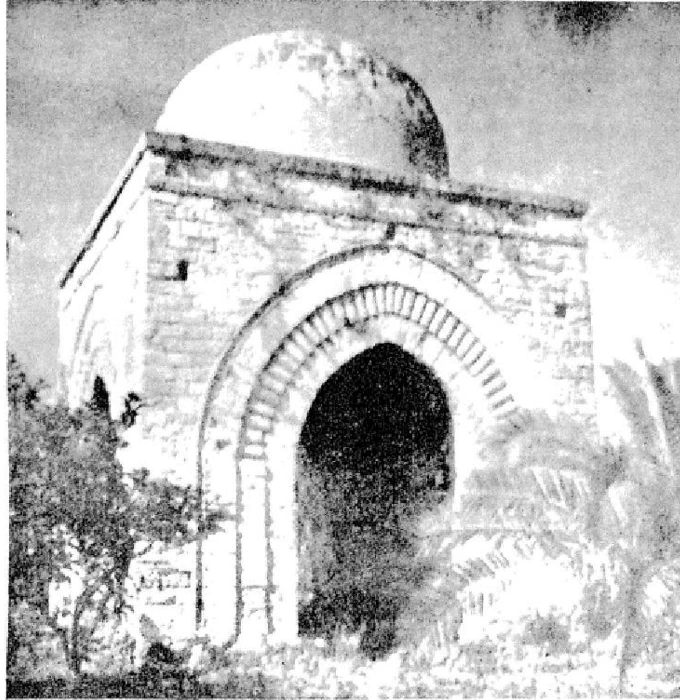

MESSINA
CATANIA
Siracusa
Ragusa
Modica
Comiso
Vittoria
Caltagirone
Caltanissetta
Canicatti
Agrigento
PALERMO
Alcamo
Trapani
Centri
Centri
CENTRI

خريطة صقلية

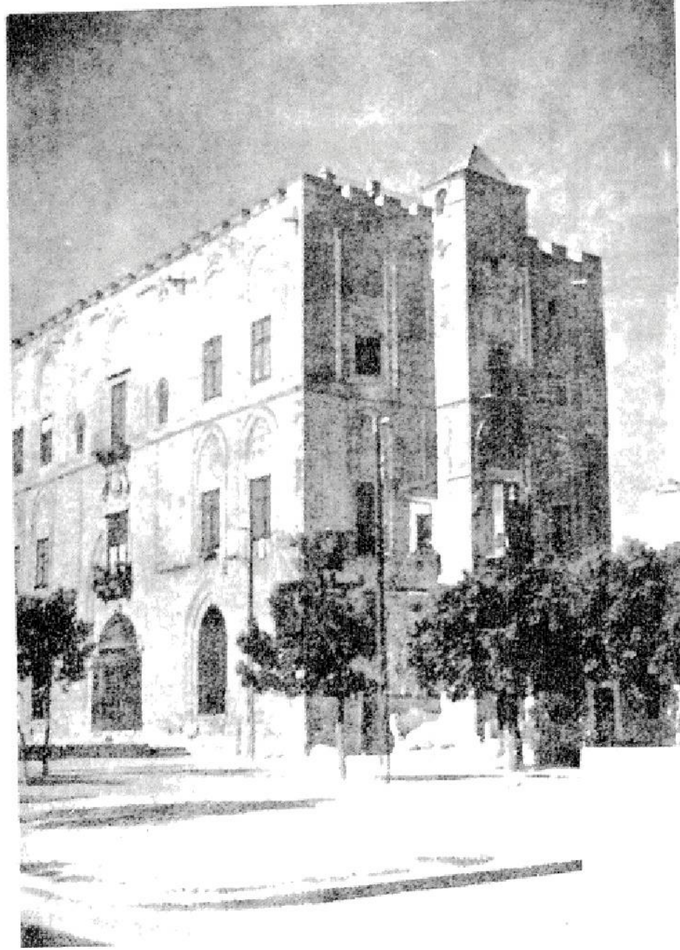
خريطة صقلية وجنوب ايطاليا



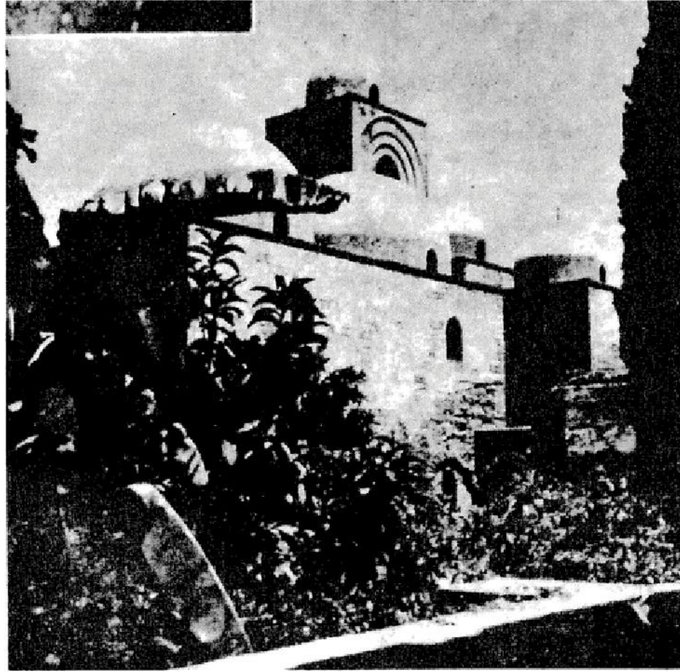
قصر الأمير جعفر في بالرمو



القبة الصغرى في بالرمو



قصر العزيزة في بالرمو



كنيسة القديس يوحنا في بالرمو على الطراز المعماري الاسلامي

القسم الثالث

العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في بلاد الشام

الله غالب

الفصل الأول

مقدمة في الحروب الصليبية وأسبابها

الله غالب

الفصل الأول

مقدمة في الحروب الصليبية وأسبابها

تعتبر بلاد الشام من أهم المناطق الاستراتيجية منذ فجر التاريخ، ومنذ قيام الحضارات القديمة، وقد حاولت الامبراطوريات القديمة السيطرة عليها تبعاً لأهميتها على مختلف الأصعدة، وكان الرأي متفقاً على أن من يحتل بلاد الشام باستطاعته احتلال مصر وأفريقيا ومناطق عديدة في المنطقة. واستمر هذا الواقع وتنازع القوى الخارجية على هذه البلاد، الى قيام الدولة الاسلامية العربية التي استطاعت القضاء على الدولتين الفارسية والبيزنطية. غير أن القضاء على الدولتين لم يكن يعني انتهاء الاطماع ببلاد الشام، بل استمر العالم الغربي يتطلع اليها محاولاً بين الفترة والفترة السيطرة عليها، إلى أن جاءت فترة الحروب الصليبية في العصور الوسطى وتحديداً منذ ما قبل وصول الحملة الصليبية الأولى الى بلاد الشام عام ١٠٩٨. ولعل البواعث التي أدت الى قيام الحروب الصليبية كثيرة ومتنوعة يمكن تلخيصها بما يلي [1]:

١ ـ **الباعث الديني**، ادّعت القوى السياسية في أوروبا بسوء أحوال المسيحيين في البلاد الاسلامية، وسوء معاملة المسلمين للحجاج المسيحيين، وكان ملوك أوروبا

---

(١) انظر: د. سعيد عاشور: العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ص ١٧ ـ ٣٣.
أرنست باركر: الحروب الصليبية، ص ١٤ ـ ٢٤. د. جوزف نسيم: دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ص ٧ ـ ٣٢.
Runciman, S; A History of the Crusades, vol.I, pp.104-113, 198-200.
وصفحات متفرقة...

وامراؤها قد أثاروا هذه الأمور ، غير أن البابا أوربان الثاني كان له الأثر الأكبر في اثارة روح التعصب ضد المسلمين ، والادعاء بضرورة انقاذ المسيحية من الاسلام في بلاد الشرق .

٢ ـ **الباعث الاقتصادي،** كانت أوروبا تعاني من سوء الأوضاع الاقتصادية ، كما تعاني من المجاعات لا سيما في فرنسا ، وكثرة الحروب بين الاقطاعيين ، مما أفرز الكثير من المعدمين والفقراء . أضف الى ذلك أن جمهرة من التجار الايطاليين لا سيما تجار البندقية وجنوى وبيزا ، كانوا يشجعون على قيام الحروب في الشرق لأهداف تتعلق بمصالحهم الاقتصادية والتجارية . وقد أكد هؤلاء التجار أن تشجيعهم لقيام الحروب لم يكن خدمة للصليب أو حرباً ضد المسلمين وانما لتحقيق مصالحهم الاقتصادية بوسائل عسكرية .

٣ ـ **الباعث الاجتماعي،** كانت طبقة رجال الدين وطبقة النبلاء ، والفرسان والمحاربين من الطبقات الأساسية والحاكمة في المجتمعات الأوروبية ، والتي كانت تستغل الطبقات الدنيا ومنها طبقة الفلاحين الذين كانوا يعيشون حياة ملؤها الشقاء والتعاسة في ظل الاستغلال الاقطاعي وفي مقابل التزامات الفلاحين الالزامية لرجال الاقطاع . وقد كان الفلاح مع الاقنان والعبيد (رقيق الأرض) يفضلون الحياة والاقامة في أية منطقة في العالم ، على الاقامة في ظل الشقاء والعبودية ، وقد رأت هذه الطبقات الدنيا في الدعوة للحملات الصليبية متنفساً لها للخلاص مما تحيا فيه من ذل وعبودية . كما تمّ تشجيع شذاذ الآفاق وقطاع الطرق على المشاركة في هذه الحروب لتتخلص أوروبا منهم ، في وقت طمعوا هم بالارتزاق والغنى في الشرق الثري الساحر .

٤ ـ **الباعث السياسي،** كانت الأوضاع السياسية التي يعيشها ملوك وأباطرة أوروبا تحتم عليهم الخضوع للفكر الديني المسيحي ومن الثابت أن فردريك بربروسا وريتشارد قلب الأسد وفيليب اغسطس وفريدريك الثاني لم يشتركوا في الحروب الصليبية إلا بضغط من البابوية باستثناء لويس التاسع ملك فرنسا المشهور بتعصبه

وتدينه وقناعته بمحاربة المسلمين. ثم أن بقية الأمراء كانت لهم أهدافاً سياسية من وراء اشتراكهم في هذه الحملات، تتلخص في سيطرتهم على الأراضي والاقطاعات التي حرم بعضهم من امتلاكها في الغرب. ومما يدل على ذلك الصراعات التي وقعت بين الأمراء أنفسهم بسبب الاقطاعات وامتلاكها في الشرق، كما دبّت الخلافات حول حكم الامارات والمدن.

وفي المقابل فإن بلاد الشام وأوضاع العالم الاسلامي، لم تكن قبيل هذه الفترة أوضاعاً طبيعية أو قوية، بل كانت الجبهات الاسلامية متناحرة ومفككة، فالدولة العباسية شهدت صراعات فارسية - تركية - عربية وأصبح الخلفاء العباسيون ألعوبة في أيدي الأتراك مما أدى الى اضطراب الأوضاع السياسية واشاعة الفتن وطمع العدو في البلاد. ومن ثم نشوء دويلات مستقلة في مراكش منذ ٧٨٨ - ٩٧٤ م، ودولة الأغالبة في تونس ٨٠٠ - ٩٠٩ م، ومن ثم الدولة الفاطمية ٩٠٩ - ٩٦٩ م. أما في مصر فقد قامت الدولة الطولونية ٨٦٨ - ٩٠٥ م، ثم قامت على انقاضها الدولة الأخشيدية ٩٣٥ - ٩٦٩ م. وفي أوائل القرن الحادي عشر الميلادي ظهرت قوة السلاجقة الذين وضعوا أيديهم منذ عام ١٠٣٧ م على بعض ممتلكات الدولة الغزنوية ثم أصبحوا أكبر قوة في الشرق الاسلامي لا سيما في الفترة الممتدة بين ١٠٥٥ - ١٠٩٢ م، حيث قاموا بتوحيد العالم الاسلامي تحت رايتهم، واستطاعوا انزال الهزائم بالدولة البيزنطية في أكثر من موقع وفي أكثر من منطقة حتى في داخل أراضي البيزنطيين مثل قبادوقيا وملطية وسيواس. غير أن عودة التفكك الى الدولة السلجوقية في الشرق والدولة الفاطمية في مصر؛ ومن ثم الصراع بين الدولتين السلجوقية والفاطمية من جهة والصراع بين الفاطميين والعباسيين من جهة أخرى كل ذلك أدى الى تحضير الأجواء المناسبة للقوى الصليبية للزحف نحو الشرق الاسلامي للسيطرة عليه.

ويصف المقدسي الشام بقوله: «اقليم الشام جليل الشان، ديار النبيين، ومركز الصالحين، ومعدن البدلا، ومطلب الفضلا، به القبلة الأولى، وموضع الحشر

والمسرى والأرض المقدسة، والرباطات الفاضلة والثغور الجليلة والجبال الشريفة ...»[1].

كما يصف لنا ابن حوقل بلاد الشام قبيل الحروب الصليبية بمناطقها ومدنها وأوضاعها فيقول: «وأما الشام فإن غربيّها بحر الروم، وشرقيّها البادية من ايلة إلى الفرات ثم من الفرات إلى حد الروم، وشماليها بلاد الروم وجنوبيها مصر وتيه بني اسرائيل، وآخر حدودها مما يلي مصر ورفح ومما يلي الروم الثغور المعروفة قديماً بثغور الجزيرة وهي: ملطية والحدث ومرعش والهارونية والكنيسة وعين زربة والمصيصة واذانة وطرسوس.. وكور الشأم فهي جند فلسطين وجند الاردن وجند دمشق وجند حمص وجند قنّسرين والعواصم والثغور ... وفلسطين أزكى بلدان الشام ربوعاً ومدينتها العظمى الرملة وبيت المقدس تليها في الكبر ... وبيت المقدس مسجد ليس في الإسلام مسجد أكبر منه.. وكانت مدينة ملطية مدينة كبيرة من أجلّ الثغور وأشهرها وأكثرها سلاحاً.. وهي من أقوى بلد للروم في هذا الوقت، يسكنها الأرمن وفتحت في سنة تسع عشرة وثلاثمائة [٩٣١ م]، فكانت أول مصيبة دخلت على الاسلام من جهة الثغور.. وكانت الحدث ومرعش مدينتين صغيرتين افتتحها الروم قبل هذا الحين وأعادهما سيف الدولة علي بن عبد الله، وعاد الروم فانتزعوهما ثانياً من المسلمين، وعاد المسلمون ففتحوهما وكان فتحها مسعود ابن قلج أرسلان السلجوقي صاحب بلاد الروم سنة خمس وأربعين وخمسماية وهي بيد المسلمين الآن...»[2] وبعد أن عدّد ابن حوقل مناطق شامية عديدة قال:

---

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، ص ١٥١. ومما يلاحظ ما أورده المقدسي بأن بيروت وبعض المدن الداخلة اليوم في نطاق لبنان وإنما كانت تابعة تحديداً لعقبة دمشق. وقد ذكر ذلك في أكثر من موقع. ومنها قوله في ص ١٥٤: «... وأما دمشق فاسم العقبة أيضاً ومدنها بانياس. صيدا، بيروت، أطرابلس، عرقة، وناحية البقاع مدينتها بعلبك، ولها كامد عرجموش، الزبداني...».

(٢) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ١٥٣ ـ ١٧٣. انظر أيضاً المقدسي، المصدر السابق، ص ١٥٣ ـ ١٧٩.

« . . والباقي من الشام في أيدي المسلمين وحكمهم فيه نافذ وأمرهم فيه ماض، فهو ما كان على ساحل بحر الروم من حد طرابلس وأنفه الى نواحي يافا وعسقلان، لأن اللاذقية وما نزل عنها وحاذاها تحت جزيتهم ومقاطعتهم. وما عدا ذلك فللروم وقبضتهم وحوزتهم قد استولت عليهم أسيافهم والحكم فيه اليهم. وقد أقام كثير من أهلها فيما رضوا منهم فيه بالجزية، وأظنهم بآخرة صائرين إلى النصرانية آنفة من ذلة الجزية ورغبة مع حذق المؤونة في العز والراحة. فأما تقدير ما بقي منها لم أذكره، فمذ سنون كثيرة لم يقع لها قانون صحيح ولا استخراج على طريقته وصحته، وذلك أنها مذ سنة أربعين بين قوم يتطاول أحدهم على الآخر وأكثرهم غرضه ما احتلبه في يومه وحصّله لوقته لا يرغب في عمارة ولا يلتفت اليها برؤية ولا اشارة... »[1].

وبشيء من المقارنة الموجزة يمكن التعرف الى الأوضاع التي كانت سائدة في الغرب والشرق قبيل الحروب الصليبية. وهكذا بدأت الحملات الصليبية ابتداء من الحملة الصليبية الأولى التي وصلت الى بلاد الشام عام ١٠٩٨ م، وكان عددها الاجمالي ثماني حملات أساسية بالإضافة إلى حملات فرعية حملت مجموعات من الغربيين الى الشرق. فالحملات الأولى والثانية والثالثة والسادسة اتجهت الى بلاد الشام، بينما اتجهت اثنتان الى مصر وهما الخامسة والسابعة، في حين اتجهت الحملة الرابعة إلى القسطنطينية، بينما اتجهت الثامنة إلى أفريقيا، وقد استمرت هذه الحملات من الناحية العسكرية الى حين سقوط مدينة عكا في فلسطين عام ١٢٩١ م، بالرغم من أن هذا التاريخ لا يعني انتهاء حاسماً للحركة الصليبية.

ولقد بدأت الحروب الصليبية ـ او بالأحرى تجددت ـ عندما دعا البابا أوربان الثاني سنة ١٠٩٥ في مجمع كليرمونت للقيام بحملة على الشرق الاسلامي، وقد عرفت هذه الحملة في التاريخ باسم الحملة الصليبية الأولى. وقد نشط البابا مع ملوك أوروبا لتنفيذ هذه الحملة بدعوى تخليص المسيحيين والحجاج من اضطهاد

---

(١) ابن حوقل، المصدر السابق، ص ١٧٢.

الأتراك السلاجقة ، والعمل على طرد المسلمين من آسيا بالجهد والعزيمة نفسها التي يجري بها طردهم من اسبانيا ، لا سيا بعد اتفاق البابا مع الامبراطور البيزنطي الكسيوس كوفين ، وبعد موافقة ادهمار ـ أسقف بوي Puy ـ الذي أصبح المندوب البابوي في الحملة الأولى . كما وافق على مشروع الحملة الصليبية ريموند الرابع أمير تولوز وبروفانس (١٠٨٨ ـ ١١٠٥) . وكرّس بطرس الناسك نفسه للدعوة لهذه الحملة بين الطبقة العامة ، وكان أحد أوائل متقدمي الحملة باتجاه الشرق بعد أن استطاع تجميع الكثير من المسيحيين واقناعهم بضرورة المشاركة بالحرب ضد المسلمين .

في عام ١٠٩٦ ، وبعد وصول طلائع الحملة الى البوسفور ، قرّر قادتها الزحف على نيقية قاعدة السلطان قلج ارسلان . وكان عدد أفراد الحملة ما يقارب خمسة وعشرين ألفاً ، ولكن استطاع السلاجقة مباغتتهم والقضاء عليهم . ومن بقي منهم على قيد الحياة عادوا الى القسطنطينية وظلوا تحت رعاية الامبراطور الكسيوس حتى وصول حملة الأمراء .

وفي نيسان (ابريل) ١٠٩٦ تجمع في حوض الراين جمع كبير من الصليبيين الألمان قدر عددهم بأكثر من عشرة آلاف مقاتل تحت قيادة فولكمار (Volkmar) . وفي الوقت نفسه تجمعت قوى أخرى في حوض الراين بزعامة الأمير إميخ (Emich) . وكانت المجموعة الأولى من حملة الأمراء برئاسة « جودفري اف بوايون » (Godfrey of Bouillon) أمير لوثرنجيا وبرفقته شقيقه بلدوين البولوني ، وفي الوقت نفسه اتجه الى الشرق « بوهيموند النورماني » (Bohemond) على رأس حملة نورمانية كبرى وبصحبته ابن أخته تنكرد وغيره من أمراء النورمان في جنوب ايطاليا وصقلية . كما وفدت مجموعة بروفانسية بقيادة ريموند الرابع ، ومجموعة صليبية أخرى تألفت من الفرنسيين تحت زعامة روبرت أميرنورمنديا . ابن وليم الفاتح [١] .

---

(١) للمزيد من التفصيلات انظر : د . سعيد عاشور : العلاقات بين الشرق والغرب في العصور =

تجمعت قوات الحملة الصليبية كلها على الشاطىء الآسيوي قرب أزمير، وتم لاتفاق على بدء الهجوم على مدينة نيقية القاعدة الأساسية لقلج ارسلان ومقر حكمه في أواخر نيسان (ابريل) سنة ١٠٩٧. وبالفعل ففي ٦ أيار (مايو) ١٠٩٧ أدرك الصليبيون نيقية، وبدأوا بمحاصرتها ومهاجمتها ومن ثم انتصروا على قلج ارسلان وحاميته. وكان سقوط نيقية مشجعاً للصليبيين للتقدم نحو ضورليوم حيث جرت فيها معركة في أول تموز (يوليو) ١٠٩٧ كانت نتيجتها أيضاً لمصلحة الصليبيين ضد الأتراك (السلاجقة وبنو دانشمند).

بدأ الصليبيون زحفهم تباعاً، بالاستلاء على المناطق التي كانوا يمرون فيها مثل هرقلة وقيصرية. وبلاكنتيا والرها وبعض المناطق الأرمنية وفي مقدمتها مرعش. ومنها توجهوا الى بلاد الشام، ووصلوا جسر الحديد على نهر العاصي في ٢٠ تشرين الأول (أكتوبر) ١٠٩٧. والأمر اللافت للنظر هو أن بعض القيادات الاسلامية لم تدرك تماماً طبيعة وخطورة الحركة الصليبية على مصير المنطقة، بحيث أن الفاطميين في مصر لم يتورعوا عن التحالف مع الصليبيين ضد خصومهم العباسيين في بغداد والأتراك السلاجقة في الشام، على قاعدة أن تكون انطاكية للصليبيين ويكون بيت المقدس للفاطميين. ولم يعلم الخليفة الفاطمي المستعلي (١٠٩٤ - ١١٠١) ووزيره الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي، بأن انطاكية لم تكن الهدف الحقيقي للصليبيين، بينما كان بيت المقدس أحد أهم توجهاتهم.

وفي العام ١٠٩٨ جرت معارك عسكرية كثيرة بين الصليبيين والأتراك، توجت باعلان امارة انطاكية امارة صليبية. وفي ٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٠٩٨ عقد الصليبيون اجتماعاً في كنيسة القديس بطرس، وأجمعوا على قرار بضرورة استئناف الزحف نحو بيت المقدس. وبالفعل ففي ١٣ كانون الثاني (يناير)

= الوسطى، ص ٨٢ - ١١٣.

Runciman, Op.cit.; vol.I, pp.101-102, 108-109; Grousset; Histoire des croisades et de Royaume France de Jerusalem, vol.I, p.4. Foucher de chartres: Histoire occid. T3, pp.331-332.

١٠٩٩ خرج ريموند من معرة النعمان على رأس جيوشه معلناً الزحف نحو الأراضي المقدسة. وتحركت الحملة الصليبية بعد أن ظلت خمسة عشر شهراً في شمال الشام من تشرين الأول (أكتوبر) ١٠٩٧ لغاية كانون الأول (ديسمبر) ١٠٩٨ [١].

وبعد السيطرة على مدن الشام، اتجه الصليبيون نحو البقاع فسيطروا عليه، كما سيطروا على حصن الأكراد، وعرقة شمالي طرابلس وطرطوس. ثم سيطروا على طرابلس ذاتها وعلى بيروت وصيدا وصور وقيسارية والرملة واللد. وفي ٦ حزيران (يونيه) سنة ١٠٩٩ زحف الصليبيون مباشرة نحو بيت المقدس، بعد صدمة تلقاها الفاطميون من فشلهم في اقناع الصليبيين بالتحالف معهم دون انتزاع بيت المقدس منهم. وبعد ما يقارب الأربعين يوماً - بين ٧ حزيران (يونيه) ١٠٩٩ - ١٤ تموز (يوليو) ١٠٩٩ - وبعد ارتكاب مجزرة رهيبة داخل المسجد الأقصى، استطاع الصليبيون الاستيلاء على القدس الشريف واخضاعه لهم مباشرة.

بعد سقوط بيت المقدس قام الصليبيون باحتلال نابلس وعسقلان والجليل وطبريا [٢]. وكان من الطبيعي أن تكون الخطوة التالية للعمل الحربي الصليبي هي العمل الاداري. لهذا عقد الصليبيون اجتماعات عديدة في بيت المقدس للنظر في تنظيم الدولة التي أقاموها في الشرق الأدنى وبعد منازعات وقع اختيارهم على الدوق الفرنسي «جودفري أف بوايون» (Godfrey of Bouillon) ليكون ملكاً على بيت المقدس ثم عندما مات هذا الملك إثر اصابته بسهم أمام أسوار عكا سنة ١١٠٠م اختار الصليبيون أخاه «بلدوين» الأول ليحل محله ولقب بالملك،

---

(١) انظر: د. سعيد عاشور: العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ص ١٧٧.

(٢) للمزيد من التفصيلات حول العلاقات الحربية بين المسلمين والصليبيين يمكن العودة الى بعض المصادر القديمة ومنها: أبو شامة: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، جـ ١، جـ ٢. وكتاب ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين) وكتاب: الاصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي وسواها من المصادر الأخرى.

وصارت دولة بيت المقدس تعرف بمملكة بيت المقدس أو المملكة اللاتينية ولقد حول الصليبيون جميع مساجد القدس الى كنائس وخاصة مسجد قبة الصخرة الذي كان عبد الملك بن مروان قد بناه على انقاض مسجد عمر بن الخطاب ولقد أقام (فرسان تامبلا) « فرسان الداوية » (Temples) في المسجد الأقصى بعد أن حولوه الى كنيسة وأطلقوا عليه اسم معبد سليمان. ومن ثم عرف هؤلاء باسم فرسان المعبد أما تسميتهم بالداوية فهي كلمة سريانية تعني الفقراء. أما عن الوسائل الدفاعية الخاصة بتنظيم الدفاع عن « مملكة بيت للقدس » فقد طبق فيها نظام الاقطاع الحربي السائد في العصور الوسطى الذي يقوم على استثمار الأراضي في مقابل الدفاع عن البلاد والاشتراك في جيوش الدولة. والى جانب هذا النظام الاقطاعي كان يوجد جيش يتقاضى عناصره رواتب مالية. ومن بين التنظيمات العسكرية الأخرى في مملكة بيت المقدس الأنظمة العسكرية القائمة على أسس دينية، وقد قامت على اكتاف جماعة الفرسان الداوية والاسبتارية وهم من الجنود الرهبان الفقراء الذين نذروا أنفسهم وأرواحهم لخدمة الدين والدفاع عن الأراضي المقدسة. أما المناطق الساحلية فقد كان الدفاع عنها في أيدي الجاليات الايطالية مثل أهالي البندقية وجنوى وبيزا وكان لديها من الأساطيل والمعدات الحربية ما يمكنها من الدفاع عن هذه المناطق حرصاً على مناطقها التجارية وبالإضافة الى ذلك فقد اهتم الصليبيون ببناء الحصون حول بيت المقدس والامارات الصليبية الأخرى وأهمها الحصون الواقعة عبر الاردن حيث تمر طريق القوافل والحج بين مصر والشام والحجاز ومن أشهر هذه الحصون حصن الكرك في جنوب فلسطين ويتبعه ميناء ايلات في العقبة ويمكن القول بأن انتصار الصليبيين على المسلمين أدى الى إقامة عدد من الامارات والممالك الصليبية ومنها: امارة الرها على الفرات وامارة انطاكية في شمالي الشام وامارة طرابلس على البحر المتوسط ثم كان أقواها مملكة بيت المقدس.

والحقيقة فإن وجود هذه الممالك أدى الى اثارة الوعي واليقظة الاسلامية للعمل على التخلص من العناصر التي جاءت من الخارج للسيطرة على المناطق العربية

والاسلامية وقد تيسر للمسلمين بعد هذه الفترة رجال عملوا على القضاء على المخطط الصليبي وبين هؤلاء عماد الدين زنكي ونور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي [١].

أما فيما يختص بعماد الدين زنكي الذي حكم من ١١٢٧ حتى ١١٤٦ م فهو من مشاهير الأمراء الأتراك سلمه السلطان محمود السلجوقي أتابكية امارة الموصل وحلب سنة ١١٢٧ م. وكانت شهرته قد تزايدت منذ العام ٥٠٦ هـ ـ ١١١٢ م، حين اشترك في الهجوم على طبرية [٢]. ومعنى ذلك مجاورته لأمارتي الرها وانطاكيا الصليبيتين، ورأى عماد الدين زنكي ضرورة القضاء على امارة الرها خاصة لأنها تحول دون الاتصال بين امارتي الموصل وحلب ومن أجل ذلك بدأ بتقوية جيشه وحصونه وجواسيسه وقد استغل عماد الدين زنكي أيضاً الخلاف الواقع بين أمير الرها (جوسلين) وبين أمير انطاكية (بوهمند) أو ريموند فبدأ بشن الغارات عليها فاستطاع أن يستنزف قوة الجيش في امارة الرها مما اضطر أمير الرها وجنودها الى مغادرة امارتهم وبالتالي تمّ استيلاء عماد الدين الزنكي عليها سنة ١١٤٤ م، ولقد أثار هذا الانتصار الإسلامي على الصليبيين وجهاً من الحماس بين المسلمين فأقبلوا على الجهاد [٣]. غير أن عماد الدين زنكي لم يعش طويلاً بعد استيلائه على امارة الرها، فقد اغتيل أثناء نومه بيد بعض غلمانه سنة ٥٤١ هـ ـ ١١٤٦ م، وخلفه على حكم امارة حلب ابنه الملك العادل نور الدين محمود زنكي أما حكم منطقتي الموصل والرها فقد آلت لابنه البكر سيف الدين غازي بن زنكي.

وكان نور الدين محمود ١١٤٦ ـ ١١٧٤ م، ٥٤٠ هـ ـ ٥٦٩ هـ قد حكم في

---

(١) Lane-Poole; Saladine... p.34.

(٢) Lane-Poole; Ibid, p.35.

(٣) للمزيد من التفصيلات عن نشاط عماد الدين زنكي انظر: Lane-Poole; Op. Cit; pp.42-49, 55-57.

حلب بإمكانيات ضعيفة لهذا رأى ضرورة التسامح مع المذاهب الإسلامية كلها، وقد ساعده ذلك على تهيئة المسلمين للجهاد ضد الصليبيين ولم يستطع نور الدين في بادىء الأمر القيام بأي عمل حربي ضد إمارة أنطاكية القريبة منه، وقد فضل البقاء في إطار مملكته الصغيرة والدفاع عنها ضد الخطر الصليبي الجديد الذي ظهر في الأفق في إطار الحملة الصليبية الثانية التي كان سببها استرداد إمارة الرها التي سبق أن استولى عليها عماد الدين زنكي والد نور الدين.

الحملة الصليبية الثانية[1] ٥٥٢ هـ - ١١٤٨ م. من أهم الشخصيات التي اشتركت بالحملة الصليبية الثانية الامبراطور الألماني كورات الثالث وملك فرنسا، لويس السابع، غير أن هذه الحملة فشلت فشلاً ذريعاً فقد تمكن الأتراك السلاجقة في آسيا الصغرى من صدها والانتصار عليها واضطر الملكان الالماني والفرنسي إلى اتخاذ طريق البحر إلى إمارة أنطاكية الصليبية وعوضاً من أن يهاجم الصليبيون ممتلكات نور الدين وشقيقه سيف الدين لاستعادة الرها إذا بهم يستجلبون اقتراح بيت المقدس بمهاجمة دمشق لأنها قريبة من المدينة المقدسة ولأنها تشكل خطراً على الصليبيين. وبالفعل فقد اتجه الملكان إليها وحاصراها بواسطة بعض ما لديهما من جيوش ومعدات في عام ١١٤٨ م، غير أن الجيش في دمشق استطاع المقاومة وإفشال حصار المدينة، الأمر الذي اضطر الملكين الالماني والفرنسي إلى الإنسحاب والسفر إلى بلديهما وكان فشل الحملة الصليبية الثانية قد ضاعف ايضاً من حماس المسلمين فاستغل السلطان نور الدين محمود هذه الروح الإسلامية فهاجم إمارة انطاكية وانتصر على اميرها بوهمند واستولى على جميع المواكز الصليبية الواقعة بين حلب وأنطاكية وبالرغم من أن نور الدين لم يستطع دخول انطاكية غير أنه بهذه الانتصارات جعل أميرها مشلول الحركة داخل مدينته لا يستطيع القيام بأي عمل هجومي، وأخذ نور الدين يعمل على توحيد الإمارات الإسلامية وقد ساعد على ذلك وفاة شقيقه سيف الدين غازي ملك

---

(١) عن جميع هذه الحملات الصليبية: انظر: أرنست باركر: الحروب الصليبية، ص ٢٥ - ١١٩.

الموصل والأمير معين الدين صاحب دمشق معاً، وفي سنة واحدة في سنة ١١٤٩ م وقد أتيحت له الفرصة لضم الموصل ودمشق الى مملكته، وكان معنى ذلك قيام دولة إسلامية متحدة تمتد من الموصل وحلب شمالاً الى دمشق جنوباً، وكان قيامها نوعاً من التوازن بين الدولة الإسلامية والدولة المسيحية في الشرق العربي.

وفي هذه الأثناء حدث نوع من التسابق بين نور الدين وبين الصليبيين لاحتلال مصر نظراً لأهميتها وموقعها الهام بالنسبة الى بيت المقدس والى بلاد الشام معاً وقد حدثت معارك بين الصليبيين والمسلمين من أجل السيطرة على مصر انتهت هذه المعارك باتفاق على الإنسحاب سوياً من مصر، غير أن هذه المعارك لم تلبث أن عادت وتكررت وانتهى الأمر الى احتلال جيوش نور الدين زنكي لمصر وانسحاب الصليبيين منها وكان انتصار المسلمين وضمهم مصر بمثابة عامل هام لتوحيد الجبهة الإسلامية، فقد أصبحت المملكة الصليبية ولأول مرة بعد وجودها تواجه وحدة مصرية شامية. ومن الشخصيات التي قامت بدور بارز في بعث الحركة التوحيدية الإسلامية شخصية الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي، وهو من أصل كردي والده نجم الدين أيوب قائد قلعة تكريت شمالي بغداد وكان صلاح الدين قد خلف عمه في وزارة مصر وفي قيادة جيش نور الدين فيها[1]. وواجهت صلاح الدين بعض الصعوبات في مصر من جانب بعض المصريين الذين رفضوا السيطرة الشامية ومن جانب الصليبيين الذين كانوا يطمعون في احتلال مصر ثم من جانب نور الدين نفسه الذي كان يخشى أن يستقل صلاح الدين بحكم مصر ولكن صلاح

---

(١) للمزيد من التفصيلات عن حياته انظر: المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ ١، ص ٤١ - ٤٤. وقد انتشر في دمشق أقوال مأثورة عن صلاح الدين منذ عهد الملك نور الدين وتلك الاقوال هي: «الناصر للصليب كاسر، وللفرنج خاسر، وللقدس طاهر، من كل رجس فاجر، الظاهر بالله ظاهر، قاتل كل كافر، وللتتار قاهر، من كل فاجر وعاهر، الناصر النور الباصر، بالشرق ظافر، يطيها بالخف والحافر، بعد ثلاث تواتر». وقد ورد ذلك في الدواداري: كنز الدرر وجامع الغرر، جـ ٨، ص ٢٧٥.

الدين استطاع بفضل حكمته ومساعدة والده نجم الدين أيوب وأخوته أن يتغلب على الكثير من الصعاب، وقد ساعده أيضا وفاة الملك العادل نور الدين سنة ١١٧٤ م تاركاً وراءه ابنه اسماعيل الذي كان في الحادية عشرة من عمره، وكذلك توفي في السنة نفسها ملك المملكة اللاتينية في فلسطين الذي ترك بدوره أبناً مريضاً وعاجزاً لم يبلغ سن الرشد بعد وهو بودوان الرابع الملقب بالأبرص وكانت فرصة لصلاح الدين أن يخطط لمستقبل العلاقات العسكرية مع الصليبيين على النحو التالي:

١ ـ فترة الاستعداد وتوحيد المشرق العربي.
٢ ـ العمل على استرداد بيت المقدس ومحاولة الانتصارات على الصليبيين.
٣ ـ العمل على مواجهة ملوك غربي أوروبا لا سيما في حملتهم الثالثة.

الفترة الأولى:

وهي فترة الاستعداد امتدت نحو ١٥ سنة «٥٦٧ ـ ٥٨٢ هـ» وقد استطاع صلاح الدين خلال هذه الفترة أن يسيطر على بلاد النوبة واليمن الجنوبي وعلى بلاد الشام والجزيرة وأن يكون جبهة إسلامية موحدة أحاطت بالمملكة الصليبية في فلسطين من كل جانب وفي هذه الفترة أيضاً اهتم صلاح الدين بتقوية الجيش والاسطول وتحصين الثغور، ولم يأت عام ٥٨٢ هـ ـ ١١٨٦ م إلا وكان قد تمكن من تحقيق الوحدة التي كان ينشدها.

الفترة الثانية:

وتمثلت الفترة الثانية بعد عملية الوحدة بالقيام بهجوم إسلامي على مملكة الصليبيين عام ٥٨٣ هـ ـ ١١٨٧ م وكان صلاح الدين قد اتخذ من ممارسات بعض الأمراء الصليبيين الاستفزازية سبباً مباشراً لهجماته مثل: ممارسات أحد فرسان مملكة بيت المقدس المعروف باسم رينو دى شاتيو. وفي أواخر عام ١١٨٦ م قام صلاح الدين بهجمات على بعض المناطق الصليبية التي كانت تتعرض

للقوافل الإسلامية والتي كانت تسافر من مصر الى بلاد الشام[1]. وفيما بعد هاجم مدينة طبريا مما أثار حفيظة الصليبيين فتداعوا لمجلس حربي عقد في عكا قرروا فيه الزحف الى طبريا. وبالفعل فقد بدأ الصليبيون بالهجوم بينما حرص صلاح الدين على أن يعزل الصليبيين في تل صخري قاحل لا توجد فيه المياه وهو تل حطين[2]. ولما ابتدأ القتال بين الجانبين تبين بأن موقف المسلمين كان أقوى من موقف الصليبيين الذين حوصروا في هذا التل وانتهت المعركة بانتصار المسلمين واستسلام الصليبيين وفرار زعيمهم ريموند الثالث. وعلّق المؤرخ ابن الأثير المعاصر لتلك الفترة على موقعة حطين بالقول: « كل من يرى القتلى يحسب أن ليس هناك أسرى، ومن يرى الأسرى يحسب أن ليس هناك قتلى ». فيما أشار المقريزي، بأخذ المسلمين صليب الصلبوت « وأسروا الابرنس ارناط صاحب الكرك والشوبك وعدة ملوك آخرين، وقتل وأسر من سائر الفرنج ما لا يعد كثرة. ثم قدم الابرنس ارناط وضرب السلطان عنقه بيده، وقتل جميع من عنده من الفرنج الداوية والاسبتارية... »[3].

وبعد هذه الموقعة بدأ صلاح الدين يسيطر على المدن الصليبية التي عاملها معاملة حسنة، وقد استولى على عكا ويافا وحيفا وصيدا وبيروت وجبيل وعسقلان وغزة. وبذلك تهيأ له اتصال بحري سريع وسهل بين قسمي دولته أي بين الشام ومصر[4]. ولم تستعص عليه سوى صور بسبب موقعها الجغرافي، ثم اتجه صلاح الدين الى الداخل لمحاصرة مدينة القدس فاضطرت الى التسليم يوم الجمعة ليلة الإسراء في ١٧ رجب سنة ٥٨٣ هـ[5]، ١١٨٧ م وكانت الشروط التي

---

(١) انظر: Grousset; Histoire des Croisades, II, p.116.

(٢) انظر د. الباز العريني: الشرق الأدنى في العصور الوسطى، جـ ١ (الايوبيون)، ص ٧٦ ـ ٩٠.

(٣) المقريزي: السلوك، جـ ١، ص ٩٣.

(٤) Stevenson; The Crusaders in the East, p.249.

(٥) انظر المقريزي، المصدر السابق، جـ ١، ص ٩٦.

فرضها صلاح الدين على المدينة في غاية التسامح والكرم، مما دعا بعض المؤرخين الصليبيين المعاصرين للقول: لم تتجلّ عظمة صلاح الدين مثلما تجلت عند تسليم المدينة الخالدة، فقد سمح لمن يحب أن يغادر المدينة حاملاً أمتعته وأمواله، أما النصارى الشرقيون فقد اعتبروا من أهل البلاد وعوملوا معاملة المواطنين. كما أن صلاح الدين لم يحاول أن يهدم الكنائس، بل تركها وكان على رأسها كنيسة القيامة، واكتفى بإعادة المساجد التي حولت إلى كنائس لا سيما المسجد الأقصى، ولقد واصل صلاح الدين فتوحاته فاسترد بقية المدن الشامية باستثناء انطاكية وطرابلس وصور، وقد عبّر صلاح الدين عن هذا النصر بقوله في رسالة الى أخيه توران شاه باليمن: «إن بلاد الشام لا تسمع فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قيلا سلاماً سلاماً».

الفترة الثالثة:

كان لانتصارات صلاح الدين الأيوبي ردود فعل خطيرة في غرب أوروبا الأمر الذي دعا البابوية والملوك والأمراء للدعوة للقيام بحملة صليبية ثالثة، وقد لبى الدعوة ثلاثة من كبار ملوك غربي أوروبا هم:

١ ـ فريدريك برجروسا امبراطور المانية.
٢ ـ رتشارد قلب الأسد ملك انكلترا.
٣ ـ فيليب اغسطس أو الثاني ملك فرنسا.

وقد دامت هذه الحملة الصليبية بالمشرق ثلاث سنوات (١١٨٩ ـ ١١٩٢ م) وكان الأمبراطور فريدريك ملك المانيا أول من اتجه الى بلاد الشام ولكن عندما اقترب من هذه المنطقة انتشر الطاعون بجيشه وفتك بجنوده، ثم لم يلبث الامبراطور نفسه أن غرق في نهر بالقرب من انطاكية. وعلى أثر ذلك اضطر اتباعه الى العودة الى بلادهم. أما فيليب الثاني ورتشارد قلب الأسد فقد وصلا الى الشام عن طريق البحر في وقت واحد تقريباً وبدآ بمحاصرة مدينة عكا براً وبحراً وركزا في هذا الحصار جميع قواتها وقد حاول صلاح الدين إنقاذ هذه المدينة ولكنه لم

ينجح ، فاستسلمت المدينة في عام ٥٨٧ هـ - ١١٩١ م بعد حصار دام سنتين تقريباً ، ومنذ ذلك الوقت أصبحت مدينة عكا أهم قاعدة للصليبيين في بلاد الشام ، وبعد سقوط عكا دب الخلاف بين فيليب الثاني وبين رتشارد قلب الأسد ، الذي حاول استرجاع بيت المقدس ولكنه فشل في محاولته امام قوات صلاح الدين ، غير أن قلب الأسد استطاع السيطرة على بعض المدن الساحلية الجنوبية من عكا إلى يافا ونظراً للخلافات الداخلية في انكلترا اضطر ريتشارد للعودة اليها بعد أن عرض الصلح على صلاح الدين عرف بصلح الرملة في شعبان ٥٨٨ هـ - ايلول ١١٩٢ م ومن أهم شروطه :

١ - احتفاظ الصليبيين بالمدن الساحلية من عكا الى يافا .
٢ - أن تكون منطقة مدينة عسقلان منطقة حيادية وأن لا يستكمل تحصينها من جديد من قبل الصليبيين .
٣ - تبقى مدينة بيت المقدس تحت الحكم الإسلامي على أن يسمح للحجاج المسيحيين بالحج إليها .
٤ - يسيطر المسلمون على منطقة ساحلية على البحر المتوسط تشمل صيدا - بيروت .

وفي شهر تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١١٩٢ رحل رتشارد الى بلاده وانتهت بذلك الحملة الصليبية الثالثة التي اعتبرها البابا حملة فاشلة لأنها لم تحقق الغرض الذي قامت من أجله وهو استعادة بيت المقدس ، غير أن صلح الرملة أقر لأول مرة مبدأ التعايش السلمي بين المسلمين والصليبيين ولكن لا يعني ذلك بأن الحملات الصليبية توقفت على أراضي المسلمين إنما استمرت بين الفترة والفترة .

الحملة الصليبية الرابعة : كان من المقرر أن تتجه الى مصر ولكنها اتجهت نحو القسطنطينية عام ١٢٠٤ م للانتقام من ملكها الاكسيوس الثالث .

أما الحملة الصليبية الخامسة :[1] فهي الحملة التي قام بها الملك السابق لبيت

---

(١) انظر : = Grousset; Histoire des Croisades, III, p.211...

المقدس على دمياط عام ١٢١٨ م بغية احتلال مصر وحرمان الجبهة الإسلامية من تلك القاعدة العسكرية الهامة. غير أن هذه الحملة انتهت بالفشل بعد مقاومة السلطان الكامل ناصر الدين محمد[١].

أما الحملة الصليبية السادسة: فهي الحملة التي خرج بها الأمبراطور فريدريك الثاني من صقلية الى فلسطين عام ٦١٨هـ -١٢٢١ م في عهد السلطان الكامل محمد.

أما الحملة الصليبية السابعة: فهي الحملة التي قادها ملك فرنسا لويس التاسع على مصر سنة ١٢٤٨ م.

استمر الصراع بين المسلمين والصليبيين في بلاد الشام في عهد دولة المماليك أيضاً لا سيما في عهود الظاهر بيبرس والسلطان قلاوون وأبنيه الأشرف خليل والناصر محمد، وبعد سقوط عكا آخر معقل صليبي في بلاد الشام عام ١٢٩١ م، انتقل الصراع بين المسلمين والصليبيين إلى جزر البحر الأبيض المتوسط وعلى رأسها جزيرة قبرص التي صارت مركزاً للعدوان الصليبي على سواحل المسلمين وتجارتهم في مصر والشام، وانتهى الصراع بين المسلمين والصليبيين باحتلال المسلمين لجزيرة قبرص في عهد السلطان الأشرف برسباي عام ١٤٢٦ م، ويرى بعض المؤرخين أن الحروب الصليبية لم تنته بسقوط دولة المماليك في مصر والشام بل استمرت هذه الحروب بين الصليبيين والأتراك العثمانيين[٢].

والحقيقة فإننا لسنا هنا بصدد الحديث عن الحملات الصليبية، بقدر ما يهمنا

= وهناك دراسة قيّمة متخصصة عن هذه الحملة للدكتور سعيد محمود عمران تحت عنوان: الحملة الصليبية الخامسة (حملة جان دى برين على مصر ١٢١٨ - ١٢٢١ م، ٦١٥ - ٦١٨ هـ).

(١) للمزيد من التفصيلات العسكرية انظر: المقريزي: السلوك، جـ ١، ص ١٩٤ - ٢٠٩.

(٢) في عام ١٩١٨ وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى بانتصار الحلفاء على الدولة العثمانية وحلفائها، دخل الجنرال غورو الى دمشق ووقف على قبر السلطان صلاح الدين الأيوبي وقال: ها قد جئناك صلاح الدين. اليوم انتهت الحروب الصليبية!.

من هذه الدراسة التوصل إلى النتائج الحضارية، ودراسة العلاقات التي كانت قائمة بين الغربيين المسيحيين وبين الشرقيين من المسلمين والمسيحيين معاً.

وقد كانت العلاقات الحضارية والتمازج الثقافي والعلمي بين الإسلام والنصرانية في اسبانيا وصقلية اكثر أهمية وعمقاً مما كانت عليه في بلاد الشام، ومن أسباب ذلك أن اسبانيا وصقلية شهدت نشوء حواضر ومراكز علمية وحضارية أكثر مما شهدته بلاد الشام، ثم أن المملكة اللاتينية في القدس لم تكن مركزاً علمياً للمعارف والعلوم الإسلامية. وبالرغم من ذلك فقد شهدت بلاد الشام مؤثرات وعلاقات متبادلة بين المسيحيين والمسلمين وبين الحضارتين الغربية والعربية[1]، خاصة وأن العلاقات بين الجانبين لم تكن كلها علاقات حربية مستمرة، بل قامت بينها علاقات من الود والصداقة والتأثيرات المتبادلة، لأن إقامة الصليبيين في المنطقة لمدة مئتي سنة لا بد من أن يؤدي الى نوع من التمازج البشري والفكري والعلمي والاقتصادي والإجتماعي والمعماري والطبي وسوى ذلك من المؤثرات الحياتية. ومما ساعد على توثيق العلاقات بين الجانبين أن المستعمرات الصليبية كانت قائمة وسط إمارات إسلامية في بلاد الشام مثال: حلب وحمص وحماه ودمشق. وقد سهل ذلك اتصال الصليبيين بالمسلمين والقدرة على فهمهم عن كثب ودراية ومحو الصورة غير الصحيحة التي أخذوها عن المسلمين قبل مجيئهم الى المنطقة[2]. وبذلك يقول ارنست باركر (Ernest Barker) انه ينبغي ان ننظر إلى الحروب الصليبية على أنها فصل من فصول تاريخ المدنية في الغرب، لا على انها توسع وامتداد للسيطرة والديانة الغربية في الشرق. وأضاف بأن الغرب اتصل بالشرق، أو بالأحرى اتصل بشيء يخالفه ويغايره، غير انه في احوال كثيرة يسمو

---

(١) هناك دراسة قيمة حول حدود الالتقاء، والصراع بين أوروبا العصور الوسطى والشرق، نشرها د. جوزف نسيم في كتابه: دراسات في العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ص ١٢٨ ـ ١٥٤.

(٢) انظر: د. أحمد مختار العبادي: العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ص ١١٩ ـ ١٢٩.

عليه، بل أنه لأسمى منه وأعلى. وبينما نشأ عن الحروب الصليبية روح جديدة اشتهرت بالتسامح والقدرة على الموازنة والتقدير، فما نجم عن الحروب الصليبية من المعرفة والخبرة الجديدة، هيأ مادة جديدة للتفكير العلمي والخيال الشاعري في آن واحد[1]. وعلى هذا يمكن دراسة الجوانب والمؤثرات المتبادلة بين الجانبين في إطار العلاقات الإجتماعية والإقتصادية والثقافية والطبية والمؤثرات المعمارية العسكرية والمدنية.

(١) أرنست باركر: الحروب الصليبية، ص ١٤٣، ١٥٠.

الله غالب

الفصل الثاني

العلاقات الاجتماعية

الله غالب

الفصل الثاني

العلاقات الاجتماعية

كان المجتمع في بلاد الشام في العهد الصليبي ١٠٩٨ - ١٢٩١ خليطاً من الأجناس والقوميات واللغات والأديان، فقد ضمّ الفرنسي والإنجليزي والإيطالي والالماني إلى جانب العربي والتركي والكردي والأرمني، مع انتشار الأديان الثلاثة: اليهودية، والنصرانية والإسلام، ولغات عدة. وبالرغم من التباين والتفاوت الاجتماعي والقومي والديني واللغوي، فإن هذه الجماعات بدأت تنسجم وتتأثر بعضها بالبعض الآخر. وقد ذكر فوشيه دو شارتر (F. De Chartres) في تاريخ ١١٢٠ م عن الامتزاج الغربي بالمجتمع الشرقي قوله: «واحسرتاه، نحن قد تحولنا الى شرقيين، فمن كان منا إيطالياً أو فرنسياً في الأمس قد أصبح اليوم في وطنه الجديد، جليلياً أو فلسطينياً وكذلك قد غدا ابن مدينة ريمس (Reims) أو مدينة (Chartres) صورياً أو أنطاكياً، فقد نسي كل منا وطنه الأول، فلم يعد أحد يتكلم عنه. وقد غدا الواحد منا يملك بيتاً وحشماً، وهو مطمئن حتى كأنه قد ورث ذلك بحق قديم له في البلاد، كما أن البعض قد تزوجوا لا بالمواطنات الغربيات، بل بالسوريات أو الأرمنيات أو أحياناً بالمسلمات بعد أن تعمدن.. وأنّا لنستعمل من آن لآخر اللغات المحلية المختلفة.. إذ أصبح بالحقيقة الفقير منّا غنياً بنعمة الله، ومن كان لا يملك سوى دريهات، اصبح ينعم هنا بثروة طائلة ضخمة..»[1].

---

(١) Foucher De Chartres; Rec. Hist. Occid. T3, p.360.

انظر أيضاً: د. زكي النقاش: العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والافرنج=

وهكذا يلاحظ بأن المجتمع الشامي أصبح مجتمعاً مختلطاً[1] . وكما أقبل الصليبيون ـ نظراً لقلة عدد النساء الأفرنجيات اللاتي صحبن المقاتلين ـ على الزواج من المسيحيات من الموارنة والأرمن والسريان وبعض المسلمات الأسيرات اللائي تنصرن، فقد أقبل المسلمون بدورهم على الزواج من الأسيرات الافرنجيات أو الزواج من الفتيات اللائي ولدن من زواج الصليبي بنساء شرقيات. ومما شجع المسلمين على ذلك انعدام العائق الديني وقد نشأ عن هذه الزيجات جيل من المولدين عرفوا باسم الأفراخ .(Pullani)[2] غلبت عليهم طبائع وعادات الشرق منها الغيرة على زوجاتهم، وهي عادة لم تكن موجودة عند الغربيين. ولم ير الصليبيون مانعاً من الاستعانة بهؤلاء المولدين من الموارنة والأرمن والسريان والمسلمين في تشكيل فرق الخيالة الخفيفة التي عرفت باسم « تركوبول» (Turcopoles) ، وقد دخل عدد كبير من هؤلاء الفرسان المرتزقة بين قوات الداوية والاسبتارية وفي خدمة بعض أمراء الصليبيين. وقد امتدت محاولات الزواج بين كبار المسؤولين من المسلمين والأفرنج، فقد كشف ابن شداد في « النوادر السلطانية » عن رسالة مرسلة من ملك الأنجليز الى السلطان صلاح الدين الأيوبي حول تزويج اخته أو ابنة اخته من الملك العادل شقيق صلاح الدين، وهو مشروع للزواج اقترحه ريتشارد قلب الأسد . والحقيقة فقد كاد أن يتم هذا الزواج لولا أن البابا عارض ذلك . ومما قاله الملك الإنجليزي في رسالته : « إنّا معاشر دين

= خلال الحروب الصليبية، ص ١٤٣ ـ ١٤٤، د. سعيد عاشور: بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، ص ٥٢ ـ ٥٣ .

(١) للمزيد من التفصيلات عن بلاد الشام في العصر الصليبي انظر: د. سعيد عاشور: فصل « المجتمع الاسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية » في كتاب: بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، ص ٢١ ـ ٥٣ .

(٢) يذكر جوانفيل بأن فلاحي بلاد الشام يقال لهم المولدون (Poulains) . وجاء في الهامش بأن « المولد هو طفل من نتاج زواج فرنسي من مسيحية في سورية » (Enfant né de mariage d'un Franc et d'une femme indigène chretienne en Syrie)
انظر: مذكرات جوانفيل، ص ١٩٥ ـ ١٩٦ .

النصرانية ومقدمه. وها أنا أسيّر إليه رسولاً يعود في ثلاثة أشهر، فإن إذن فيها ونعمت، وإلا زوجتك ابنة اختي، وما احتاج في أذنه في ذلك».

وكما أن المسلمين قد أخذوا من الأفرنج عادة لبس الخاتم عند الخطبة أو الزواج فقد تبلّد الصليبيون (أصبحوا كأهل البلد) كذلك من حيث الملابس الشرقية، فلبسوا الملابس الشرقية واسعة الأكمام زاهية الألوان الموشاة بالحرائر والتطاريز، واطلقوا لحاهم وجلسوا على الزرابي (السجاجيد). واستخدموا المساحيق والمرايا الزجاجية واتخذوا المسابح للتسبيح بحمد الله. وأكلوا الأطعمة الشرقية واستعملوا البهارات (Spice) كذلك استخدموا في الولائم وحفلاتهم الراقصات والمهرجين وفي جنائزهم النادبات كما يفعل المسلمون في بعض المناطق، كما استخدموا الآلات الموسيقية العربية مثال: الأرغن والمزمار والعود والقيثارة والربابة والأبواق المصنوعة من قرون الحيوانات. كما أن المرأة الصليبية تشبهت بالمرأة العربية من حيث لباسها وزينتها، فاتخذت الصليبيات لزينتهن المجوهرات الدمشقية والقاهرية وأدوات المساحيق والزينة واستخدمن المرايا الزجاجية والفراء والأقمشة المصنوعة من وبر الجمل[1]. وكان بغدوين الرهاوى (Bowdoin of Edessa) ملك بيت المقدس (١١٠٠ ـ ١١١٨) قد بدّل ثيابه الأفرنجية بأخرى شرقية، وأطلق لحيته وتناول طعامه على بساط متربعاً على الأرض. وبلغ الأمر بتانكريد الأنطاكي (Tancred of Antioch) المتوفى ١١١٢، أن سك نقوداً وعليها صورته في زي عربي.

وقد أشار الرحالة ابن جبير الى بعض جوانب الحياة الاجتماعية ووضع المرأة النصرانية ومشاركة المسلمين للمسيحيين أفراحهم، وذلك عندما وصف لنا احتفال زفاف عروس في مدينة صور في فترة حكم الصليبيين، ومما قاله: «..زفاف عروس شاهدناه بصور في أحد الأيام عند مينائها، وقد احتفل لذلك جميع النصارى رجالاً ونساء، واصطفوا سماطين عند باب العروس المهداة، والبوقات

---

(١) د. زكي النقاش. المرجع السابق، ص١٤٦، ١٤٧، ١٤٨.

نضرب والمزامير وجميع الآلات اللهوية ، حتى خرجت تتهادى بين رجلين يمسكانها من يمين وشمال كأنها من ذوي أرحامها . وهي في أبهى زي وأفخر لباس ، تسحب أذيال الحرير المذهب سحباً على الهيئة المعهودة من لباسهم ، وعلى رأسها عصابة ذهب قد حفت بشبكة ذهب منسوجة وعلى لبتها مثل ذلك منتظم . وهي رافلة في حليها وحللها ، تمشي فتراً في فتر مشي الحمامة أو سير الغمامة ـ نعوذ بالله من فتنة المناظر ـ وأمامها جلة رجالها من النصارى في أفخر ملابسهم البهية تسحب أذيالها خلفهم ، ووراءها أكفاؤها ونظراؤها من النصرانيات ، يتهادين في أنفس الملابس ويرفلن في ارفل الحلي والآلات اللهوية قد تقدمتهم . والمسلمون وسائر النصارى من النظار قد عادوا في طريقهم سماطين يتطلعون فيهم ولا ينكرون عليهم ذلك ، فساروا بها حتى أدخلوها دار بعلها وأقاموا يومهم ذلك في وليمة . . »[1]

ويروي أسامة بن منقذ المعاصر لفترة الحروب الصليبية الكثير من العادات الغربية الصليبية . ومما ذكره عن عاداتهم وتقاليدهم قوله : « ليس عندهم شيء من النخوة والغيرة . يكون الرجل منهم يمشي هو وامرأته يلقاه رجل آخر يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها ، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث . فإذا طولت عليه خلاّها مع المتحدث ومضى »[2] .

وأورد أسامة بن منقذ حادثة أخرى جرت في نابلس لرجل أفرنجي يبيع الخمر ، وجد مع زوجته في الفراش رجلاً غريباً فقال له : أي شيء أدخلك إلى عند امرأتي ؟ . قال : « كنت تعبان دخلت استريح » ، قال : « فكيف دخلت إلى فراشي » ، قال : « وجدت فراشاً مفروشاً نمت فيه » ، قال : « والمرأة نائمة معك ؟ قال : « الفراش لها . كنت أقدر أمنعها من فراشها » ؟ قال : « وحق ديني ان عدت فعلت كذا تخاصمت أنا وأنت » . وقد علق أسامة بن منقذ على ذلك بقوله :

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ٢١٣ .

(٢) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ، ص ١٣٥ . انظر أيضاً : د . سعيد عاشور : العلاقات بين الشرق والغرب ، ص ٣٣٣ ـ ٣٣٤ .

« فكان هذا نكيره ومبلغ غيرته ». كما أورد أسامة عدة حوادث تدل على عدم نخوة الأفرنجة، ومنها ادخال رجل أفرنجي ابنته الصبية معه الى حمام للرجال في صور بهدف الاستحمام، ومنها طلب زوج افرنجي من رجل حامي (يعمل في حمام) في المعرة بأن يحلق عانة زوجته « فاستلقت على ظهرها وقال أعمل كما عملت لي، فحلقت ذلك الشعر وزوجها قاعد ينظرني، فشكرني ووهبني حق خدمتي ». وعلق أسامة بن منقد على أخلاق الأفرنجة بقوله: « فانظروا الى هذا الاختلاف العظيم ما فيهم غيرة ولا نخوة، وفيهم الشجاعة العظيمة وما تكون الشجاعة إلا من النخوة والآنفة من سوء الأحدوثة »[1] علماً أن الشجاعة عند الأفرنج أكدها أيضاً ابن الأثير (٥٥٥ ـ ٦٣٠ هـ) عندما تحدث عن شجاعتهم في الدفاع عن حصن بارين امام هجمات المسلمين بقوله: « ... ومن اجتمع به من شجعان الفرنج وفرسانهم، المحامين عن أنفسهم وأهليهم وأموالهم وصلبانهم، علم أنه لا ينال بالتواني.. »، كما أكد في الوقت نفسه على شجاعة المسلمين. ومما قاله أيضاً عندما تحدث عن حصن الأثارب قرب حلب « وقد اجتمع فيه من فرسان الفرنج وذوي البأس، كل معروف بشدة المراس... »[2].

ويلاحظ أيضاً بأن مدينة عكا كانت في عهد الصليبيين قد اكتظت ببنات الهوى اللائي يجنين أرباحاً بما يلقينه من حظوة عند الرجال. ويؤكد « جاك دوفتري » هذا الواقع بالقول: « نرى الرجال فيها يغتالون نساءهم، والزوجات يسممن رجالهن في سبيل عشاقهن، فلا غرابة إذن أن تختص عكا ببيع السموم والعقاقير المسممة » وذكر امبرواز « (Ambroise) من أن الجنود الفرنسيين الذين جاؤوا في الحملة الثالثة كانوا يقضون لياليهم في الرقص ومعاشرة النساء وزيارة بيوت الدعارة، مجترحين الآثام بالتكسير والتخريب. وذكر شهاب الدين المقدسي (ابو شامة) في كتاب الروضتين في أخبار الدولتين بأنه وصلت في سنة ١١٩٠ في

(١) أسامة بن منقذ، المصدر السابق، ص ١٣٦ ـ ١٣٧.

(٢) ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية، ص ٣٩ وصفحات متفرقة أخرى.

مركب ثلاثمائة امرأة أفرنجية مستحسنة « أجتمعن من الجزائر [الجزر] وانتدبن للجزائر ، واغتربن لإسعاف الغرباء ، وقصدن بخروجهن تسبيل أنفسهن للأشقياء ، وأنهن لا يتقربن بأفضل من هذا القربان وزعمن أن هذه قربة ما فوقها قربة ، لا سيما فيمن اجتمعت فيه غربة وعزبة ».

والأمر اللافت للنظر ، هو في مدى إعجاب الراهبات والمرأة الأفرنجية بشكل عام بالحمامات الشرقية لنظافتها ولرسالتها الصحية والاجتماعية ، ونظراً لكثرة تردد الراهبات، فقد احتج « جاك دوفتري » على الراهبات لخروجهن من الأديرة مخالفات بذلك أنظمة حياتهن ليذهبن الى الحمامات العامة وحضورهن مع عامة الناس أيضاً[1]. وقد اشتهرت بلاد الشام بكثرة حماماتها العامة لأن ذلك كان مرتبطاً بالعقيدة الإسلامية القائمة على الطهارة والوضوء وقد عرفت عكا ونابلس وطبرية وصور وبيروت وطرابلس وحمص وحماه وحلب ودمشق ومعرة النعمان وسواها الكثير من هذه الحمامات. ويكفي أن نشير في هذا المجال الى ما ذكره الرحالة ابن جبير عن حمامات دمشق وأسواقها ومما قاله : « وبهذه البلدة أيضاً قرب مائة حمام فيها وفي ارباضها ، وفيها نحو أربعين داراً للوضوء يجري الماء فيها كلها ، وليس في هذه البلاد كلها بلدة أحسن منها للغريب... وأسواق هذه البلدة من أحفل أسواق البلاد وأحسنها انتظاماً وأبدعها وضعاً ولا سيما قيسارياتها ، وهي مرتفعات كأنها الفناديق.. »[2].

والحقيقة فإن أسامة بن منقذ يورد من جهة أخرى بعض الحوادث التي جرت معه أو بوجوده تدل على تأثر الأفرنج بعادات وتقاليد وعقائد المسلمين ، ومنها أن بعضهم بدأ يكره أكل لحم الخنزير تأثراً بالمسلمين. ومما قاله أسامة بن منقذ في هذا الصدد : « ومن الأفرنج قوم قد تبلدوا وعاشروا المسلمين ، فهم اصلح من القريبي العهد ببلادهم ، ولكنهم شاذ لا يقاس عليهم » ثم أورد حادثة جرت مع

---

(١) د. زكي النقاش ، المرجع السابق ، ص ١٥٠.
(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص ٣٠٢.

أفرنجي دعي لغداء على مأدبة أفرنجي آخر في انطاكية « فأحضر مائدة حسنة وطعاماً في غاية النظافة والجودة. ورآني متوقفاً عن الأكل، فقال: كل طيب النفس. فأنا ما آكل من طعام الأفرنج، ولي طباخات مصريات ما آكل إلا من طبيخهن ولا يدخل داري لحم خنزير، فأكلت وأنا محترز وانصرفنا »[1].

ومن الأمور المشتركة بين الأفرنج والمسلمين رحلات الصيد التي كانوا يقومون بها في المقاطعات والإمارات المشتركة أو القريبة أراضيها بعضها من البعض الآخر. كما كانوا يقومون ببعض المباريات الرياضية وسباقات الخيل واللعب بالرماح. وكانت هواية صيد الطيور والأسماك والغزلان والضباع والوحوش والحمير الوحشية من الهوايات التي شهدتها بلاد الشام ومصر. وقد أفرد أسامة بن منقذ فصلاً خاصاً عنها[2]. وكثيراً ما جرت رحلات صيد اجتمع بها العرب بالأفرنج، على غرار ما جرى في طبرية ودمشق وبانياس، وكما جرى في عكا عندما اجتمع الأمير معين الدين وأسامة بن منقذ برجل صياد أفرنجي من الجنوية (من جنوى) كان يحمل بازاً كبيراً، وقد أعجب الأمير بهذا الباز، فما كان من ملك عكا « ملك الأفرنج فلك بن فلك » إلا أن أخذه من الجنوي وقدمه للأمير معين الدين. وهذا مما يدل من جهة أخرى على العلاقات السلمية التي كانت قائمة بين الأمراء المسلمين وملوك الأفرنج. ويبدو أن عادة تربية واقتناء الباز قد انتشرت في الشام لأن العرب والأفرنج كانوا يحرصون باستمرار على اصطحاب الباز في رحلات الصيد. وكانت هذه الرحلات قد أدت الى إقامة صداقات بين الحجاج المسيحيين والأفرنج وبين القائمين في البلاد. ومما ذكره أسامة بن منقذ في صدد ذلك قوله « كان في عسكر الملك فلك بن فلك فارس محتشم أفرنجي قد وصل من بلادهم يحج ويعود. فانس بي وصار ملازمني يدعوني « أخي » وبيننا المودة والمعاشرة »[3].

---

(١) أسامة بن منقذ: كتاب الاعتبار، ص ١٤٠.

(٢) أسامة بن منقذ، المصدر نفسه، ص ١٩١ ـ ٢٢٦ (الباب الثالث).

(٣) أسامة منقذ، المصدر نفسه، ص ١٣٢.

وروى المؤرخ الدمشقي شهاب الدين أبو شامة بعض حوادث من العلاقات الإجتماعية والسلمية بين الجانبين، ومما قاله: «ولما طال القتال بين الطائفتين أمام عكا، انس البعض بالبعض بحيث أن الطائفتين كانتا تتحدثان وتتركان القتال وربما غنّى البعض ورقص البعض لطول المعاشرة، ثم يرجعون الى القتال بعد ساعة، وسئموا يوماً فقالوا لي: كم يتقاتل الكبار وليس للصغار حظ. نريد أن يصطرع صبيان: صبي منا وصبي منكم. فأخرج صبيان من البلد الى صبيين من الفرنج، فوثب أحد الصبيين المسلمين على أحد الصبيين الكافرين، فاحتضنه وضرب به الأرض وأخذه أسيراً، فاشتراه منه بعض الفرنج بدينارين وقالوا: هو أسيرك حقاً، فأخذ الدينارين وأطلقه»[1].

أما المؤرخ الحموي جمال الدين بن واصل والمؤرخ محمد بن علي بن نظيف والمؤرخ ابن شداد وسواهم فقد أشاروا في مؤلفاتهم إلى بعض المعلومات عن العلاقات السياسية بين الشرق والغرب، والتي سنبحثها لاحقاً.

والجدير بالذكر أن العلاقات السلمية والحضارية بين الافرنج والمسلمين والتي كانت تنعم بها بلاد الشام قد انعكست إيجاباً على العلاقات الإسلامية ـ المسيحية في جبل لبنان ومختلف المناطق اللبنانية ـ الشامية. وقد أشار الى ذلك الرحالة ابن جبير، ومما قاله عن نصارى جبل لبنان ومعاملتهم الحسنة للمسلمين قوله: «ومن العجب أن النصارى المجاورين لجبل لبنان إذا رأوا به المنقطعين من المسلمين جلبوا لهم القوت، واحسنوا إليهم ويقولون: هؤلاء ممن انقطع الى الله عز وجل فتجب مشاركتهم... وإذا كانت معاملة النصارى لضد ملّتهم هذه المعاملة، فما ظنّك بالمسلمين بعضهم مع بعض؟»[2] وفي حال توتر العلاقات بين الكبار من الممالك الإفرنجية والاسلامية فإن هذا بدوره ينعكس سلباً على العلاقات المسيحية ـ الإسلامية، وبذلك يقول ابن جبير «ومن أعجب ما يحدّث به أن نيران الفتنة

---

(١) أبو شامة: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، جـ ٢، ص ١٤٣.

(٢) ابن جبير: رحلة ابن جبير ـ تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص ٢٠١.

تشتعل بين الفئتين: مسلمين ونصارى، وربما يلتقي الجمعان، ويقع المصاف بينهم، ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم »[1]. ولما تحدث المقدسي واصفاً بلاد الشام قال « ... واكثرها بركات وصالحين وزهاداً ومشاهد الشام... وأما الجبال الشريفة فجبل لبنان وجبل الجولان فيها عُبّاد... »[2].

ومما ذكره ابن جبير بعد معركة خاضها صلاح الدين الأيوبي ضد الأفرنج في نابلس قوله: « وخرجنا نحن الى بلاد الفرنج وسبيهم يدخل بلاد المسلمين، وناهيك من هذا الاعتدال في السياسة.. »[3]، وبعد ان انتقل ابن جبير من داريا الى بانياس وجد شجرة بلوط كبيرة « فسألنا عن ذلك، فقيل لنا هي حد بين الأمن والخوف في هذه الطريق لحرامية الأفرنج ـ وهم الحواسة والقطاع ـ من أخذوه وراءها الى جهة بلاد المسلمين ولو بباع أو شبر أسر، ومن أخذ دونها الى جهة بلاد الأفرنج بقدر ذلك اطلق سبيله، لهم في ذلك عهد يوفون به وهو من أظرف الارتباطات الأفرنجية وأغربها »[4].

وعن العلاقات الجيدة المشتركة بين المسلمين والأفرنج في منطقة هونين وبانياس، قال ابن جبير « وعمالة تلك البطحاء بين الأفرنج وبين المسلمين، لهم في ذلك حد يعرف بحد المقاسمة، فهم يتشاطرون الغلة على استواء، ومواشيهم مختلطة، ولا حيف يجري بينهم فيها »[5]. ولما تحدث ابن جبير عن تبنين قال: « سكانها كلها مسلمون وهم مع الأفرنج على حالة ترفيه.. وذلك أنهم يؤدون لهم نصف الغلة عند أوان ضمها، وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط ولا يعترضونهم في غير ذلك، ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها أيضاً،

---

(١) ابن جبير، المصدر نفسه، ص ٢٠١.
(٢) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، ص ٣٣، ١٨٩.
(٣) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢٠٩.
(٤) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢٠٩.
(٥) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢١٠.

ومساكنهم بأيديهم، وجميع أحوالهم متروكة لهم»[١]. ولما أشار الى تحاسد المسلمين فيما بينهم بسبب رفاهية البعض وفقر البعض، تعجب وقال بأن «هذه من الفجائع الطارئة على المسلمين أن يشتكي الصنف الإسلامي جور صنفه المالك له، ويحمد سيرة ضده وعدوه المالك له من الأفرنج ويأنس بعدله».

والأمر الملاحظ أن التسامح الديني بلغ في بعض الأحيان حداً لافتاً للنظر، حيث أن المسيحيين والمسلمين كانوا في بعض المناطق يقيمون الصلاة في مسجد ومكان واحد. وقد أشار الى ذلك أيضاً الرحّالة المعاصر ابن جبير، عندما تحدث عن مدينة عكا، حيث يوجد في شرقيها العين المعروفة بعين البقر «وعليها مسجد بقي محرابه على حاله، ووضع الأفرنج في شرقيه محراباً لهم، فالمسلم والكافر يجتمعان فيه: يستقبل هذا مصلاه، وهذا مصلاه، وهو بأيدي النصارى معظم محفوظ وأبقى الله فيه موضع الصلاة للمسلمين»[٢]، كما بقيت بعض المساجد بأيدي المسلمين منفردين بالصلاة فيها. وهذا ما أشار اليه ابن جبير بالقول: «وكانت راحتنا مدة مقامنا بصور، بمسجد بقي بأيدي المسلمين، ولهم فيها مساجد اخرى». وكان بلدوين أمير الرها في حوالي ٥٠٢ هـ - ١١٠٩ م قد اطلق سراح عدد من الأسرى المسلمين كانوا معتقلين لديه، وسمح لمسلمي مدينة سروج بإعادة تعمير مسجدهم، وأعدم حاكم المدينة المسلم المرتد الذي تَقَوّلَ على الإسلام إرضاء لمسلمي المدينة[٣].

كما تحدث ابن جبير عن مشاركة مسلمي صور للنصارى في أفراحهم واحتفالاتهم، وكما أشار أسامة بن منقذ الى دخول بعض الأفرنج في الدين الإسلامي، فقد أشار ابن جبير إلى دخول بعض المسلمين المغاربة الأسرى في بلاد

---

(١) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢١٠.

(٢) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢١٢.

(٣) د. محمود سعيد عمران: القادة الصليبيون الأسرى في أيدي الحكام المسلمين ٤٩٣ - ٥٣١ هـ، ١١٠٠ - ١١٣٧ م، ص ٤٢.

الشام في الدين المسيحي. وقد انتقل جـو التسـامـح والمشـاركـة الإجتماعيـة الى الاحتفالات التي كان يصادف وقتها والناس في السفن في البحر. وقد أوضح ابن جبير أنه اثناء سفره من عكا بحراً في ليلة الخميس ٢٤ رجب ـ وهو أول يوم من نوفمبر العجمي على حد قول ابن جبير ـ « كان للنصارى عيد مذكور عندهم. احتفلوا له في أسراج الشمع، وكاد لا يخلو أحد منهم ـ صغيراً أو كبيراً ذكراً أو أنثى ـ من شمعة في يده، وتقدم قسيسوهم للصلاة في المركب بهم، ثم قاموا واحداً واحداً لوعظهم وتذكيرهم بشرائع دينهم، والمركب يزهر كله أعلاه وأسفله سرجاً متقدة». غير أن البداية لم تكن موفقة على متن المركب وذلك بسبب عزلة المسلمين عن الأفرنج فقد « حاز المسلمون مواضعهم بإنفراد عن الأفرنج وصعده من النصارى المعروفين بالبلغريين، وهم حجاج بيت المقدس، عالم لا يحصى.. أراح الله من صحبتهم بعاجل السلامة.. »[1].

وبالرغم من العلاقات الإجتماعية التي كانت قائمة بين الأفرنج والمسلمين، غير أن هذه العلاقات كانت تشوبها السلبيات في بعض الأحيان، لا سيما في فترة التوتر والصراع السياسي والعسكري، حيث كان يَضطهد المسلمون من قبل الأفرنج ويتعرّضون للمشقات والأهوال والذلة و« المسكنة الذمية » على حد قول ابن جبير الذي أشار بأن المسلمين كانوا يعانون ويسمعون من الأفرنج السباب والشتائم ضد نبيهم « لا سيما من أراذلهم وأسافلهم، ومنها عدم الطهارة والتصرف بين الخنازير وجميع المحرمات الى غير ذلك مما لا ينحصر ذكره ولا تعداده.. ومن الفجائع التي يعانيها من حل بلادهم أسرى المسلمين، يرسفون في القيود، ويصرفون في الخدمة الشاقة تصريف العبيد، والأسيرات المسلمات كذلك في أسوقهن خلاخيل الحديد، فتنفطر لهم الأفئدة، ولا يغني الأشفاق عنهم شيئاً »[2]. غير أنه كان باستطاعة اغنياء المسلمين فك الأسرى لقاء مبالغ طائلة، وكان في دمشق رجلين من اغنياء

---

(١) ابن جبير: الرحلة، ص ٢١٦.

(٢) ابن جبير، المصدر نفسه، ص ٢١٤.

كبار التجار عملا على فك الأسرى المسلمين، وهما: نصر بن قوّام وأبي الدر ياقوت «شأنهما في الغنى كبير وقدرهما عند امراء المسلمين والأفرنجيين خطير». وقد حرص التاجران وسواهما من أغنياء المسلمين على فك الأسرى المغاربة «لبعدهم عن بلادهم، وأنهم لا مخلص لهم سوى ذلك بعد الله عز وجل، فهم الغرباء المنقطعون عن بلادهم فملوك أهل هذه الجهات من المسلمين، والخواتين من النساء، وأهل اليسار والثراء، إنما ينفقون أموالهم في هذه السبيل. وقد كان نور الدين رحمه الله نذر ـ في مرضة اصابته ـ تفريق إثني عشر ألف دينار في فداء أسرى من المغاربة..»[1].

ولكن هذه الأوضاع كانت تتبدل في فترة السلم، لأن طبيعة العلاقات الإجتماعية تحتم قيام تعاون بين الجانبين الأفرنجي والإسلامي رغم العداء بينهما. ولذا فقد شهدت الفترة قيام علاقات جيدة بين امراء شيزر من آل منقذ وبين روجار صاحب انطاكية، كما استمرت هذه العلاقات في عهد بغدوين الثاني وريث روجار. وكان نجم الدين مالك بن سالم صاحب قلعة جعبر على علاقة جيّدة مع جوسلين الأول صاحب تل باشر.

كما استمرت هذه العلاقات زمن حكم الأسرة الأيوبية، حيث اتصفت معاملة صلاح الدين الأيوبي ـ رغم انتصاراته ـ للأفرنج بالمعاملة الجيدة وبالتسامح والكرم. كما عامل أسرى الحرب النصارى معاملة حسنة. وسنأتي على ذكر بعض هذه العلاقات في إطار الحديث عن العلاقات السياسية بين الأفرنج والمسلمين، وقد أشار الى ذلك ابن شداد وابن واصل وابن الفرات وابن الأثير والمقريزي وسواهم ممن أوردوا بعض ملامح العلاقات الإيجابية بين الطرفين. وكان صلاح الدين الأيوبي حريصاً رغم عدائه مع الأفرنج على معاملتهم معاملة طيبة حينما تستدعي الظروف. فقد حدث أن مرض ملك الإنجليز، فما كان من صلاح الدين إلا أن أرسل إليه طبيباً وفواكه وهدايا تليق بالمريض. ونظراً لمعاملة صلاح الدين

---

(١) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢١٤.

الحسنة للأفرنج، فقد تودد إليه حاكم الساحل الفلسطيني «كندهري» ابن اخت ملك الإنجليز فأرسل الى صلاح الدين رسالة طلب فيها خلعة وقال: «أنت تعلم أن لبس القباء والتربوش عندنا عيب، وأنا ألبسها منك محبة لك»[1]. أضف الى ذلك فإن المفاوضات التي جرت بين المسلمين والأفرنج زمن لويس التاسع، اسفرت عن إطلاق الأسرى الأفرنج، غير أن المسلمين رفضوا إطلاق سراح الأسرى قبل أن يتناولوا طعامهم وقد أكد جوانفيل المعاصر للحدث ذلك بقوله: «فطلبنا اليهم ان يدعونا نذهب في سبيلنا، فأبوا قائلين انهم لن يفعلوا ذلك حتى نتناول طعامنا «لأن خروجكم جوعى من سجننا سيكون سبة الدهر في جبين امرائنا». كما حدث أنه اثناء مباحثات المفاوضات بين سلطان مصر ولويس التاسع، قام مبعوث السلطان بزيارة الملك «وقدم إليه لبناً في جرار وزهوراً مختلفة الألوان والأنواع هدية من ابناء الناصر (Nasar) الذي كان سلطان مصر، وقدم إليه هذه الاشياء، وكان هذا المسلم يتكلم الفرنسية»[2].

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ ١٢، ص ٧٩.

(٢) جوانفيل: مذكرات جوانفيل، ص ١٧٣، ١٨٠.

الله غالب

الفصل الثالث

العلاقات الاقتصادية

الفصل الثالث

العلاقات الاقتصادية

شهدت فترة الحروب الصليبية حركة اقتصادية بين المسلمين والافرنج سواء على الصعيد الداخلي في بلاد الشام أو مع مصر[١]، أم على صعيد العلاقات بين بلاد الشام والغرب، ونظراً للأهمية الإقتصادية لبلاد الشام، فقد اعتبر البعض بأن الحروب الصليبية هي في حقيقتها حروب اقتصادية.

الزراعة

بالرغم من الحروب في بلاد الشام فقد استمرت الزراعة متطورة ونشطة بسبب حاجة السكان والطارئين الى المواد الغذائية، وقد عرفت البلاد بعض الأنماط الغربية في العلاقات القائمة بين الإقطاعي والفلاحين. والواقع فإن استفادة الافرنج من الزراعة الشامية لم تقتصر على الجند والمدنيين في بلاد الشام، بل بدأ الافرنج بنقل بعض أنواع من الزراعة الى البلدان الأوروبية لم يسبق ان تعرّفت إليها مثل السمم (Sesame) والخرّوب (Carobe) وقصب السكر (Sucre) والليمون (Limon) والأرز (Riz) والقطن (Coton) وبصل عسقلان (Secallion) وسوى ذلك من النباتات والثمار والفواكه[٢]. علماً أن بلاد الشام كانت مليئة بأنواع

---

(١) يمكن الاطلاع على بعض الأحوال الاقتصادية في العهد الأيوبي، سواء في مصر أو في بلاد الشام في كتاب الباز العريني: الشرق الأدنى في العصور الوسطى، جـ ١ (الأيوبيون)، ص ١٨٩ - ٢٠٩. د. زكي النقاش، المرجع السابق، ص ١٦٨ - ١٩٣. د. جوزف نسيم: دراسات في العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ص ٦٧ - ٧٥ وصفحات أخرى.

(٢) د. زكي النقاش، المرجع السابق، ص ١٧٨. انظر أيضاً: أرنست باركر: الحروب الصليبية، ص ١٥١.

المزروعات الأخرى مثال: التين والزيتون والقمح والشعير والذرة والعدس والفول والرمان والتفاح والدراق واللوز والبطيخ والتوت والأجاص والخوخ والمشمش وسوى ذلك من مزروعات تمّ نقل معظمها الى أوروبا. ويرى ستيفن رنسيمان أن فواكه فلسطين النادرة مثال الليمون الحلو أو الرمان، كانت تشاهد في بعض الأحوال على موائد الأثرياء في إيطاليا. وحينما وصل الصليبيون الى سوريا، تبيّن لهم أن قصب السكر تكثر زراعته في مناطق ساحلية متعددة، وفي وادي نهر الأردن، فواصلوا زراعته. أضف الى ذلك أن بيروت وجبال لبنان كانت مليئة بأشجار الصنوبر والشربين والسرو.

ويصف ابن حوقل الزراعة والبساتين في مختلف بلاد الشام وذلك قبل الحروب الصليبية ومما قاله «.. ومياه فلسطين من الأمطار والطل، وأشجارها وزرعها اعذاء نجوس لا سقي فيها إلا نابلس فيها مياه جارية. وفلسطين أزكى بلاد الشام ربوعاً..» وعن القدس قال: «عليها شجيرات وهي من أخصب بلاد فلسطين على مرّ الأوقات»، وعن جبال بيت لحم قال: «وأشجار هذه الجبال وأكثر جبال فلسطين زيتون وتين وجميز الى سائر الفواكه.. والجبال والشراة بلدان في غاية الخصب والسعة»، وعن الأردن، وبحيرة الغور وبيسان قال ابن حوقل: «وبه فاكهة وأب ونخيل وعيون وأنهار». وبعد أن تحدث عن جمال غوطة دمشق ومياهها العذبة «الفيجة» قال: «وهي مدينة كثيرة الخير والغلات والفواكه الجيدة، بينه الخصب والرخص وهي قريبة من مدينة بيروت.. وببيروت هذه كان مقام الأوزاعي وبها من النخيل وقصب السكر والغلات المتوافرة، وتجارات البحر عليها دارّة واردة وصادرة» وعن مدينة حمص فهي «خصبة.. ولها مياه وأشجار، وكانت كثيرة الزرع والضرع، وكانت أكثر زروع رساتيقها نجوساً اعذاء.. وشيزر وحماه.. نزهتان كثيرتا المياه والشجر والزرع والفواكه والخضر..» أما قنّسرين فهي «مدينة كثيرة الخير والسعة في التين والفستق وما شاكل ذلك من الكروم والأزبة».

وعن أنطاكية فقد وصفها ابن حوقل بأنها «كانت بعد دمشق أنزه بلاد

الشام، وعليها الى هذه الغاية سور من صخر يحيط بها ويجبل مشرف عليها، فيه لهم مزارع ومراع وأشجار وأرحية». أما مدينة« بالس» على شط الفرات فلها بساتين فيما بينها وبين الفرات وأكثر غلاتها القمح والشعير، ويعمل بها من الصابون الكثير الغزير» بينما مدينة ملطية« بها مباح الجوز واللوز والكروم والرمان وسائر الثمار الشتوية والصيفية أما الحدث ومرعش ففيهما زروع وأشجار وفواكه، وكذلك الاسكندرونة وحصن التينات الذي كان فيها مقطع لخشب الصنوبر. وكذلك فإن عين زربة كانت مليئة بالثمار والزروع ومنها النخيل. وشرح ابن حوقل أوضاع الزراعة في المصيصة وطرسوس ومعان وحوران والبثينة وأكثر المناطق الشامية فأشاد بخصوبة أراضيها وحسن زراعتها وطيب ثمارها. وعلى سبيل المثال فقد وصف زبيب منبج المصنّع بقوله: «ولها من ناطف الزبيب المعمول بالجوز والفستق والسمسم ما لم أر له شبهاً إلا ما ببخارى منه، فإنه يزيد عليه في الحلاوة..»[1].

أما الرحالة الأندلسي ابن جبير فيبدو من كلامه بأن العلاقات الإقتصادية بين أهل البلاد وبين الأفرنج كانت علاقات مقبولة من الطرفين فقد جاء في حديثه عن مدينة بانياس «..ولها محرث واسع في بطحاء متصلة يشرف عليها حصن للأفرنج يسمى هونين، بينه وبين بانياس مقدار ثلاثة فراسخ، وعمالة تلك البطحاء بين الأفرنج وبين المسلمين، لهم في ذلك حد يعرف بحد المقاسمة، فهم يتشاطرون الغلة على استواء ومواشيهم مختلطة، ولا صيف يجري بينهم فيها». ثم أشار ابن جبير إلى واد مليء بالأشجار فقال: «واجتزنا في طريقنا بين هونين وتبنين بواد ملتف بالشجر ـ وأكثر شجره الرند ـ بعيد العمق، كأنه الخندق السحيق المهوي تلتقي حافتاه ويتعلق بالسماء أعلاه، يعرف بالأسطيل، لو ولجته العساكر لغابت فيه..»، ثم أشار ابن جبير إلى تلك العلاقة الإقتصادية الزراعية فقال: «..ورحلنا

---

(١) للمزيد من التفصيلات حول الأحوال الاقتصادية والزراعية في بلاد الشام انظر ابن حوقل: المصدر السابق، ص ١٥٨ ـ ١٧٢. انظر أيضاً: د. علية عبد السميع الجنزوري: الثغور البرية الاسلامية على حدود الدولة البيزنطية في العصور الوسطى، ص ١٦١ ـ ١٦٤.

من تبنين.. وطريقنا كله على ضياع متصلة وعمائر منتظمة، سكانها كلها مسلمون، وهم من الأفرنج على حالة ترفيه... وذلك أنهم يؤدون لهم نصف الغلة عند أوان ضمها، وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط، ولا يعترضونهم في غير ذلك، ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها أيضاً ومساكنهم بأيديهم وجميع أحوالهم متروكة لهم. وكل ما بأيدي الإفرنج من المدن بساحل الشام على هذه السبيل، رساتيقها كلها للمسلمين وهي القرى والضياع.. »[١].

وعن بساتين عكا وصور قال ابن جبير .. « والفواكه تجلب اليها من بساتينها التي بالقرب منها، ولهما عمالة متسعة. والجبال التي تقرب منها معمورة بالضياع، ومنها تجبى الثمرات اليها، وهما من غر البلاد ». وقال عن قنسرين « هي البلدة الشهيرة في الزمان.. فلم يبق إلا آثارها الدارسة ورسومها الطامسة، ولكن قراها عامرة منتظمة لأنها على محرث عظيم مد البصر عرضاً وطولاً ..» وعن بلاد المعرة وهي سواد كلها شجر الزيتون والتين والفستق وأنواع الفواكه، ويتصل التفاف بساتينها وانتظام قراها مسيرة يومين، وهي من أخصب بلاد الله وأكثرها أرزاقاً ». وعن بساتين وزراعة حماه أشار ابن جبير إليها بقوله « مدينة شهيرة في البلدان.. أبصرت بشرقيها نهراً كبيراً.. قد انتظمت طريقه بساتين تتهدل أغصانها عليه وتلوح خضرتها عذاراً بصفحتيه.. وبخارج هذه البلدة بسيط فسيح عريض قد انتظم اكثر شجرات الأعناب، وفيه المزارع والمحارث وفي منظره انشراح للنفس وانفساح، والبساتين متصلة على شطي النهر وهو يسمى العاصي.. »[٢]، وهذا الوصف كله يدل على مدى انتعاش وتطور الحياة الزراعية في بلاد الشام.

الصناعة

وفي ميدان الصناعة، تعرّف الأفرنج الى الكثير من المصنوعات العربية ونقلوها

---

(١) ابن جبير: الرحلة، ص ٢١٠ - ٢١١.

(٢) ابن جبير. المصدر نفسه، ص ١٧٩، ١٨٠، ١٨١.

الى بلادهم مثل الصناعات الزجاجية والخزفية والمرايا والحلي والسجاد والمنسوجات والأواني المعدنية والسبحات والأصباغ والعقاقير وصناعة الصابون والسكر وسوى ذلك. وذكر بأن طرابلس الشام كانت تحوي وقت الهجوم الصليبي عليها في مطلع القرن الثاني عشر نحو أربعة آلاف من مصانع الحرير والصوف، فضلاً عن مصانع الورق التي اعتبرت احدى الصناعات الهامة في ذلك الوقت[1].

وكان الأفرنج قد تعلموا من سكان الشام عملية استخراج السكر من القصب، وكان يوجد في عكا معصرة (Masaria) ضخمة للسكر، بالإضافة الى معصرتين في اريحا. فضلاً عن مصانع السكر في معظم مدن الساحل مثل صور التي كانت تعتبر المركز الرئيسي لصناعة السكر، ومن هذه المدن الساحلية قام الأفرنج بتصدير السكر بكميات كبيرة الى الغرب الأوروبي ومعظم ما كان يستهلك في أوروبا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر جاء من الشرق.

كذلك قام الصليبيون بتصدير الأقمشة من بلاد الشام الى أوروبا، وتصدير الملابس الحريرية والتيلية والمخمل والزجاج. والحقيقة فان القماش يلي السكر في الأهمية من حيث التصدير من بلاد الشام الى الغرب الاوروبي، لأن تربية دودة القز كانت قد انتشرت في بيروت وطرابلس منذ نهاية القرن السادس، وقد انتشر معها زراعة أشجار التوت المعروف بالتوت البري. كما كان الكتان ينمو في سهول فلسطين، وقد جرى تصنيعه في تلك المناطق كما أقيم في عكا مصانع للحرير الشامي الذي شهد إقبالاً أوروبياً عليه، كما وجد في بيروت واللاذقية مثل هذه المصانع، واشتهرت صور بالصناعات النسيجية المعروفة باسم « صندل ». كما اشتهرت صور بصناعة الصباغ الأرجواني، الذي اكتسبت شهرته منذ أيام الفينيقيين. وكان لكتان نابلس شهرة دولية نظراً لجودته وإمكانية استغلاله في الصناعات الكتانية المتنوعة ونظراً لانخفاض سعره ووفرة كمياته. وكان

---

(١) د. محمد محمد مرسي الشيخ: الامارات العربية في بلاد الشام في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلادية، ص ٤١٠. انظر أيضاً: د. زكي النقاش: العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والافرنج خلال الحروب الصليبية، ص ٩٦ ـ ٩٧.

الإيطاليون يقبلون عادة على شراء كتان نابلس وبقية المدن الشامية والمصرية، وتسويقه في الأسواق الأوربية. وعرفت مدن الشام مثل بيروت ودمشق وصور وطرابلس مصانع لدبغ الجلود، ولهذا نجد مناطق عديدة تعرف باسم مناطق الدباغة، كما جرى تصنيع وتصدير الأواني الفخارية. وقد تعاون اليهود من أهل الشام مع بقية الطوائف في صناعة وتصدير الزجاج الشامي الذي كان يلقى في بعض الأحيان منافسة من الصناعة المصرية.

وتعتبر مدينة جنوى من أهم المراكز التجارية في أوروبا في العصور الوسطى لتميزها بموقع استراتيجي هام، مما جعلها حلقة اتصال بين الشرق والغرب. وكانت التجارة الجنوية مع العالم الاسلامي قد توثقت وازدهرت لا سيما أيام الدولة الفاطمية. وتطورت العلاقات الاقتصادية الجنوية ـ الاسلامية، وقد ازدادت تطوراً زمن الحروب الصليبية نظراً لتأييد الجنوية للحملات الصليبية الى الشرق لا سيما الحملة الأولى، وقد أكسبهم ذلك وأعطاهم امتيازات تجارية. وأصبح تجار جنوى يرتادون بسهولة كافة المناطق الغربية والشرقية على السواء، وكثرت تجارتهم بين بروڤانس وسردينيا وكورسيكا وناربون وشمبانيا وقطالونيا وبرجنديا وانجلترا وفرنسا من جهة وبين الشرق الاسلامي من جهة ثانية. وأصبحت بضائع الشرق ترى بوضوح في الأسواق الاوروبية، كما ازدادت البضائع الأوروبية في الأسواق الشرقية. وكانت السلع المشرقية تتدفق على أسواق أوروبا عبر مصر وبلاد الشام بصورة أساسية وعبر البحر الأسود. وكانت الرحلات الجنوية المتجهة الى الشام ومصر وسواهما من موانيء الشرق الأدنى تتم عادة مرتين في العام: الرحلة الأولى وتسمى رحلة الربيع (Passagium Vernale) والثانية وتعرف برحلة الخريف (Passagium Augusti)[1].

والحقيقة فإن الجنوية أصبحوا سادة التجارة الشرقية سواء في مصر أو الشام، لا سيما بعد أن عقدوا معاهدة تجارية مع السلطان قلاوون وولده الأشرف خليل في

---

(١) د. مصطفى الكناني: العلاقات بين جنوه والشرق الأدنى الاسلامي، ص ٢٩١ ـ ٣٠٤.

٢ جمادى الأولى ٦٨٩ هـ - ١٣ أيار (مايو) ١٢٩٠ م. وهي تعتبر أهم معاهدة تجارية عقدت في حينه، حيث لم تستطع أية مدينة تجارية أخرى أن تعقد مثلها في تلك الفترة. وكان قد سبقها معاهدة هامة بين الجنوية والناصر صلاح الدين الأيوبي عام ٥٧٢ - ٥٧٣ هـ - ١١٧٧ م. وكان تجار جنوى يجلبون الى مصر وبلاد المشرق الفراء والجلود والزيوت والمنسوجات والمماليك والجواري والخيول والأسلحة والحديد والنحاس والرصاص والأخشاب والحبوب. ونقلوا معهم الى الغرب سلع بلاد الشام والمشرق عامة ومنها: المنسوجات، والملح والنطرون والمرجان واللازورد والبلسم أو البلسان والزمرد والشمع والعسل والسكر والتوابل والصبغة الزرقاء (النيلة) والتمور والأسماك المملحة والفواكه والتين الجاف والعنب (الزبيب) والزيتون وأخشاب الأرز والملابس على اختلاف أنواعها. بالإضافة الى الأواني الزجاجية، وذلك من مصنوعات المدن الشامية ابتداء من انطاكية شمالاً، ومروراً بحلب ومدن الساحل الشامي، وانتهاء بدمشق وبيت المقدس وسواها من مدن وسط وجنوبي الشام [1].

وكانت العلاقات الاسلامية - الجنوية قد ازدادت توثقاً بعد اقامة مراكز تجارية جنوية في مدن الشام ومصر، واقامة محطات تجارية اسلامية في جنوى. بل إن بعض احياء جنوى اتخذت أسماء عربية وأسماء بعض المدن الشامية والمصرية ومنها على سبيل المثال زقاق دمياط (Vico Damiath) وزقاق جبيل (Vico Gebello). تشير بعض الدراسات الى وجود مسجد للتجار المسلمين في مدينة جنوى، وذلك لإقامة الشعائر الدينية وتأدية الصلاة، في مقابل اقامة كنائس في بعض المناطق الاسلامية في الشرق للتجار المسيحيين الجنويين.

والأمر الملاحظ أن بعض ما ذكر عن الحركة الصناعية والتجارية، قد أشار إليها الادريسي الذي تحدث عن حركة صناعية نشطة في بيروت وصور ويافا

(١) د. مصطفى الكناني، المرجع السابق، ص ٣٠٥ - ٣٠٩. انظر أيضاً:
Thompson, J.W., Economic and Social History of the Middle Ages (300-1300). Vol. I, p.405.

ودمشق، وأن صناعة الفخار كانت فيها متقدمة بجميل مصنوعاتها وبديع منتجاتها، لما عرفت به من دقة في الصنعة وبهاء في المظهر. وكانت أشهرها الذي صدر إلى أوروبا باسم «فخار دمشق». ومما قاله الادريسي عن صناعة الحرير «... وكذلك فإن صور وطرابلس وانطاكية وطرطوس، قد حازت جميعها شهرة واسعة في الشرق والغرب بمصنوعاتها الحريرية». وأشار الادريسي الى أن مصنوعات صور هي من أفخر الأجناس، لأنها تمتاز بجمالها عن غيرها من منتجات الشام. أما انطاكية فقد أشار الادريسي إلى أن أهلها يصنّعون في هذه المدينة أقمشة جميلة بألوانها المنسجمة، ومن أبدع منسوجاتها الحريرية المبرقشة والديباج.

وكان الخزف الشامي من المصنوعات الهامة في تجارة المستعمرات الصليبية، وتظهر هذه الحقيقة من خلال مراجعة «مجموعة قوانين القدس» على حد قول فيليب حتي. كما يتضح ذلك من بنود معاهدة ١٢٢٣ التي عقدت بين امارة بيروت وجمهورية جنوى التي نصت على «أن المصنوعات الفخارية المختلفة كانت من السلع المعفاة من الرسوم الجمركية»[1].

أما الصابون،فقد اشتهرت بلاد الشام بصناعته لا سيما مدن فلسطين وخاصة نابلس وعكا، بالإضافة الى طرابلس وعكار واقليم الخروب في جبل لبنان، ذلك لأن صناعته ارتبطت الى حد كبير بإنتاج الزيت والزيتون المتواجد في تلك المناطق، وقد أصبح للصابون النابلسي شهرة شامية وأوروبية بسبب جودته. وقد أنشئت مصابن عدة لصناعته في المدن الساحلية والجبلية بالإضافة الى انطاكية وطرطوس. كما أقبل الأوروبيون على شراء المصنوعات الذهبية والنحاسية والفضية التي اشتهرت بها بلاد الشام لا سيما المصنوعات التي تميزت بالنقوش

(١) انظر: د. زكي النقاش: العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والافرنج خلال الحروب الصليبية، ص ١٧٨ ـ ١٨٤.

والحفر واظهار الرسوم عليها.

وقد استفاد الافرنج من الأخشاب المتوافرة في بلاد الشام لا سيما غابات بيروت وجبل لبنان، فصنعوا منها بعض سفنهم التجارية والحربية. وكان يوجد في بعض مناطق جبل لبنان مناجم للحديد، غير أن انتاجها لم يكن من الوفرة ما يكفي للتصدير الى أوروبة، ولكن مصر كانت تستورد الحديد من لبنان بدليل ما ذكره ابن بطوطة من أن بيروت كانت «تجلب منها الى ديار مصر الفواكه.. والحديد»[1].

وقام الافرنج بشراء وتصدير الأعشاب الطبية التي تعرّفوا عليها أثناء تواجدهم في المنطقة، ولمسوا مفعولها الطبي. وكانت مادة «البلسان» المادة العشبية الأكثر أهمية بالنسبة لمسيحيي أوروبا، لأنها كانت تستخدم هناك في طقوس الكنيسة. وقد تطورت زراعة هذه المادة في عهد الصليبيين لا سيما في بيت المقدس، غير أن المسلمين أهملوا زراعتها بعد أن أعادوا سيطرتهم على بيت المقدس في أواخر القرن الثاني عشر، لأنها لم تكن ترتبط بعقيدتهم الدينية، بالإضافة الى أن هذا النبات يحتاج إلى ري مستمر وكميات وفيرة من المياه، غير أن بلاد الشام شهدت صناعات للمشروبات الروحية والكحولية مثل الجعة (البيرة) التي كانوا يصنعونها من الشعير ومن الذرة، كما صنّعوا مشروبات أخرى من العنب والفواكه.

التجارة

كانت التجارة بشكل عام قد ازدهرت بين البلاد الاسلامية والأوروبية، وانتقلت المؤثرات الصناعية الشرقية الى مختلف مناطق أوروبا[2]. وقد جنى التجار أموالاً طائلة، واشتد الطلب في أوروبا في العصور الوسطى على التجارة الشرقية كالتوابل والاصباغ والحرير والخزف والصابون، والصناعات التي سبق أن أشرنا

---

(١) ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، جـ ١، ص ٨٢ ...

(٢) انظر: د. زكي النقاش، المرجع السابق، ص١٨٥ ـ ١٩٣.

بحرية تمتلك الأساطيل الكبرى والقواعد البحرية والبرية معاً. غير أنه من اللافت للنظر أيضاً، هو التصميم والإرادة والمثابرة العربية والاسلامية التي تمثلت في رفض التراجع عن الهدف، والعمل على تحقيقه ولو بعد ثمانين من الأعوام.

في عام ٢٩٧ هـ ـ ٩٠٩ م انتهى حكم الأغالبة في المغرب، وقضى الفاطميون عليهم في أفريقية، ومن ثم فقد دخلت صقلية تحت الحكم الفاطمي اسمياً لا سيما في عهد أسرة الكلبيين (٩٤٨ هـ ـ ١٠٥٢ م). وقد تمتعت صقلية في هذا العهد باستقلال ذاتي. غير أن صقلية لم تنعم كثيراً بالاستقرار لا سيما بعد سقوط دولة الكلبيين[١] عام ١٠٥٢ م، فقد شهدت اضطرابات وثورات وحروباً أهلية، كانت بوادرها وجذورها قد بدأت في عهد الكلبيين، وكان ذلك من أسباب تدهور الحكم العربي الاسلامي وضعفه، الأمر الذي أدى أخيراً الى سيطرة النورمان (أهل الشمال) (North-Men) على جزيرة صقلية. وعلى حد قول المؤرخ ابن أبي دينار في كتابه: المؤنس، من أن أسباب هلاك مسلمي صقلية الحسد والشقاق.

ولا بد من الإشارة إلى ان انتهاء الحكم الاسلامي والعربي في صقلية[٢] لا يعني انتهاء حضارتهم وعاداتهم وتقاليدهم ولغتهم. فقد تمتعت صقلية خلال العهدين الأغلبي والفاطمي بحكم اسلامي مزدهر، فانتشر المسلمون فيها وانتشرت معهم الحضارة الاسلامية في بالرمو ومسينا وسرقوسة وسواها، وانتشرت فيها القصور والمساجد[٣] والبيمارستانات والأسواق والأسوار والقلاع والقناطر، وصناعة الورق والسفن والحرير والفسيفساء والكبريت، واستخرج المسلمون النفط والرصاص والحديد. وشاركوا في ميادين التجارة والصناعة. ونشروا اللغة العربية، كما نشروا

---

(١) نسبة إلى المنصور الحسن بن علي بن أبي الحسين الكلبي.

(٢) انتهى الحكم العربي في صقلية قبل خروج العرب من اسبانيا بأربعمائة عام.

(٣) للمزيد من التفصيلات انظر: الطاهر أحمد مكي: الفن العربي في اسبانيا وصقلية، ص ٨٩ ـ ١٠٨

وكانت موانيء عكا وصور واللاذقية من أهم موانيء بلاد الشام بالإضافة الى موانيء بيروت وطرابلس وانطاكية والسويداء، وكانت تستورد الى هذه الموانيء ويصدر منها مختلف أنواع السلع والمصنوعات. وقد أوجدت هذه الحركة التجارية طبقة من التجار المحليين، وقد ذكر ابن جبير اثنين منهما كانا يعملان على فك أسرى المسلمين المغاربة وهما: نصر بن قوام وأبي الدر ياقوت. ومما قاله ابن جبير في ثرائهما وتجارتهما «وقيض الله لهم [للأسرى] بدمشق رجلين من مياسر التجار وكبرائهم وأغنيائهم المنغمسين في الثراء: أحدهما يعرف بنصر بن قوام والثاني بأبي الدر ياقوت مولى العطافي. وتجارتهما كلها بهذا الساحل الأفرنجي، ولا ذكر فيه لسواهما ولهما الأمناء من المقارضين، فالقوافل صادرة وواردة ببضائعهما، وشأنهما في الغنى كبير، وقدرهما عند أمراء المسلمين والافرنجيين خطير...» [1].

كما أوجدت الحركة التجارية طبقة من التجار الأجانب، بالإضافة الى أن منطقة الشام استأثرت باهتمام التجار المسلمين من غير بلاد الشام، والذين وفدوا اليها باعتبارها منطقة التقاء حضاري وصناعي وتجاري، حيث كان التجار يقصدونها بهدف شراء ما يعجزون عن شرائه أو وجوده في الخارج والحقيقة فان التبادل التجاري المستمر بين بلاد الشام أو الممالك الصليبية فيها وبين البلدان الأوروبية، ساعد على ازدياد النشاط المالي والصيرفي، وأدى الى استحداث أساليب مالية جديدة مأخوذة عن المعاملات المالية المعمول بها في بلاد الشام. كما استحدثت أنواع من العملات المعدنية المتداولة بين الجانبين في المنطقة. كما اتبع أسلوب الديوان (الجمرك) حيث كان المسلمون مثلاً يدفعون ضريبة للصليبيين على بضائعهم الداخلة الى مينائي عكا وصور ومنطقة تبنين وسواها بمعدل قيراط عن كل سلعة ثمنها دينار واحد، وكان الدينار يساوي ٢٤ قيراطاً.

وبالرغم من العداء القائم بين المسلمين والافرنج، غير أن العلاقات التجارية كانت قائمة وبصورة ناجحة، وكانت القوافل تنتقل بين أراضي الطرفين في

---

(١) ابن جبير: الرحلة. ص ٢١٤.

سهولة. ولا بد في هذا المجال من أن نورد مشاهدات ابن جبير وملاحظاته حول العلاقات التجارية بين الجانبين. فبعد أن أشار الى خروج صلاح الدين الأيوبي لمنازلة حصن الكرك الافرنجي، لأنه المعترض في طريق الحجاز والمانع لسبيل المسلمين على البر قال:

« ... واختلاف القوافل من مصر الى دمشق على بلاد الافرنج غير منقطع، واختلاف المسلمين من دمشق الى عكة كذلك، وتجار النصارى أيضاً لا يمنع أحد منهم ولا يعترض».

ثم أضاف: « ... وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم.. وتجار النصارى أيضاً يؤدون في بلاد المسلمين على سلعهم، والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الأحوال، وأهل الحرب مشتغلون بحربهم، والناس في عافية، والدنيا لمن غلب. هذه سيرة أهل هذه البلاد في حربهم. وفي الفتنة الواقعة بين أمراء المسلمين وملوكهم كذلك، ولا تعترض الرعايا ولا التجار، فالأمن لا يفارقهم في جميع الأحوال سلماً أو حرباً. وشأن هذه البلاد في ذلك أعجب من أن يستوفى الحديث عنه.. »[1].

ولما كان ابن جبير يعد السفر من دمشق إلى عكا، التمس ركوب البحر مع تجار النصارى « في قافلة كبيرة من التجار المسافرين بالسلع الى عكة. ومن أعجب ما يحدث به في الدنيا أن قوافل المسلمين تخرج الى بلاد الافرنج، وسبيهم يدخل الى بلاد المسلمين. شاهدنا من ذلك عند خروجنا أمراً عجيباً». وقد تعجب ابن جبير أنه بالرغم من الحروب القائمة بين المسلمين والصليبيين غير أن الوجه الآخر لعلاقاتهم التجارية، كان وجهاً قائماً على السلم بين الجانبين. ومما قاله «وخرجنا نحن الى بلاد الفرنج وسبيهم يدخل بلاد المسلمين، وناهيك من هذا، الاعتدال في السياسة»، ووصف ابن جبير الوضع في إحدى قرى عكا بقوله: «ورئيسها الناظر فيها من المسلمين، مقدم من جهة الافرنج على من فيها من عمارها من المسلمين..

---

(١) ابن جبير: الرحلة، ص ٢٠١.

فأضاف جميع أهل القافلة ضيافة حفيلة.. وأنالهم ألواناً من الطعام قدمها لهم.. »[1].

وعن الخانات التجارية والضرائب المفروضة على البضائع قال ابن جبير: « وحملنا الى الديوان، وهو خان معدّ لنزول القافلة وأمام بابه مصاطب مفروشة فيها كتاب الديوان من النصارى بمحابر الأبنوس المذهبة الحلي، وهم يكتبون بالعربية ويتكلمون بها، ورئيسهم ـ صاحب الديوان والضامن له ـ يعرف بالصاحب: لقب وقع عليه لمكانه من الخطة. وهم يعرفون به كل محتشم متعين عندهم من غير الجند، وكل ما يجبى عندهم راجع الى الضمان، وضمان هذا الديوان بمال عظيم، فأنزل التجار رحالهم به ونزلوا في أعلاه، وطلب رجل من لا سلطة له لئلا يحتوي على سلعة له لئلا يحتوي على سلعة مخبوءة فيه، وأطلق سبيله فنزل حيث شاء، وكل ذلك برفق وتؤدة دون تعنيف ولا حمل، فنزلنا بها في بيت اكتريناه من نصرانية بإزاء البحر »[2].

ووصف ابن جبير ميناء عكا وتجارتها قائلاً: « هي قاعدة مدن الافرنج بالشام ومحط الجواري المنشآت في البحر كالاعلام، مرفأ كل سفينة، والمشبهة في عظمها بالقسطنطينية، مجتمع السفن والرفاق، وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق، سككها وشوارعها تغص بالزحام وتضيق فيها مواطيء الأقدام، تستعر كفراً وطغياناً.. انتزعها الافرنج من أيدي المسلمين في العشر الأول من المائة السادسة، فبكى لها الاسلام ملء جفونه.. »[3]. كما وصف مرفأ صور الذي اعتبره بأنه أفضل من مرفأ عكا ومما قاله ابن جبير عن برجي الميناء « ليس في البلاد البحرية أعجب وصفاً منها يحيط به سور المدينة من ثلاثة جوانب... فالسفن تدخل تحت السور وترسي فيها.. وتعترض بين البرجين المذكورين سلسلة

---

(١) ابن جبير: الرحلة، ص ٢١١.
(٢) ابن جبير، المصدر نفسه، ص ٢١١.
(٣) ابن جبير، المصدر نفسه، ص ٢١١.

عظيمة، تمنع عند اعتراضها الداخل والخارج. وعلى ذلك الباب حراس وأمناء لا يدخل الداخل، ولا يخرج الخارج إلا على أعينهم». ثم أضاف واصفاً هذا المرفأ بقوله: «فشأن هذا الميناء شأن عجيب في حسن الوضع. ولعكة مثلها في الوضع والصفة، لكنها لا تحمل السفن الكبار حمل تلك، وإنما ترسي خارجها، والمراكب الصغار تدخل اليها، فالصورية أكمل وأجمل وأحفل..» [1].

وعن تجارة مدينة طبرية منها وإليها قال ابن جبير «وعلى بادية طبرية اختلاف القوافل من دمشق لسهولة طريقها، ويقصد بقوافل البغال على تبنين لوعورتها وقصر طريقها..».

ومما قاله عن حصن تبنين ووضع الضرائب فيه: «حصن كبير من حصون الافرنج يعرف بتبنين. وهو موضع تمكيس القوافل، وصاحبته خنزيرة تعرف بالملكة، هي أم الخنزير صاحب عكة.. ومكس الناس تمكيساً غير مستقصى، والضريبة فيه دينار وقيراط من الدنانير الصورية على الرأس، ولا اعتراض على التجار فيه، لأنهم يقصدون موضع الملك الملعون، وهو محل التعشير، والضريبة فيه قيراط من الدينار، والدينار أربعة وعشرون قيراطاً. وأكثر المعترضين في هذا المكس المغاربة، ولا اعتراض على غيرهم من جميع بلاد المسلمين، وذلك لمقدمة منهم أحفظت الافرنج عليهم..»، وذلك بسبب وقوفهم الى جانب نور الدين في أثناء حصاره أحد حصون الافرنج «فجازاهم الافرنج بهذه الضريبة المكسية ألزموها رؤوسهم، فكل مغربي يزن على رأسه الدينار المذكور في اختلافه على بلادهم. وقال الافرنج: إن هؤلاء المغاربة كانوا يختلفون على بلادنا، ونسالمهم ولا نرزأهم شيئاً. فلما تعرضوا لحربنا، وتألبوا مع أخوانهم المسلمين علينا، وجب أن نضع هذه الضريبة عليهم. فللمغاربة في أداء هذا المكس سبب من الذكر الجميل في نكايتهم العدو يسهله عليهم ويخفف عنته عنهم» [2].

---

(١) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢١٢ ـ ٢١٣.

(٢) ابن جبير: الرحلة، ص ٢١٠.

ويلاحظ أيضاً بأن من مظاهر نشاط الحركة التجارية في هذه الفترة، كثرة الخانات والفنادق الخاصة بالتجار المسلمين والافرنج على السواء، فقد كان للتجار المسلمين خانات وفنادق خاصة يفضلون النزول بها مجتمعين، كما كان للتجار الايطاليين (نابولي، جنوى، بيزا، البندقية) والفرنسيين (ناربون، ومرسيليا) والاسبان (أراجون وقطالونيا) خانات وفنادق خاصة يجتمعون وينامون فيها ريثما تتم معاملاتهم وشراء بضائعهم أو بيع المستورد منها [1]. كما كان لكل طائفة تجارية أو قومية قنصل يرعى مصالحها، وكان يعرف في بلاد الشام باسم شهبندر التجار أو بازار باشي وهو المسؤول عن مصالح التجار المسلمين. كما كان يوجد في هذه الفترة محاكم خاصة تفصل في القضايا العالقة بين التجار الأجانب والتجار المسلمين، أو بين التجار الأجانب وعمالهم من السكان المحليين، وقد نشأت بعض الخلافات بين الجانبين بسبب سوء معاملة التجار الايطاليين والافرنج عامة للعمال الموارنة والسريان واليعاقبة والبيزنطيين الروم والاقباط، لأن هؤلاء سخروا للقيام بالخدمات والأعمال الدنيا التي أنف الصليبيون الغربيون من القيام بها، باستثناء بعض الأرمن الذين نالوا الامتيازات من الصليبيين، وجرت زيجات مشتركة بينهم وبين الافرنج، كما تولى بعضهم مناصب هامة في الممالك الصليبية، ولعل مواقف الأرمن السابقة المعادية للسلاجقة أعداء الصليبيين، كانت من جملة الأسباب التي قربت بين الفئتين الأرمن والافرنج.

وبصورة عامة فقد أوجدت العلاقات التجارية بين المسلمين والافرنج محكمتين هما:

محكمة التجارة وتعرف باسم «محكمة الفندق» أو «محكمة السوق» و«محكمة الملاحة» أو «محكمة السلسلة» التي تقفل بها الموانىء. وكانت المحكمتان مختلطتين ومؤلفتين من سوريين وافرنج (أربعة سوريين وافرنجيين) بالإضافة الى ذلك فقد وجدت محكمة خاصة بالشاميين تسمى «محكمة الريّس» وهو المسؤول عن التجار

(١) د. زكي النقاش، المرجع السابق، ص ١٩٢ - ١٩٣.

كمنصب شهبندر التجار أو بازار باشي، وكانت مهامها فض الخلافات المحلية حسب القوانين المحلية [1].

واتبع الصليبيون مع تجار المسلمين في بلاد الشام قاعدة الموازين والمكاييل المستعملة في البلاد من قبل وأبقوا على وظيفة المحتسب الاسلامية، التي يقوم صاحبها بمراقبة الأسواق ومنع الغشوش فيها ومراقبة الموازين والمكاييل والصنج (المعاير) ومراقبة جميع الباعة وأصحاب المهن. وكان المحتسب هو المسؤول الفعلي في الادارة المحلية الاسلامية.

أما النقود المتداولة في الامارات الصليبية، فكانت تتمثل بالدينار الاسلامي الذي ضرب لاستخدامه في التجارة مع المسلمين، وقد اشتهر منه الدينار الصوري الذي اعتمده ثم قام بسكه البنادقة في مدينة صور، وهو عملة ذهبية عليها بعض النقوش العربية والآيات القرآنية. ولم يلبث هذا الدينار الصوري أن صار أكثر العملات انتشاراً بسبب جودته. وبالإضافة إلى مدينة صور، فقد وجدت دور للسكة وضرب النقود في كل من عكا وطرابلس وانطاكية، حيث كان الافرنج يسكّون النقود لا سيما الدينار الاسلامي تقليداً للدينار الفاطمي، وما لبث هذا الدينار أن حمل الشعار النصراني بالأحرف العربية. وكان تجار الشام والعراق يتعاملون بهذا الدينار تسهيلاً لأعمالهم التجارية. وهناك رأي يشير إلى أن تعامل الأوروبيين بمثل هذا الدينار الذهبي كان أول تعامل من نوعه مع مثل هذه النقود [2].

ولم يكن للدينار الاسلامي قوة تجارية فحسب، بل كانت له قوة سياسية، لذا حرص الافرنج على تغيير العبارات والآيات القرآنية الواردة فيه، ذلك أنه عندما زار الملك لويس التاسع الامارات الصليبية في الشام بعد حملته الفاشلة على مصر في

---

(١) د. زكي النقاش: العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، ص ٣٥ ـ ٣٦.

(٢) للمزيد من التفصيلات حول العملات المتداولة وأسمائها انظر: د. مصطفى الكناني: العلاقات بين جنوه والشرق الأدنى الاسلامي، ص ٣١١ ـ ٣١٥.

منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، كان الدينار الصوري لا يزال متداولاً ومعمولاً به في الشام بعباراته الاسلامية. وكان البابا «انوسنت الرابع» قد حرّم استخدام هذا الدينار، فما كان من لويس التاسع إلا أن تدخل وتوسط مع المعنيين الافرنج وتوصل إلى حل وسط وهو الابقاء على هذا الدينار وقيمته الشرائية، على أن يتم تغيير الآية القرآنية بعبارة مسيحية تكتب بالعربية حتى يقبل المسلمون على التعامل به.

وكان الايطاليون بالتعاون مع الداوية والاسبتارية قد أصبحوا من أصحاب أكبر البيوتات والمصارف المالية في طرابلس وعكا وقيسارية. وقد ساهم في ذلك الصفقات التجارية بين أوروبا والشرق، مع ما رافقها من صفقات غير مباشرة فيما يعرف باسم «البورصة» (Bourse) التي كانت تقام عادة في الفندق (Fondica) حيث ملتقى التجار. وقد شارك في أعمال الصيرفة إلى جانب الايطاليين فئات من اليهود، فتطورت حركة التبادل التجاري، ووجد نظام الرهونات والشك (الصك) والمعاملات التجارية المتنوعة وقد أوجدت هذه الحركة التجارية أيضاً أوراقاً مالية وشيكات تجارية باتت مقبولة في مختلف بلاد الشام وأوروبة. كما أدى التبادل التجاري بين الشرق والغرب إلى قيام علاقات رسمية بين التجار. وذلك عبر معاهدات رسمية ضمنت قيام التجارة وحقوقها وحقوق التجار في كلا الجانبين. كما تمخضت عن هذه الحركات التجارية قيام نظام المصارف أو البنوك التي ساعدت التجار بامدادهم بالقروض، وأمدتهم بأذون الصرف (الشيكات) وبالسفاتج أي الحوالات المالية.

وكان من نتائج النشاط التجاري أيضاً بين الشرق والغرب في فترة الحروب الصليبية، ظهور عدة مدن أخرى سواء في الشرق أو الغرب، بالإضافة إلى أن هذا النشاط مهد لانهيار النظام الاقطاعي، بعد اجتذاب الفلاحين للمشاركة في الأعمال التجارية لا سيما في هذه المدن الجديدة أو المتطورة في بلدان غربي أوروبة.

الله غالب

الفصل الرابع

المؤثرات الثقافية والطبية

الله غالب

الفصل الرابع

المؤثرات الثقافية والطبية

إن اقامة الصليبيين لفترة تقارب مئتي سنة في بلاد الشام، أدت الى التبادل الثقافي مع المسلمين، كما استفادوا كثيراً من الطب العربي المعمول به في المنطقة. والواقع فإن طبيعة الاتصال البشري أدت الى تعرف الافرنج الى علوم العرب، وتعرف العرب الى العادات والتقاليد الطبية عند الافرنج.

ففيما يختص بالمؤثرات الثقافية، فقد بدأ الافرنج يتعلمون اللغة العربية ويستخدمونها أحياناً في علاقاتهم مع الامارات الاسلامية المحيطة بهم، كما أن المسلمين تعلموا اللغات الافرنجية سواء الفرنسية أو الالمانية أو الايطالية، بدليل أن الاصفهاني[1] وابن جبير وابن منقذ قد أعطى كل واحد منهم بعض الدلائل على ما أشرنا إليه، فمَن جهة استخدم أسامة بن منقذ في كتابه «الاعتبار» عدة كلمات غير عربية افرنجية، كان الافرنج يستخدمونها، ومنها على سبيل المثال استخدامه لكلمة «سرجنت» (Sergeant) في قوله: «فحرد دنكري وقال: أنتم فرساني، وكل واحد منكم له ديوان مثل ديوان مائة مسلم، وهاولأ «سرجند» ما تقدرون تقلعونهم من موضعهم» ثم استخدمها ثانية عندما قال عن أحدهم «فوقف وكان سرجندياً..» ولما تحدّث عن صاحب طرابلس وعن جنده استخدم أسامة كلمة

---

(١) استخدم الأصفهاني في كتابه: الفتح القسيّ في الفتح القدسي، ص ٤٠٣، بعض العبارات الأجنبية ومنها: تركبولي، وسرجندي، وباروني. واسبناري، وفريري... كما استخدم في صفحات أخرى (ص ٤٦٠) عبارة براكيس وهي مأخوذة من الكلمة الايطالية Barcoso وتعني السفينة الحربية.

« تركبول »(Turcopole) وهم جند في خدمة الافرنـج آبـاؤهـم مـن العـرب أو الأتراك وامهاتهم من اليونان أو بالعكس. وقال إن صاحب طرابلس خرج « في ثلاثمائة فارس ومائتي تركبولي وهم رماة الافرنج ». كما استعمل اسامة كلمة البرنس (Prince) عندما تحدث عن « صاحب البيت المقدس بغدوين البرونس ». واستعمل كلمة المدام والداما (Madame), (Dame) في قوله « بحق دينك اعمل للداما ... قل للداما أن تجيء ... »، كما استعمل كلمة « الفيكونت » (Viscount) عندما تحدث عن محاكمات الافرنج بقوله « فجاء البسكند وهو شحنة البلد ... » بالإضافة إلى ذلك فقد استخدم اسامة بن منقذ في كتابه عبارة « بورجوازي » (Bourgeoisie)، فعندما حاولت احدى النساء اتهام اسامة بقتل أخيها، فما كان من أحد الافرنج إلا أن دافع عن أسامة وقال للمرأة « هذا رجل برجاسي لا يقاتل ولا يحضر القتال.. »، كما أن أسامة استخدم عدة تعابير يونانية منها: « سقلاطون » وتعني الثياب الكتانية الموشاة، وكلمة « قنطارية » وتعني الرمح، وكلمة « زربول » أو « زربولة » وتعني الحذاء[1].

كما أن الملك الظاهر بيبرس (٦٥٨ ـ ٦٧٦ هـ، ١٢٦٠ ـ ١٢٧٧) أو كاتبه، قد استخدم تعابير أجنبية لاتينية في رسائله، ومنها رسالة الى بوهمند السادس أمير انطاكية وطرابلس سنة (٦٦٧ هـ ـ ١٢٦٩ م)، ومن التعابير التي استخدمها في رسالته تعبير « كنداسطيل » وهو لفظ لاتيني معناه حاكم القلعة بقوله: « ... وفي حال النزول خرجت عساكرك للمبادرة فكسروا، وتناصروا فما نصروا، وأسر من بينهم كنداسطيل.. » كما استخدم لفظ « المرشان » وهو لفظ لاتيني أيضاً ويعني الحفلات، كما استخدم اللفظ اللاتيني « القسطلان »، ويعني حارس القصر، وذلك في قوله: « .. ففي بعض ساعة مرّ شأن المرشان، وداخل الرهب الرهبان، ولأن للبلاء القسطلان، وجاءهم الموت من كل مكان.. »[2].

---

(١) انظر: أسامة بن منقذ: كتاب الاعتبار، صفحات: ٥١، ٦٧، ٧٥، ١١٩، ١٣٩، ١٤١.

(٢) انظر: المقريزي: السلوك، جـ ١، ص ٩٦٦ ـ ٩٦٩.

كما استخدم الملك المنصور قلاوون أو كاتبه محيي الدين بن عبد الظاهر كاتب الانشاء بعض التعابير اللاتينية في الهدنة الموقعة مع افرنج عكا، فقد استخدم كلمة «السنجال» (Senechal) وهي كلمة لاتينية تعني نائب المملكة أو الكفيل. كما استخدم المسلمون في فترة العهد الصليبي كلمة (Empereur) «الأنبرور» (الامبراطور) كثيراً، كقول أحمد بن عبد السيد صلاح الدين الاربلي إلى الملك الكامل بعد التفاوض مع فريدريك الثاني:

زعم الزعيم «الأنبرور» بأنه سلم يدوم لنا على أقواله

ولا بد من الاشارة الى أنه بالرغم من تأثر أهل الشام باللغات الأجنبية التي استخدمها الصليبيون لا سيما الفرنسية، غير أن تأثير اللغة العربية في الافرنج كان أشمل وأكثر اتساعاً نظراً لقلة الصليبيين إذا ما قيسوا بعدد سكان المنطقة، ثم بسبب مصالحهم التجارية والسياسية رأوا أنه من الأجدى لهم تعلم واستخدام اللغة العربية، وقد دخل الى اللغات الأوروبية أكثر من ألف كلمة عربية [١]. وقد أشار ابن جبير الى استخدام الافرنج ومعرفتهم للغة العربية، عندما تحدث عن موظفي الديوان (الجمرك) في عكا. فقال عن خان عكا التجاري ومصاطبه «فيها كتّاب الديوان من النصارى.. وهم يكتبون بالعربية ويتكلمون بها..» [٢] بالإضافة الى أن المولدين وسادة الاقطاعات قد اتقنوا اللغة العربية [٣]. وذلك للتفاهم والتعامل مع اتباعهم المحليين ولادارة البلاد. وممن تعلم اللغة العربية واطلع على تاريخ العرب «رينو الصيداني» الذي حرص على الاتيان بمترجم وقارىء عربي، يفهمه ويفسر

---

(١) د. سعيد محمود عمران: العلاقات بين الشرق والغرب، ص ٢٥٥.

(٢) ابن جبير: الرحلة، ص ٢١١.

(٣) يذكر جوانفيل في مذكراته عن حملة لويس التاسع الكثير من المترجين الذين كانوا يتقنون اللغتين العربية والفرنسية على السواء. انظر مثلاً، ص ١٦٨، ١٨٠، ٢٠٠، ٢٤٧. كما أشار الدواداري في: كنز الدرر وجامع الغرر، جـ ٨، ص ١٢٥، من أنه كان لبيبرس كتاباً يكتبون بالافرنجي يحتاج اليهم عند مراسلة ملوك الافرنج. كما استخدم الدواداري عدداً من الألفاظ الافرنجية السائدة.

له بعض الأمور . وكان الأمير « همفري الرابع » صاحب تبنين يتقن العربية وكان ترجمان « ريشار » الى الملك العادل في المفاوضات التي دارت بينهما قرب أرصوف ثم قرب يافا سنة ١١٩٢ م ، وقد قام بالمهمة نفسها بلدوين الابليني للقديس لويس التاسع في فترة أسره في مصر . كما أن نقولا العكاوي من الافرنج كان يتقن العربية وكان وسيطاً ومترجماً بين المسلمين والصليبيين في مصر أثناء الاعداد للهدنة بين الجانبين . فضلاً عن أن مبعوث سلطان مصر الى الملك لويس كان مسلماً يتقن الفرنسية والعربية على السواء . وكان نصرانياً افرنجياً سبق له أن دخل الاسلام[1] .

إضافة الى ذلك فإن أحد مبعوثي فريدريك الثاني إلى الملك الكامل كان يتقن العربية . وكان هذا المبعوث هو « الأخ ايفز » (Yives) البريطاني من جماعة الاخوان المبشرين ، وكان يعرف اللسان العربي »[2] . كما أن الملك « بلدوين الثالث » والملك « املريك الأول » شغفا بالآداب العربية ، واهتم سيد صيدا « رينالد » بالعلوم الإسلامية .

والحقيقة فإن عصر الحروب الصليبية قد أنجب أيضاً نخبة من المؤرخين المعاصرين لهذه الحروب سواء من الشرقيين أو الغربيين ، ويمثل كل منهم وجهة نظره في تلك الحروب ، وقد تركوا لنا تراثاً فكرياً هاماً وسجلاً حافلاً وملامح من التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والعلمي والسياسي والعسكري[3] . فمن بين المؤرخين الافرنج « فوشيه دو شارتر » (F. de Chartres) صاحب كتاب (Histor a Hierosolimitana) ووصف فيه تاريخ مملكة القدس الى سنة ١١٥٧ م ، وكذلك فقد ترك مؤرخ فرنسي تاريخاً عن الحروب الصليبية وهو يعرف باسم النورماندي . ومنهم أيضاً غليوم (وليم) الصوري ، وله « تاريخ فيما وراء البحار » (Historia Transmarina) وهو (٣٣) مجلداً ، تناول فيه الأحداث إلى سنة

---

(١) مذكرات جوانفيل ، ص ١٦٨ ، ١٨٠ . للمزيد من التفصيلات انظر : د . عمر تدمري : الحياة الثقافية في طرابلس الشام خلال العصور الوسطى ، صفحات متعددة من الكتاب .

(٢) مذكرات جوانفيل ، ص ٢٠٠ .

(٣) انظر : د . زكي النقاش ، المرجع السابق ، ص ٢٠٠ ـ ٢٠١ .

١١٨٣ م. وقد أصبح هذا الكتاب بعد ترجمته الى الفرنسية أهم مرجع لتاريخ الحروب الصليبية. وبالإضافة الى تاريخ الافرنج في بلاد الشام، فقد ألف غليوم الصوري أيضاً كتاباً عن تاريخ الأمراء المسلمين منذ ظهور النبي»: (History of the Muslims Princes to the Appearance of the Prophet). وظهر من المؤرخين الافرنج المعاصرين غليوم الطرابلسي الذي كتب في تاريخ الحروب الصليبية، كما ترك كتاباً في «حالة العرب» (Tractatus de Statu Sarracenorum) وذلك سنة ١٢٧٣ م، ويضم هذا الكتاب ايضاً بعض ما جاء في كتاب غليوم الصوري «الأمراء المسلمون منذ ظهور النبي». كما ظهرت مؤلفات أخرى عالجت الحملات الصليبية ومنها كتاب صدر باللغة اللاتينية وعنوانه: (Tinerarium Regis Ricardi) وقد ألفه رجل انجليزي من لندن اسمه (Richard of the Holy Trinity)، كما ظهرت قصائد حول الحروب الصليبية باللغة الفرنسية القديمة «لأمبرواز» وعنوانها: «تاريخ الحرب المقدسة» (L'Estoire de la guerre Sainte)، ووجد تقرير يمثل وجهة النظر الفرنسية، كان قد أعده «ريجور» وعنوانه: (Gesta a Philipe Angusti) وهناك مؤلفات المانية تصف حملة فريدريك بربروسة الصليبية منها ما كان تحت عنوان: (Expedition Frideric) والأمر الملاحظ أن بعض الجنود الصليبيين تركوا لنا مذكراتهم ويومياتهم عن الحروب الصليبية كانت لها أهمية كبرى في التأريخ للحملات الصليبية على غرار مذكرات الحملة الصليبية الرابعة.

أما الحملة الصليبية الخامسة، فقد استفيد من رسائل الكاردينال «جيمس فيتري» وتاريخ دمياط الذي ألفه «أوليفر بادينورن» الذي كان كاتباً للكاردينال بيلاجيوس. وهناك كتاب «تاريخ القديس لويس» لمؤلفه «يوحنا سير جوانفيل» (Jean Sire de Joinville) (وهو يهتم بحملة لويس القديس)، كما اعتبرت المراسلات والتقارير البابوية القائمة بين البابوات وزعماء الطوائف والملوك والأمراء من المصادر الهامة. أضف الى ذلك بأن الحروب الصليبية خلّفت أيضاً مجموعة من المؤلفات الدستورية المهتمة بالاجراءات القانونية والتجارية والمحاكمات

وطبيعة العلاقات التشريعية القائمة بين بلاد الشام وأوروبة.

ولا بد من الاشارة الى وجود بعض المصادر الأرمنية التي اهتمت بالتأريخ للحروب الصليبية، ومنها كتاب الأمير الأرمني هايتون (هيثوم كوريكوس) الذي ألفه باللغة الفرنسية بعد التجائه الى فرنسا في أوائل القرن الرابع عشر وهو المعروف باسم: (Flor des Estoires de la terre d'orient). كما كتب ابن العبري باللغتين السريانية والعربية وهو يعتبر من أهم المؤرخين الذين كتبوا عن القرن الثالث عشر (١٢٦٦ ـ ١٢٨٦). ووجدت مصادر فارسية اهتمت بالحقبة الصليبية والمغولية والسلجوقية ومن مؤرخي تلك الحقب: ابن بيبي الذي أرّخ لسلاجقة الروم، وتاريخ رشيد الدين عن المغول.

كما أفرزت الحروب الصليبية عدداً من المؤرخين الشرقيين ومنهم على سبيل المثال: أسامة بن منقذ، ابن جبير، ابن الأثير، ابن شداد، وابن واصل، ابن الفرات، ابن العميد القبطي، ابن عساكر، أبو شامة، القلقشندي، محمد بن علي بن نظيف (صاحب التاريخ المنصوري)، والمقريزي وسواهم. وقد عكف المؤرخون الأوروبيون في العصر الحديث على جمع المواد الوفيرة من هذه الكتب الغربية والشرقية، وذلك في موسوعة علمية تحت عنوان: «مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية».

(Recueil des Historiens des croisades) Paris 1841-1960

وهي تنقسم إلى مجموعتين:

– المجموعة الأولى وتضم ما كتبه المؤرخون الشرقيون في خمسة مجلدات وهي تحت عنوان (Historiens Orientaux).

– المجموعة الثانية وتضم ما كتبه المؤرخون الغربيون في خمسة مجلدات أخرى وهي تحت عنوان (Historiens Occidentaux) [1].

---

(١) للمزيد من التفصيلات الوافية عن مؤرخي ومصادر ووثائق الحروب الصليبية انظر: أرنست باركر: الحروب الصليبية، ص ١٨٥ ـ ٢٠٤. انظر أيضاً: د. جمال الدين الشيال: التاريخ الاسلامي وأثره في الفكر التاريخي الاوروبي، ص ٦٨ ـ ٧٦.

كما تأثرت أوروبا بالعلوم الرياضية السائدة في المشرق. ويقول ارنست باركر إنه بالرغم من أن أقوى ما تأثرت به أوروبا انما جاء من المسلمين باسبانيا، غير أنها تأثرت أيضاً بما جاء من المسلمين في الشرق. فالمعروف أن أول عالم مسيحي في الجبر هو ليوناردو فيبوناتشي (Leonardo Fibonacci) الذي ارتحل الى بلاد الشام (سوريا) ومصر. وبدأ في دراسة اللغات الشرقية، لارتباطها بالبعثات التبشيرية في الشرق. كما أن المبشر الدؤوب ريموند لل (Raymundus Lullus) حثّ مجمع ڤينا سنة ١٣١١ على اتخاذ قرار بإنشاء ست مدارس للغات الشرقية في أوروبا. وبالإضافة إلى هذه المؤثرات العلمية هناك المؤثرات الأدبية، إذ توافر الكثير من القصائد الجديدة التي عالجت الحروب الصليبية، إما عن طريق الرواية، كالتي اشتهرت بها قصيدة امبرواز (Ambroise) التي تروي تاريخ الحملة الصليبية الثالثة، وإما في روح شاعرية حرة، كالتي انبعثت من قصيدة انطاكية [١].

وبالإضافة الى تلك النتائج، فقد شهدت الفترة الصليبية نتاجاً من الفكر الجغرافي، كما أقيمت المؤسسات العلمية لا سيما المدارس، سواء الصليبية أم الاسلامية، وشهدت الفترة ذاتها مدارس مختلطة ضمت أبناء من المسلمين والصليبيين ومن المولدين. وقد قام هذا الجيل بدور نشط في نقل التراثين الغربي والشرقي، كما كان له دور بارز في الحياة الاجتماعية والعلمية والسياسية، وشهدت فترة الحروب الصليبية تنوعاً في المدارس في الامارات الاسلامية، ومنها مدارس تدريس الفقه الاسلامي، تخصص معظمها لتدريس فقه مذهب واحد من المذاهب الأربعة: الشافعي، المالكي، الحنفي، والحنبلي. وكانت أكثر المدارس في بلاد الشام للحنفية، ثم للشافعية ثم الحنابلة فالمالكية. وأنشئت في دمشق وحلب كما في القاهرة مدارس خاصة بالطب [٢]، كما كان الطب يدرّس الى جانب مواد أخرى

---

(١) أرنست باركر: الحروب الصليبية، ص ١٥٠، ١٥١.

(٢) يعتبر ابن العبري (المتوفى ٦٨٥ هـ - ١٢٨٦ م) صاحب كتاب: تاريخ مختصر الدول من أشهر المؤرخين والأطباء في ملطية. ومن أطباء ملطية أبو سالم اليعقوبي الملطي المعروف بابن كرايا. للمزيد من التفصيلات انظر: د. علية عبد السميع الجنزوري: الثغور البرية الاسلامية على حدود الدولة البيزنطية في العصور الوسطى، ص ١٧٨ - ١٨٢.

في بعض المدارس. ومن بين هذه المدارس «المدرسة النورية» التي أنشأها الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي سنة ٥٦٣ هـ. وقد زار هذه المدرسة ابن جبير بعد عودته من الحج، وقد أعجب بفخامتها وبكثرة المدارس في دمشق، ومما قاله: «وبهذه البلدة نحو عشرين مدرسة. ومن أحسن مدارس الدنيا منظراً مدرسة نور الدين رحمه الله، وبها قبره نوّره الله. وهي قصر من القصور الأنيقة، ينصب فيها الماء في شاذروان وسط نهر عظيم، ثم يمتد الماء في ساقية مستطيلة الى أن يقع في صهريج كبير وسط الدار، فتحار الأبصار في حسن ذلك المنظر، فكل من يبصره يجدد الدعاء لنور الدين رحمه الله»[1].

ويلاحظ بأن بلاد الشام في هذه الفترة كانت متطورة من الناحية العلمية، وكانت مقصد طلاب العلم. وقد أكد ابن جبير ذلك، وطلب من أبناء دياره المغاربة طلب العلم من الشام، ومما قاله: «فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا، فليرحل إلى هذه البلاد، ويتغرب في طلب العلم، فيجد الأمور المعينات كثيرة: فأولها فراغ البال من أمر المعيشة ـ وهو أكبر الأعوان وأهمها ـ فإذا كانت الهمة، فقد وجد السبيل الى الاجتهاد، ولا عذر للمقصر، إلا من يدين بالعجز والتسويف، فذلك من لا يتوجه هذا الخطاب عليه، وإنما المخاطب كل ذي همة يحول طلب المعيشة بينه وبين مقصده في وطنه من الطلب العلمي. فهذا المشرق بابه مفتوح لذلك، فأدخل أيها المجتهد بسلام. وتغنم الفراغ والانفراد قبل علق الأهل والأولاد...»[2].

ومن بين تلك المدارس الشامية وبالذات الدمشقية مدارس: الصادرية، النورية الكبرى، العزيزية، القليجية، الأمينية، التقوية، العادلية، الشامية البرانية، العذراوية، الشريفية، العمرية، الصلاحية، الأشرفية، الوجيهية، ومن مدارس الطب المدرسة الدخوارية، وكانت في الأصل داراً للطبيب عبد الرحيم بن علي الدخوار، وقفها لتكون مدرسة للطب، ووقف عليها ضياعاً وأماكن عدة، يستغل

(١) ابن جبير: الرحلة، ص ١٩٨.

(٢) ابن جبير، المصدر نفسه، ص ٢٠٠.

منها ما ينفق في مصالحها وفي مرتب المدرس، ومرتبات المشتغلين فيها. وكان أول طبيب درس فيها هو واقفها نفسه عبد الرحيم الدخوار الذي صنف كتباً عدة في الصناعة الطبية، وقد توفي سنة ٦٢٨ هـ. وكانت هناك مدارس أخرى في حلب وحماه وحمص وحران والقدس[1] وقد رأى ابن جبير بعض هذه المدارس وتحدث عنها. ومما ذكره عن مدارس حلب حينما زارها عام ٥٨٠ هـ وصفه «مدرسة للحنفية تناسب الجامع حسناً.. وهذه المدرسة من احفل ما شاهدناه من المدارس بناء وغرابة صنعة.. وللبلدة سوى هذه المدرسة نحو أربع أو خمس ولها مارستان..».

والحقيقة فإن الظروف العلمية في فترة السلام في العهد الصليبي شهدت ولادة الكثير من العلماء، ليس في ميدان الفقه والحديث والتاريخ والجغرافيا فحسب، وإنما أيضاً في مجالات الرياضيات والفلك والكيمياء وبقية العلوم. ففي الرياضيات مثلاً ألّف علي بن خليفة لصاحب بعلبك كتاباً سمّاه: الموجز المفيد، كما ألّف كتاباً في المساحة، ووضع نجم الدين اللبودي المتوفى سنة ٦٢١ هـ كتاباً في الحساب سماه: كافية الحساب، كما ألّف نجم الدين كتاباً في الجبر والمقابلة سمّاه: الرسالة الكاملة، واختصر في الهندسة كتاب إقليدس. ووجد مهندسون بارعون منهم ابراهيم بن غنائم المصري باني المدرسة الظاهرية في دمشق. أما الكيمياء، فقد شهد عصر الحروب الصليبية رجالاً كانوا يدرسونها، ويقومون بتجاربها، بهدف تحويل المعادن الخسيسة الى الذهب. وقد اهتدى بعض العلماء المسلمين الى اختراعات حربية، كذلك الاختراع الذي أحرق أبراج الأفرنج على أبواب عكا. وأشهر عالمين في الرياضيات والكيمياء كانا من طبقة الأطباء وهما: نجم الدين بن اللبودي المولود في حلب وبلمظفر نصر بن محمود. ومن الأطباء الذين توزعوا ما بين

---

(١) أحمد أحمد بدوي: الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، ص: ٦١ - ٦٩. للمزيد من التفصيلات الوافية يمكن العودة الى الدراسة المتخصصة التي أصدرها الدكتور حسن شميساني تحت عنوان: مدارس دمشق في العصر الأموي. انظر أيضاً: محمد كرد علي: خطط الشام، جـ ٦، ص ٦٦ - ١٢٩.

أنطاكية وطرابلس والقدس: ميخائيل أسقف حلب اليعقوبي، وتيودور الأنطاكي طبيب فريدريك الثاني، وباسيل الحلبي ويعقوب النسطوري الطرابلسي[1].

وهناك علماء كثر في الفلك والنجوم والموسيقى والطب. وكان الطب الشرقي أو العربي والإسلامي قد بات طباً متطوراً أخذ الأفرنج عنه الكثير. ومن الأطباء العرب المعروفين في تلك الفترة: مهذب الدين عبد الرحيم بن علي، الذي طبب الملك العادل من المرض الذي ألمّ به، واسعد بن الياس، وابراهيم بن أبي الوحش، وعدنان بن نصر، وموسى بن ميمون، وأبي الحكم المغربي نزيل دمشق. وهناك اطباء وصيادلة كثر مما لا يسمح المجال بذكرهم جميعاً، علماً أن المؤلفات الطبية كانت عديدة بدورها[2]. وقد بلغ الطب المشرقي من التطور ما دعاه للاهتمام بمداواة الحيوانات وهو ما يعرف بالطب البيطري، وكانت قوانين «المملكة اللاتينية» تنظم حالة الاطباء في الممالك الأفرنجية في البلاد المقدسة، على غرار ما كان معمولاً به في البلاد الإسلامية، من ذلك انها لم تكن تسمح لأي طبيب مزاولة المهنة، قبل أن يؤدي امتحاناً تحت إشراف نقيب أطباء المملكة، وفي مجلس يرأسه الأسقف.

هذه الجذور العلمية والخلفية الثقافية، هي التي أدت إلى تطور الطب العربي وتأثر الأفرنج بهذا الطب، في وقت كانوا يرزحون فيه تحت قيود التقاليد والعادات والمعالجات الوهمية والماورائية. وقد أكد أسامة بن منقذ في كتابه ملامح وشواهد من الطب العربي والطب الأفرنجي ومما قاله عن الطب الأفرنجي[3] «ومن عجيب طبهم أن صاحب المنيطرة كتب الى عمي يطلب منه إنفاذ طبيب يداوي مرضى من أصحابه. فأرسل اليه طبيباً نصرانياً يقال له ثابت، فما غاب عشرة أيام حتى عاد فقلنا له: ما أسرع ما داويت المرضى، قال: احضروا عندي فارساً قد

---

(١) للمزيد من التفصيلات انظر: أحمد أحمد بدوي، المرجع السابق، ص ٢٩٩ - ٣٠٥.

(٢) انظر: أحمد أحمد بدوي، المرجع السابق، ص ٣٠٧ - ٣٢٣.

(٣) أسامة بن منقذ، المصدر السابق، ص ١٣٢ - ١٣٣.

طلعت في رجله دمّلة وامرأة قد لحقها نشاف، فعملت للفارس لبيخة ففتحت الدملة وصلحت. وحميت المرأة ورطبت مزاجها. فجاءهم طبيب افرنجي فقال لهم: هذا ما يعرف شيء يداويهم. وقال للفارس أيما أحب إليك تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين؟ قال: أعيش برجل واحدة، قال: أحضروا لي فارساً قوياً وفأساً قاطعاً. فحضر الفارس والفأس وأنا حاضر، فحط ساقه على قرمة خشب وقال للفارس: إضرب رجله بالفأس ضربة واحدة إقطعها، فضربه، وأنا أراه، ضربة واحدة ما انقطعت. ضربه ضربة ثانية فسال مخّ الساق، ومات من ساعته، وأبصر المرأة فقال: هذه امرأة في رأسها شيطان قد عشقها. احلقوا شعرها، فحلقوه. وعادت تأكل من مأكلهم الثوم والخردل. فزاد بها النشاف، فقال: الشيطان قد دخل في رأسها، فأخذ الموسى وشق رأسها صليباً وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكه بالملح، فماتت في وقتها. فقلت لهم: بقي لكم إليّ حاجة؟ قالوا: لا. فجئت وقد تعلمت من طبهم ما لم أكن اعرفه».

وروى أسامة بن منقذ قصة أخرى تبين مدى تأخر الطب الأفرنجي ومما قاله: «ومن عجيب طبهم ما حدّثنا به كليام دبور صاحب طبرية، وكان مقدماً فيهم. واتفق انه رافق الأمير معين الدين رحمه الله، من عكا الى طبرية وأنا معه. فحدثنا في الطريق قال: كان عندنا في بلادنا فارس كبير القدر فمرض وأشرف على الموت. فجئنا الى قس كبير من قسوسنا قلنا: تجيء معنا حتى تبصر الفارس فلاناً؟ قال نعم، ومشى معنا، ونحن نتحقق انه إذا حط يده عليه عوفي. فلما رآه قال: اعطوني شمعاً، فأحضرنا له قليل شمع، فليّنه وعمله مثل عقد الأصبع. وعمل كل واحدة في جانب أنفه. فمات الفارس، فقلنا له: قد مات. قال: نعم كان يتعذب سددت انفه حتى يموت ويستريح»[1].

ويلاحظ بأن أسامة بن منقذ كان منصفاً، ففي الوقت الذي أشار فيه الى تأخر الطب الأفرنجي، أشار في مكان آخر واعترف بمهارة بعض أطباء الأفرنج في

---

(١) أسامة بن منقذ، المصدر السابق، ص ١٣٧ - ١٣٨.

علاج بعض الأمراض، ومما قاله: «وقد شاهدت من طبهم خلاف ذلك. كان للملك خازن من فرسانهم، يقال له برناد ـ لعنه الله ـ من ألعن الأفرنج وأرجسهم. فرمحه حصان في ساقه فعمّلت عليه رجله وفتحت في أربعة عشر موضعاً. والجراح كلما ختم موضع فتح موضع، وأنا ادعو بهلاكه. فجاء طبيب افرنجي، فازال عنه تلك المراهم وجعل يغسلها بالخل الحاذق. فختمت تلك الجراح وبرأ وقام مثل الشيطان»[1]. ثم ذكر أسامة حادثة أخرى وقعت لأبي الفتح في شيزر يستفاد منها تقدم الطب الأفرنجي، كما ذكر حوادث أخرى تشير الى مدى تقدم الطب الأفرنجي، وإلى أسماء بعض الأطباء العرب مثل يوحنا بن بطلان من حلب «الطبيب المشهور بالمعرفة والعلم والتقدم في صنعة الطب»، والطبيب الشيخ أبو الوفاء تميم الذي عالج أسامة بن منقذ نفسه عندما ألمّ به مرض في شيزر. غير أن أطباء الملك «املريك الأول» كانوا من السوريين، ولما عاد للاعتماد على الاطباء الأفرنج، مرض مرضاً خطيراً، ثم ما لبث أن توفي.[2]

وهكذا يلاحظ من خلال ما أورده أسامة بن منقذ بأن العلاقات العلمية والطبية كانت قائمة في بلاد الشام بين الأفرنج وبين العرب، وأن المؤثرات المتبادلة بين الجانبين قد ظهرت من خلال حاجات السكان الى اطباء من العرب أو الأفرنج، علماً أن الطب الأفرنجي بصورة عامة لم يكن طباً متطوراً أو ناجحاً، مع الإشارة الى أن كثيرين من الأطباء الافرنج قد تأثروا بالطب العربي وبالوصفات والكتب الطبية العربية التي اطلعوا عليها، ومنها على سبيل المثال كتاب المالكي لعلي ابن عباس الذي ترجمه ستيفن البيزوي في انطاكية سنة ١١٢٧ م إلى اللغة اللاتينية. والكتاب الآخر هو «سر الأسرار» الباحث في طب العيون والمنسوب لأرسطو حيث ترجم من العربية الى اللاتينية في انطاكية أيضاً سنة ١٢٤٧ م.

ولما تحدث ابن جبير عن مدارس دمشق، وبيمارستاناتها (مستشفياتها) وصفها

(١) أسامة بن منقذ، المصدر السابق، ص ١٣٤.
(٢) أسامة بن منقذ، المصدر السابق، ص ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥.

ملامح من تقدم الطب العربي وتحدث عن أحد هذه البيمارستانات وكيفية معالجة المرضى فيه ومعاينة الاطباء ومداواتهم، كما تحدث عن البيمارستانات الخاصة بالمجانين ومما قاله «وجرايته في اليوم نحو الخمسة عشر ديناراً، وله قومة بأيديهم الأزمة المحتوية اسماء المرضى، وعلى النفقات التي يحتاجون اليها في الأدوية والأغذية وغير ذلك. والأطباء يبكرون اليه في كل يوم، ويتفقدون المرضى، ويأمرون بإعداد ما يصلحهم من الأدوية والأغذية حسبما يليق بكل انسان منهم.. وللمجانين المعتقلين أيضاً ضرب من العلاج، وهم في سلاسل موثوقون ـ فعون بالله من المحنة وسوء القدر ـ وتندر من بعضهم النوادر الظريفة حسب ما كنا نسمع به..»[1].

كما أشار ابن الأثير وأبو شامة في «كتاب الروضتين» الى هذه البيمارستانات في ايام نور الدين لا سيما بيمارستان الملك العادل الذي بناه في دمشق «فإنه عظيم كثير الخرج، بلغني أنه لم يجعله وقفاً على الفقراء حسب، بل على كافة المسلمين من غني وفقير..» وأشار الى حادثة جرت معه عندما كان مريضاً فقصد ذلك البيمارستان، ومما قاله: «.. فركبت ودخلت البلد وسألت عن طبيب، فدللت على طبيب هذا البيمارستان، فأتيته فيه وهو يكتب نسخاً للمرضى الذين به.. سألني عن حالتي فوصفتها له، فكتب لي نسخة.. فقال: يا مولاي، لا أشك انك في غنى عن هذا، ولكن لا يأنف أحد من صدقة نور الدين وانعامه، والله أن أولاد السلطان صلاح الدين وأهله ليأخذون من الأدوية من هذا البيمارستان.. أنه وقف على كافة المسلمين غنيهم وفقيرهم...».

---

(١) ابن جبير: الرحلة، ص ١٩٨. ويذكر محمد كردعلي عن أحد بيمارستانات حلب في: خطط الشام، جـ٦، ص ١٦٠ ـ ١٦١ ما يلي:
«ان كل مجنون يخص به خادمين يخدمانه فينزعان عنه ثيابه كل صباح ويحمانه بالماء البارد، ثم يلبسانه ثياباً نظيفة ويحملانه على أداء الصلاة ويسمعانه قراءة القرآن يقرأه قارىء حسن الصوت ثم يفسحانه في الهواء الطلق ويسمع في الآخر الأصوات الجميلة والنغمات الموسيقية الطيبة». انظر أيضاً: د. محمد محمد مرسي الشيخ: الامارات العربية في بلاد الشام، ص ٤١٥.
للمزيد من التفصيلات عن البيمارستانات، انظر محمد كرد علي، المرجع السابق، ص ١٥٦ ـ ١٦٣.

الله غالب

الفصل الخامس

المؤثرات المعمارية العسكرية والمدنية

الله غالب

الفصل الخامس

المؤثرات المعمارية العسكرية والمدنية

عندما تحدث الرحّالة عن بلاد الشام أشاروا الى وجود المنشآت المعمارية من حصون وقلاع ومساجد وحمامات وخانات وقيساريات ورساتيق وشوارع منتظمة، وذلك قبل قيام الحروب الصليبية أو في اثنائها أو بعدها ونعطي أمثلة موجزة عن هذا الواقع من خلال ما كتبه بعض الرحّالة ومن بين هؤلاء المقدسي الذي وصف على سبيل المثال حمص بقوله: « حمص ليس بالشام بلد أكبر منها وفيه قلعة متعالية عن البلد ترى من خارج... وما كان منها على الساحل حصينة... »[1]. أما ابن حوقل فقد وصف مدينة صور بقوله: « مدينة صور من أحصن الحصون التي على شط البحر.. وإن عامة حكماء اليونانية منها » وعن بيروت فقال عنها « وهي مع حصنها حصينة منيعة السور جيدة الأهل ». وعن مدينة حمص قال: « جميع طرق حمص من أسواقها وسككها مفروشة بالحجارة مبلّطة ». أما قنسرين، فكان فيها سور حصين « وكان لها أسواق حسنة وحمامات وفنادق كثيرة ومحال وعراص فسيحة » وكانت طرسوس « وتشتمل من الخيل والرجال والعدة والعتاد والكراع والسلاح والعمارة والخصب والغلات والأموال والسعة في جميع الأحوال على حال لم يتصل بمثله ثغر من ثغور المسلمين لكافر ولا مسلم... »[2] وكان فيها الفنادق والدور والحمامات والخانات... وتحدّث عن حصن برزَوَيه « وهو حصن حصين

---

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، ص ١٥٦. انظر أيضاً ما ذكره عن عكا وصور...، ص ١٦٢ - ١٦٣.

(٢) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ١٦٠، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤...

وحجر منيع، وقف عليه الروم غير وقت فاستحسنوه، ولم يتعرضوه، ثم هادنوا أهله خوفاً مما علق ببلاد المسلمين من الخذلان وهلاك السلطان وقلة الإيمان، وإن بقيت الحالة على ما نحن به فالأمر سهل والخوف المتوقع أعظم وأجلّ...».

وأشار الرحّالة ابن جبير المعاصر للحروب الصليبية الى المظاهر العمرانية في بلاد الشام، ومما قاله على سبيل المثال لا الحصر عن عمران مدينة حمص «وأسوار هذه المدينة في غاية العتاقة والوثاقة، مرصوص بناؤها بالحجارة الصم السود، وأبوابها أبواب حديد سامية الأشراف هائلة المنظر، رائعة الإطلال والأنافة، تكتنفها الأبراج المشيدة الحصينة... حمص كلها مارستان». ثم تحدث عن عمائر دمشق ومدارسها ومارستاناتها «وهذه المارستانات مفخر عظيم من مفاخر الإسلام، والمدارس كذلك... وأما الرباطات التي يسمونها الخوانق فكثيرة، وهي برسم الصوفية، وهي قصور مزخرفة، يطرد في جميعها الماء على أحسن منظر يبصر... ولهذه البلدة قلعة يسكنها السلطان... وبهذه البلدة أيضاً قرب مائة حمام... وأسواق هذه البلدة من أحفل أسواق البلاد.. ولا سيما قيسارياتها وهي مرتفعات كأنها الفناديق»[1]، ثم تحدث ابن جبير عن أبراج صور وعكا والمظاهر العمرانية في مختلف بلاد الشام.

ولما جاء الصليبيون الىَ بلاد الشام، وأقاموا ممالك لهم فيها، كان من الطبيعي أن يتأثروا بالفن المعماري الإسلامي، فاتخذوا في بناء بيوتهم وقصور الأمراء والملوك منهم الطراز العربي، المنسجم مع مناخ وظروف البلاد فسكنوا في الأبنية ذات الأفنية والإيوانات الفسيحة، تحيط بها الغرف والقاعات وتتوسطها «النوفرة» يتدفق منها الماء وينطلق من النافورة عالياً. كما تأثر الفرنج بفنون الزخرفة المنزلية، فقاموا بتصفيح الجدران والسقوف بالرخام والفسيفساء، وتمويهها بالذهب والألوان المعدنية الأخرى. كما كانت الزخرفة تغطي الجدران

(١) ابن جبير: الرحلة، ص ١٨٢، ٢٠٢. حول القلاع والهندسة المعمارية في بلاد الشام في العهد الصليبي. انظر: محمد كردعلي: خطط الشام، جـ ٥، ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩.

على شكل توريقات وتكوينات هندسية تعرف بالأرابسك (Arabesque).

ثم اتخذ الأفرنج لبيوتهم وقصورهم من الأثاث ما يتلاءم معها ومع الروح الشرقية العربية، فافترشوا الطنافس والسجاد، وزينوا منازلهم بالرياش الفاخر والأواني النحاسية والآنية الزجاجية والخزفية المصنوعة في الساحل الشامي لا سيما صور.

والحقيقة فإن أول ما احتاجه الصليبيون من العمائر، كان ما يتعلق منها بأسباب الدفاع عن أنفسهم، فكان لا بد من الاهتمام بالقلاع وأسوار المدن للحراسة ولاستخدامها كمراكز إدارية عسكرية ـ مدنية. ثم قاموا بإصلاح بعض العمائر مثل أسوار بيت المقدس التي سبق أن شيدها الفاطميون، وكذلك برج داوود الذي أدخلوا عليه بعض التعديلات والتحسينات. ومن القلاع التي أقامها الصليبيون القلعة التي شيدها ريمونت كونت تولوز عند جبل الحاج سنة ١١٠٤ لاتخاذها مقراً لقيادته في طرابلس الإسلامية. كما تم في الفترة ذاتها بناء قلاع طبرية وتبنين. غير أن العهد الزاهر لتشييد القلاع إنما بدأ في العقد الثاني من القرن الثاني عشر في عهد بلدوين الثاني، واستمر زمن فولك «فلك» حين أقيم من الحصون الرائعة أمثال قلاع مؤاب وهونين وصهيون ومعاقل يهودا والصافية ويبنة. وقد اكتشف الصليبيون أن العمارة الحربية بلغت من التطور في الشرق ما يفوق ما كان موجوداً في الغرب، علماً أن المسلمين سبق لهم واقتبسوا بعض الأنظمة المعمارية عن البيزنطيين. وكانت العمارة البيزنطية ـ العربية قد تطورت عبر مراحل عديدة، فما كان من الصليبيين إلا أن أخذوا عند استقرارهم في الشرق نظام تلك العمارة المشتركة والتي قام العرب والمسلمون بتطويرها، فأضاف الصليبيون الى تلك العمارة بعض الملامح المعمارية التي تطلبتها الظروف العسكرية في المنطقة.

هذا وقد لاحظ الصليبيون بأن العمارة الإسلامية لها مميزات كثيرة يمكن الأخذ بها من خلال الأنظمة المعمارية الماثلة في المساجد والقصور والمساكن والحصون والحمامات والأسوار والمدارس. وكانت هذه العمارة قد ابتكرت عناصر عديدة منها العقود متعددة المظاهر والتركيب بعكس العقد الروماني الذي كان نصف

دائري فحسب، ومن تلك العقود الإسلامية: العقد المنفرج والعقد المدبب والعقد المطوّل والمنفرج والمنبعج والمنبطح وسوى ذلك من الخطوط الهندسية والدلايات والمقرنصات والصنج المعشقة والمكعبات والمضلعات والنقوش على الجص بواسطة الحفر أو الصب، والنحت والزخرفة على الأحجار أو الأخشاب، والتي تضمنت صوراً للنباتات والحيوانات والطيور وأحياناً صور الإنسان. كما أعجب الصليبيون بالمضلعات النجمية وأشكال التوريق والتوشيح المعروف باسم الأرابسك. كما لفت نظرهم الخط العربي الذي كتب على الجدران بأساليب بارعة ومتعددة شكلت رسوماً آية في الجمال[1].

ولا بد من الإشارة بأن المؤثرات المعمارية الإسلامية انعكست على الحصون والقلاع والمباني الصليبية التي اقيمت في الشام وفي الغرب. وفيما يلي بعض هذه العناصر المعمارية التي اقتبسها الصليبيون من الشرق وهي:

١ ـ اقتبس الصليبيون عنصراً زخرفياً متصلاً بالعقد المنفوخ، وهو إحاطة هذا العقد باطار مستطيل يوضح حدوده ومعالمه، وهو عنصر ابتكرته الهندسة المعمارية الإسلامية التي انتشر استعمالها في بلاد المشرق والمغرب معاً.

٢ ـ الشرفات البارزة أو «السقاطات»[2] وهي من المؤثرات الإسلامية في

---

(١) في وصف المقدسي لجامع دمشق بعض التفصيلات المعمارية والفنية ومما قاله عنه: «والجامع أحسن شيء للمسلمين اليوم، ولا يعلم لهم مال مجتمع أكثر منه، قد رفعت قواعده بالحجارة الموجهة كباراً مؤلفة وجعل عليها شُرف بهية، وجعلت أساطينها أعمدة سوداً ملساً على ثلاثة صفوف واسعة جداً. وفي الوسط إزاء المحراب قبة كبيرة وأدير على الصحن أروقة متعالية بفراخ فوقها. ثم بُلط جميعه بالرخام الأبيض وحيطانه إلى قامتين بالرخام المجزّع. ثم إلى السقف بالفسيفساء الملونة في المذهبة، صور أشجار وأمصار، وكتابات على غاية الحسن والدقة ولطافة الصنعة، وقلّ شجرة أو بلد مذكور إلا وقد مُثّل على تلك الحيطان وطليت رؤوس الأعمدة بالذهب. وقناطر الأروقة كلها مرصعة بالفسيفساء نقوش وطروح. والسطوح كلها ملبسة بشقاق الرصاص، والشرافيات من الوجهين بالفسيفساء. وعلى الميمنة في الصحن بيت مال على ثمانية عمد مرصع حيطانه بالفسيفساء... ومن أعجب شيء فيه تأليف الرخام المجزّع كل شامة الى أختها...». المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، ص ١٥٧ ـ ١٥٨.

(٢) انظر: د. أحمد مختار العبادي: العلاقات بين الشرق والغرب، ص ١٠٩.

العمارة الأوروبية، وكانت هذه الشرفات قد استخدمت للمرة الأولى على بوابة قصر الحيرة الشرقي في بلاد الشام في سنة (١١٠ هـ - ٧٢٩ م)، وأستخدمت فيما بعد في بوابة النصر في القاهرة، في سنة (٤٨٠ هـ - ١٠٨٧ م)، ثم استخدمت بكثرة في الحصون الشامية في العصر الأيوبي، ومنها انتقلت إلى أوروبا بواسطة احتكاك الصليبيين بالمسلمين وتأثرهم بالعمارة الإسلامية. ونجد أمثلة من هذا التأثير في فرنسا في قصر « جايار » (Chateau Gaillard) وفي « شاتيون » (Chatillon) وفي انجلترا في « نورويتش » (Norwich) وفي « ونشستر » (Winchester) . ولم تلبث هذه الأنواع من الشرفات أن انتشرت بكثرة في اوروبا في أواخر القرن الثاني عشر وفي القرنين التاليين، الثالث عشر والرابع عشر، ويتجلى ذلك في بوابة حصن « فيلنف افينيون » في فرنسا (Villeneuve - Les Avignons) .

ولقد انتقلت هذه الشرفات أو السقاطات إلى الغرب باسم (Machicoli) . وكانت عادة شرفة صغيرة من الحجارة أو الخشب تبرز عن الجدار ولها فتحات من أسفل، وتقام عادة فوق أسوار الحصن وفي أعلى مداخله، فيصبح باستطاعة الجنود من خلال هذه الفتحات إلقاء المقذوفات أو السوائل الكيمائية أو الزيتية الحارة على المهاجمين. وكان المسلمون قد استخدموا السقاطات على نطاق واسع في شمال الشام، ثم ما لبث أن تأثر بها الصليبيون فنقلوها إلى أوروبة.

٣ - المدخل ذي المرافق المتعددة، المتمثلة بالمنحنيات والمنعطفات، وهدفها توفير إمكانيات الدفاع والتحكم في العدو المهاجم من باب الحصن عبر هذه الممرات الضيقة الطويلة. وكان المسلمون قد استخدموا هذا المدخل منذ بناء بغداد في عهد أبي جعفر المنصور العباسي في القرن الثامن الميلادي. واستمر هذا الأسلوب يظهر في مرافق المسلمين المعمارية. وقد بدا واضحاً مدى تأثر الصليبيين بهذا الطراز من الفن المعماري، وطبقوه على القلاع التي أقاموها في بلاد الشام مثل حصن الأكراد الواقع في شمالي شرقي طرابلس الشام.

٤ ـ المقرنصات (Squinches)[١] وهو أسلوب من أساليب النظام المعماري الإسلامي، وكانت أول قبة إسلامية قائمة على مقرنصات معقودة هي قبة المحراب في المسجد الجامع بالقيروان التي بنيت في سنة (٢٢١ هـ ـ ٨٣٦ م). كما استخدمت في كثير من عمائر المسلمين. والمقرنصات عبارة عن طبقات مصفوفة ببراعة فنية ولا يقصد فيها الزخرفة فحسب، بل هي ركن هام في الهندسة المعمارية لا سيما في بناء القباب والمآذن. وهي في المآذن تستخدم عادة أسفل دورات المؤذن لإيجاد البروز الذي يتحرك فيه المؤذن. فهي بمثابة الكوابيل التي نشاهدها في أسفل الشرفات لحملها. وتظهر المقرنصات بشكل واضح في مسجد الحمراء في قرطبة وبشكل ملفت للنظر. وقد اعتمدها الصليبيون في بناء قلاعهم وحصونهم وكنائسهم وأبنيتهم عامة. وقد أشار ابن جبير الى هذه المقرنصات عندما تحدث عن جامع حلب فقال: « وقد استفرغت الصنعة القرنصية جهدها في منبره، فما أرى في بلد من البلاد منبراً على شكله وغرابة صنعته.. »[٢].

٥ ـ المتراس (Portcullis) وقد تأثر الصليبيون بهذا النظام المعماري الإسلامي، وهو عبارة عن إطار من الحديد مدبب الأطراف من أسفله، وهو ينزلق عمودياً في جانبي باب الحصن كالشبكة ويسدل بواسطة سلاسل حديدية أو حبال متينة عند محاولة العدو اقتحام القلعة.

٦ ـ البربقان (Barbican) والبربقان أو البرنجان كلمة عربية فارسية الأصل، تطلق على البرج الكبير الذي يبنى على مسافة من باب الحصن أو قنطرته المقامة فوق الخندق المليء بالماء والمحيط بالحصن. وقد تأثر الصليبيون بهذا النظام فطبقوه على قلاعهم في بلاد الشام، كما نقلوه معهم الى أوروبا. ومما قاله ابن جبير عن نظام الأسوار والخنادق المطبق في قلعة حلب « ... سوران حصينان من الجانب الذي ينظر للبلد، ويعترض دونها خندق لا يكاد البصر يبلغ مدى عمقه، والماء ينبع فيه ».

---

(١) د. أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص ١١٠.
(٢) ابن جبير: الرحلة، ص ١٧٩.

٧ ـ الأبراج، ولقد عرف المسلمون هذا النظام وطبقوه في عمائرهم العسكرية والدينية، وكانت أبراج الكنائس في طليطلة صورة مطابقة لأبراج ومآذن المغرب والأندلس، وتبيّن بأن بعض الأبراج الأوروبية بدت كأنها مآذن أندلسية.
وكانت قلعة حلب في بلاد الشام من القلاع العسكرية الهامة، وقد تميزت بسورها وتعدد أبراجها، وقد تأثر الصليبيون بهذا النظام في بلاد الشام. ومما قاله ابن جبير عن قلعة حلب: «وشأن هذه القلعة في الحصانة والحسن أعظم من أن تنتهي الى وصفه، وسورها الأعلى كله أبراج منتظمة فيها العلالي المنيفة والقصاب المشرفة، قد تفتحت كلها طيقاناً. وكل برج منها مسكون، وداخلها المساكن السلطانية، والمنازل الرفيعة الملوكية».

ومن المفيد واعتماداً على منهج الدراسة التاريخية المقارنة، كان لا بد من الإشارة الى أوضاع العمارة والمظاهر العمرانية بعد انتهاء الحملات الصليبية وانتهاء الوجود الصليبي في بلاد الشام، وذلك من خلال ما ذكره الرحّالة ابن بطوطة في الرحلة التي بدأها ابتداء من السنة (٧٢٥ هـ ـ ١٣٢٦ م). فقد أشار الى وضع سور مدينة القدس بقوله: «وكان الملك الصالح الفاضل صلاح الدين بن أيوب جزاه الله عن الإسلام خيراً لما فتح هذه المدينة هدم بعض سورها، ثم استنقض الملك الظاهر هدمه خوفاً ان يقصدها الروم فيمتنعوا بها»[١]. أما وضع مدينة عكا حسبما وصفه ابن بطوطة فقال: «فوصلت الى مدينة عكا، وهي خراب، وكانت عكة قاعدة بلاد الأفرنج بالشام ومرسى سفنهم.. ثم سافرت منها الى مدينة صور وهي خراب..» وبعد أن أشار الى مدينتي صيدا وطبريا، وصف مدينة بيروت وأسواقها «ثم وصلت الى مدينة طرابلس، وهي إحدى قواعد الشام وبلدانها الفخام... تملكها الروم زماناً، فلما استرجعها الملك الظاهر خربت..»[٢]، أما مدينة حلب فقد جاء فيها وصف لقلعتها بقوله: «لها قلعة شهيرة الامتناع بائنة

---

(١) ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، جـ ١، ص ٧٦.
(٢) ابن بطوطة، المصدر نفسه، جـ ١، ص ٨١، ٨٢، ٨٣، ٨٧.

الارتفاع، تنزهت حصانة من أن ترام أو تستطاع..»، ثم اكمل وصف ابن جبير لهذه القلعة التي سبق أن أشرنا اليه.

وبعد أن وصف ابن بطوطة حلب وجبلة، تحدث عن حصن القصير فقال فيه «هو حصن حسن، أميره علاء الدين الكردي... ثم سافرت الى حصن الشغر بكاس، وهو منيع في رأس شاهق. أميره سيف الدين الطنطاش..»[1]. وبالمناسبة فقد أشار ابن بطوطة الى استمرار العلاقات الطيبة بين المسلمين والمسيحيين بعد انتهاء الحروب الصليبية، ومما قاله: «وبخارج اللاذقية الدير المعروف بدير الفاروص، وهو أعظم دير بالشام ومصر، يسكنه الرهبان، ويقصده النصارى من الآفاق. وكل من نزل به من المسلمين فالنصارى يضيفونه.. وميناء هذه المدينة عليها سلسلة بين برجين..»[2] أما حصن المرقب فهو «من الحصون العظيمة يماثل حصن الكرك، وبناؤه على جبل شامخ وخارجه ربض ينزله الغرباء، ولا يدخلون قلعته، وافتتحه من يد الروم الملك المنصور قلاوون..»[3].

وهكذا يلاحظ استمرار بعض الملامح العمرانية في زمن ابن بطوطة بينما دمر أو خرب البعض الآخر، علماً أن بعض المناطق شهدت تطورات عمرانية تبعاً لتطور الظروف العسكرية والسياسية، أو تبعاً للمقتضيات السكانية.

ويذكر ابن الجيعان المعاصر للمماليك أوضاع بعض القلاع الشامية في عهد السلطان قايتباي الذي اطلع على هذه القلاع خلال رحلته (٨٧٢ - ٩٠١ هـ - ١٤٦٧ - ١٤٩٦ م) ومما قاله عن عمائر وميناء وحمامات اللاذقية «هي بناء عظيم محكم، بها دكاكين كثيرة خراب وعامر، وضع الروم، كان بها ثلاث قلاع متلاصقات، وإلى الآن خراب، وهي واسعة الفناء، عالية البناء، بمينة مستديرة، بها مخازن وبرجان على فوهتها، بها سلسلة عظيمة... ومينتها مستديرة تسع من

---

(١) ابن بطوطة، تحفة النظار، جـ ١، ص ٩٢.
(٢) ابن بطوطة، المصدر نفسه، جـ ١، ص ٩٩.
(٣) ابن بطوطة، المصدر نفسه، جـ ١، ص ٩٩.

داخل السلسلة سبع مراكب متلاصقة كبار، وبها حمامات عامرة وخراب».
وأضاف ابن الجيعان بأن المسلمين نقلوا عن الأفرنج بعض الصناعات منها الطواحين. ومما قاله: «ان باللاذقية طاحوناً تدور مع الريح حيث كان يميناً وشمالاً، شرقاً وغرباً، ويطحن بها على عادة طواحين الفرنج الى الآن، وإذا طحنت مستمرة في طول اليوم والليلة تطحن اثني عشر اردباً بالكيل المصري وعمل الطاحون المذكورة شخص من اللاذقية كان أسر ببلاد الفرنج وشاهدها عندهم، ولما خُلّصَ وحضر إلى بلده عملها وهي اعجوبة»[٦].

---

(١) ابن الجيعان: القول المستظرف في سفر مولانا الملك الأشرف، ص ٥٨ ـ ٥٩. وحول العمارة الاسلامية الى فترة العهد العثماني. انظر مقالنا: «العمارة في العهد العثماني من خلال سجلات المحكمة الشرعية في بيروت» في المجلة المعمارية ـ العدد الأول ١٩٨٥، ص ٨٥ ـ ٨٩. كلية الهندسة المعمارية ـ جامعة بيروت العربية.

الله غالب

الفصل السادس

المفاوضات السياسية والسلمية
بين المسلمين والإفرنج

الله غالب

الفصل السادس

المفاوضات السياسية والسلمية بين المسلمين والأفرنج

كان من طبيعة الحروب أن يجري خلالها أو بعدها الاتصالات والمفاوضات السياسية، وقد جرى مثل هذه الاتصالات بين المسلمين والافرنج خلال الحروب الصليبية في بلاد الشام، وكان لهذه الاتصالات طابع الحدة حيناً، وطابع اللين حيناً آخر. وكانت الاتصالات في إحدى مراحلها عبارة عن تهديدات واتهامات، بينما كانت في مراحل أخرى تعبر عن مدى تفهم الجانبين لبعضهما البعض.

فبعد موقعة حرّان بين الصليبيين والمسلمين في عام ٤٩٧ هـ - ١١٠٤ م وانتصار المسلمين، كان من بين الأسرى بلدوين أف بورج أمير الرها، وجوسلين صاحب تل باشر وبندكت رئيس أساقفة الرها وقد وقعوا أسرى في قبضة جكرمش صاحب الموصل. وبعد حوالي خمس سنوات أي عام ١١٠٩ م اطلق سراح جوسلين الذي سعى لإطلاق سراح بلدوين اف بورج. وكانت الفدية التي تقررت على بلدوين سبعين ألف دينار، فأخذ جوسلين معه ثلاثين ألف وذهب إلى قلعة جعبر ووضع نفسه رهينة مكان بلدوين وأخرجه من سجنه. ولما علم صاحب الموصل بأن جوسلين عاد إلى السجن تعجب وطلب رؤيته واللقاء به لما سمعه عن وقاره وهيبته. فلما رآه صاحب الموصل خفض الفدية عشرة آلاف دينار، فركع جوسلين ثم سجد على الأرض تعبيراً عن تقديره واحترامه وشكره لصاحب الموصل، فخفض له عشرة آلاف دينار أخرى. وفي اليوم التالي ألتقى صاحب الموصل بجوسلين وطلب منه الركوب على حصانه وإعطاء سلاحه، ثم أعاد له كل

ما قدمه من فدية، فما كان من جوسلين إلا أن جدد شكره، وعاد مسروراً[1].

وكانت الاتصالات قد استمرت الى عهد صلاح الدين الأيوبي وخلفائه من بعده، ومن بين هذه الاتصالات رسالة امبراطور الروم «ايساكيوس» الى صلاح الدين، تضمنت التحذير من عبور ملك الألمان بجيشه بلاد الروم في طريقه الى بلاد الشام، كما تضمنت المودة القائمة بين الشخصين ومما جاء في هذه الرسالة: «المحبة والمودة، وقد وصل خط نسبتك الذي انفذت الى ملكي وقرأناه وعلمنا منه أن رسولنا توفي.. ولا بد لنسبتك أن تهتم بإنفاذ رسول الى ملكي ليعرف ملكي ما بعثت إليك مع رسولي المتوفى.. وما اظن انه سمع نسبتك اخباراً ردية. وأنه قد سار في بلاد الألمان، وما هو عجب فإن الأعداء يرجفون بأشياء كذب على قدر أغراضهم... وقد خسروا كثيراً من المال والدواب والرحل والرجال، ومات منهم كثير وقتلوا وتلفوا وبالشدة قد تخلصوا من أيدي أجناد بلادي. وقد ضعفوا بحيث أنهم لا يصلون الى بلادك، وإن وصلوا كانوا ضعافاً بعد شدة كثيرة، لا يقدرون ينفعون جنسهم ولا يضرون نسبتك. وبعد ذلك كله العجب كيف نسيت الذي بيني وبينك؟ وكيف ما عرفت لملكي شيئاً من المقاصد والمهات؟ ما ربح ملكي من محبتك إلا عداوة الفرنج وجنسهم. ولا بد لنسبتك، كما قد كتبت لملكي في كتابك الذي قد أنفذت إلينا من انفاذ رسول حتى يعرفني جميع ما قد كتبت إليك في القديم من الحديث، ويكون ذلك بأسرع ما يمكن، ولا تحمل على قلبك من مجيء الأعداء الذين قد سمعت بهم، فإن إدبارهم على قدر نيتهم وآرائهم»[2].

والأمر الملاحظ في هذه الفترة أن ملك الأرمن كاغيكوس صاحب قلعة الروم

---

(١) Michael Le Syrian; Chronique, Vol. III, p. 195-196, Ed. chabot 1899-1910.
د. محمود سعيد عمران: القادة الصليبيون الأسرى في أيدي الحكام المسلمين، ٤٩٣ - ٥٣١ هـ، ١١٠٠ - ١١٣٧ م، ص ٣٥، انظر أيضاً: ص ٦٨.

(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ١٣٢ - ١٣٣. انظر أيضاً: د. محمد ماهر حمادة: وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الاسلامي، ص ١٨٢ - ١٨٣.

الواقعة على أطراف الفرات، أرسل رسالة إلى السلطان صلاح الدين الأيوبي حذّره فيها وأخبره عن تحركات ونشاطات ملك الألمان، كما أرسل له عدة تقارير حول التحركات الألمانية في المنطقة. وهذه دلالة على أن ملك الأرمن كان في هذه الفترة من مؤيدي السلطان صلاح الدين ضد الافرنج[1].

وبعد معارك عكا وانتصار الصليبيين جرت مفاوضات بين الفرنج وبين صلاح الدين دارت حول فك الأسرى المسلمين مقابل مائة ألف دينار تدفع على ثلاث دفعات. ومما قاله صلاح الدين في رسالته الى ملك الصليبيين في عكا: «أما أن ترسلوا إلينا أصحابنا، وتتسلموا الذي عيّن لكم في ذلك النجم، ونعطيكم رهائن على الباقي، تصل إليكم في نجومكم التالية، وأما أن تعطونا رهائن على ما نسلمه اليكم حتى تخرجوا الينا أصحابنا». غير أن الصليبيين لم يتجاوبوا مع مطالب صلاح الدين.

وأثر ذلك جرت مراسلات بين ملك الإنجليز وبين صلاح الدين، أوردها ابن شداد في «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» وقد طلب ملك الإنجليز الذي احتل عكا عقد اجتماع للتفاهم مع السلطان صلاح الدين، فما كان من الأخير إلا أن أرسل إليه رسالة حدد فيها مفاهيم وقواعد الاجتماع ومما قاله: «الملوك لا يجتمعون إلا عن قاعدة، وما يحسن منهم الحرب بعد الاجتماع والمؤاكلة، وإذا أراد ذلك فلا بد من تقرير قاعدة قبل هذه الحالة، ولا بد من ترجمان نثق فيه في الوسط، يفهّم كل واحد منا ما يقوله الآخر. فليكن الرسول بيننا ذلك الترجمان فإذا أسفرت القاعدة وقع الاجتماع بعد ذلك إن شاء الله تعالى»[2]. وقد استمرت المفاوضات بين الجانبين عبر الملك العادل شقيق صلاح الدين. وفي إحدى رسائل ملك الإنجليز عرض الصلح على المسلمين، ومما قاله لصلاح الدين عبر الملك العادل: «إن المسلمين والفرنج قد هلكوا، وخربت البلاد وخرجت من يد

---

(١) انظر: ابن شداد: النوادر، ص ١٢٤ ـ ١٢٦.

(٢) ابن شداد: النوادر، ص ١٦٣.

الفريقين بالكلية، وقد تلفت الأموال والأرواح من الطائفتين، وقد أخذ هذا الأمر حقه، وليس هناك حديث سوى القدس والصليب والبلاد، والقدس فمتعبدنا ما ننزل عنه، ولو لم يبق منا واحد، وأما البلاد فيعاد إلينا منها ما هو قاطع الأردن، وأما الصليب، فهو خشبة لا مقدار له عندكم وهو عندنا عظيم، فيمن به السلطان علينا ونصطلح ونستريح من هذا العناء الدائم».

فما كان من صلاح الدين الأيوبي إلا أن رد على هذه الرسالة بقوله: «القدس لنا كما هو لكم، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم، فإنه مسرى نبينا ومجتمع الملائكة، فلا يتصور أن ننزل عنه ولا نقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين، وأما البلاد فهي أيضاً لنا في الأصل، واستيلاؤكم كان طارئاً عليها لضعف من كان بها من المسلمين في ذلك الوقت، وما أقدركم الله على عمارة حجر منها ما دام الحرب قائماً... ولا يجوز أن نفرط فيها إلا لمصلحة راجعة إلى الإسلام هي أوفى منها»[1].

فما كان من الملك الإنجليزي إلا أن أرسل رسالة أخرى إلى صلاح الدين تضمنت ضرورة التفاهم على تقسيم البلاد بينه وبين الملك العادل، ومما قاله: «اني احب صداقتك ومودتك، وانك ذكرت انك اعطيت هذه البلاد الساحلية لأخيك، فأريد أن تكون حكماً بيني وبينه، ولا بد أن يكون لنا علقة بالقدس الشريف.. ومقصودي أن تقسم البلاد بحيث لا يكون عليه لوم من المسلمين، وتقسم البلاد بيني وبينه، ولا عليّ لوم من الأفرنجية»[2]. وأردف الملك الإنجليزي هذه الرسالة برسالة أخرى حول القدس وتقسيم مناطق النفوذ بطريقة سلمية وقال: «أنا قد وافقنا على مقاسمة البلاد، وإن كل من في يده شيء فهو له، فإن كان ما في أيدينا زائداً، أخذتم في مقابلته ما يقابل الزيادة مما يخصنا، وإن كان ما في ايديكم أكثر فعلنا كذلك، ويكون القدس لنا، ولكم فيه الصخرة»[1]. ومما قاله لصلاح

(١) ابن شداد: النوادر، ص ١٩٤.

(٢) ابن شداد، المصدر نفسه، ص ٢٠٢.

الدين في رسالة أخرى « .. والأصلح حقن الدماء ، ولا ينبغي أن تعتقد أن ذلك عن ضعف مني ، بل المصلحة .. »[1].

هذا وقد استمر الملك الإنجليزي في مفاوضاته ومراسلاته مع صلاح الدين مبدياً ضرورة إحلال السلام في المنطقة ، ومما قاله في إحدى رسائله : « لا يجوز لك أن تهلك المسلمين كلهم ، ولا يجوز لي أن أهلك الفرنج كلهم . وهذا ابن اختي الكندهري قد ملكته هذه الديار وسلمته إليك يكون هو وعسكره بحكمك ، ولو استدعيتهم إلى الشنق سمعوا وأطاعوا . أن جماعة من الرهبان والمنقطعين قد طالبوا منك كنائس فما بخلت عليهم بها ، وأنا أطلب منك كنيسة ، وتلك الأمور التي كانت تضيق صدرك بما كان تجري المراسلة مع الملك العادل قد قلت بتركها وأعرضت عنها ، ولو اعطيتني مقرعة أو خربة لقبلتها وقبّلتها »[2].

والحقيقة فإن القدس كانت من أهم الموضوعات الدينية والعسكرية والسياسية التي تضمنتها المفاوضات بين الجانبين . وقد أشار رسول ملك الإنجليز في رسالتـه الى صلاح الدين بقوله : « إن الذي اطلبه منك أن يكون لنا في قلعة القدس عشرون رجلاً ، وإن من سكن من النصارى والأفرنج لا يتعرض إليهم . وأما بقية البلاد فلنا منها الساحليات والوطأة والبلاد الجبلية لكم . وأخبرنا الرسول من عند نفسه مناصحة أنه قد نزل عن حديث القدس ما عدا الزيارة ، ولكن يقول ذلك لضعفنا وأنهم راغبون في الصلح ، وأن الانكتار لا بد له من الرواح الى بلده »[3] وقد أرفق الملك مع هذه الرسالة هدية .

هذا وقد أبدى صلاح الدين تجاوباً مع العروض الأفرنجية حول السلام ، فقد جاء في رسالته إلى ملك الإنجليز : « إنك إذا دخلت معنا هذا الدخول ، فما جزاء

---

(١) ابن شداد ، النوادر ، ص ٢٠٥ .

(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، ص ٢١٨ - ٢١٩ .

(٣) ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، ص ١٧٧ .

الإحسان إلا الإحسان. ابن اختك يكون عندي كبعض أولادي، وسيبلغك ما أفعل في حقه من الخير، وأنا اعطيك أكبر الكنائس وهي القيامة، وبقية البلاد نقسّمها، فالساحلية التي بيدك تكون بيدك، والتي بأيدينا من القلاع الجبلية تكون لنا. وما بين العملين تكون مناصفة، وعسقلان وما وراءها تكون خراباً لا لنا ولا لكم، وإن أردتم قراها تكون لكم، والذي كنت أكرهه حديث عسقلان »[1]. وقد جاءه رد بموافقة الملك الإنجليزي على هذه المقترحات، غير أن صلاح الدين اشترط شرطاً حول القدس وهو أنه ليس للأفرنج حق السيطرة عليها، باستثناء السماح لهم بزيارتها. وقد وافق الملك الإنجليزي على ترك القدس كلية، وأفراغها أيضاً من الرهبان والقساوسة باستثناء كنيسة القيامة، وبذلك « يكون الصلح عاماً ... وينتظم الحال ويروح.. وإن لم ينتظم الصلح، فإن الفرنج لا يمكنونه من الرواح ولا يمكنه مخالفتهم ».

وفي سنة ٥٨٨ هـ - ١١٩٢ م عقد صلح الرملة بين السلطان صلاح الدين الأيوبي والافرنج بعد معارك في مناطق عديدة. وقد أشار المقريزي الى هذا الصلح بقوله: « ... وعقدت هدنة عامة في البر والبحر ... على أن يكون للفرنج من يافا الى صور وطرابلس وانطاكية ونودي في الوطاقات وأسواق العسكر؛ ألا ان الصلح قد انتظم فمن شاء من بلادهم يدخل بلادنا فليفعل، ومن شاء من بلادنا يدخل بلادهم فليفعل. وكان يوم الصلح مشهوراً عمّ فيه الطائفتين الفرح والسرور، لما نالهم من طول الحرب. فاختلط عسكر الفرنج بعسكر المسلمين، ورحل جماعة من المسلمين الى يافا للتجارة، ودخل جلق عظيم من الفرنج إلى القدس بسبب الزيارة، فأكرمهم السلطان ومدّ لهم الأطعمة وباسطهم. ورحل ملوك الفرنج إلى ناحية عكا، ورحل السلطان الى القدس... »[2].

وبعد فترة جرت مراسلات بين الجانبين، تضمنت مدى الخلاف الواقع حول

---

(١) ابن شداد، المصدر السابق، ص ٢١٨ - ٢١٩.

(٢) المقريزي: السلوك، جـ ١، ص ١١٠.

عسقلان وما يجاورها ، وحول الصلح مع انطاكية. واستمرت المفاوضات بين مد وجزر ، فما كان من صلاح الدين إلا أن هاجم يافا وأوشك إسقاطها ، فاضطر ملك الإنجليز الى التدخل مجدداً لدى صلاح الدين متوسلاً الصلح ، ومما قاله: « بالله عليك أجب سؤالي في الصلح ، فهذا امر لا بد له من آخر ، قد هلكت بلادي وراء البحر ، ومـا دام هـذا لا مصلحـة لا لنـا ولا لكـم ». ثم استمرت المفاوضات السابقة بين الجانبين حول قضية عسقلان ومن سيحكمها .. فرفض صلاح الدين التنازل عن عسقلان ، فما كان من الملك الإنجليزي إلا أن قال: « لكم أطرح نفسي على السلطان وهو لا يقبلني ، وأنا كنت أحرص حتى أعود الى بلادي .. »[1] ، ومما اقترحه للملك العادل حول الصلح المقترح ، اعطاؤه عسقلان « فليس غرضي إلا إقامة جاهي بين الفرنجية ». غير أن صلاح الدين لما علم بأمر هذا العرض رفضه وقال لأخيه: « إن نزلوا عن عسقلان فصالحهم ». ثم انتهت الأمور الى احتلال المسلمين لعسقلان.

وكثيراً ما التجأ قادة الافرنج الى صلاح الدين لحمايتهم من ظلم جماعتهم. ومن بين هؤلاء « المركيس » صاحب صور الذي التجأ ليلاً وزوجته هرباً من الأفرنج. ويقول ابن شداد في « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » أن صاحب صور « أخلد الى السلطان والاعتضاد به. وكان في ذلك مصلحة للمسلمين لانقطاع المركيس عن الافرنج فإنه كان أشدهم بأساً ، وأعظمهم للحرب مراساً ، واثبتهم في التدبير أساساً . وحيث اتصل خبر وصول هذا الرسول بالسلطان أمر بإجلاله واحترامه . فضربت خيمة وضرب حولها شقة ووضع فيها من الطرح والفرش ما يليق بعظمائهم وملوكهم وأمر بإنزاله في الثقل يستريح ثم يجتمع به »[2].

وبعد أن وصل الى صلاح الدين من بيروت خمسة وأربعون أسيراً من الافرنج ، وتحادث السلطان مع شيخ هرم من بينهم ، وسأله عن سبب مجيئه الى

---

(١) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات ، جـ ٤ ، ق ٢ ، ص ٨١ .
(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، ص ١٥٧ .

بلاد الشام، فرد الافرنجي قائلاً: «وإنما خرجت بقصد كنيسة القيامة لأظفر بالحج المبرور». فما كان من السلطان إلا أن رقّ له ومنّ عليه بإطلاق سراحه، «وقد أخرجه من ذل الرق الى عز العتاق. ورده إلى الفرنج راكباً على فرس، ولم ير قتله ولا أسره، حيث رأى نفساً مرتهنة بنفس». كما منع السلطان بعض الشبان من قتل بقية الأسرى ولما سئل عن سبب ذلك قال: «لئلا يجترئوا من الصغر على سفك الدم»[1].

وبعد احتلال المسلمين لعسقلان ويافا عُقد الصلح مع الافرنج وصوّر صلاح الدين وضع الافرنج بعد الهزيمة في رسالة أرسلها الى العزيز قال فيها: «.. واقتنعوا بيافا وعكا وصور، واستبدلوا من تطاولهم وقدرتهم العجز والقصور، ورأوا عزهم في ذلهم، وصونهم في بذلهم، وسلامتهم في سلمهم وغناهم في عدمهم، ولانوا بعد الاشتداد ودانوا للانقياد، وهانوا بعد الاعتزاز .. مدة المدنة التي أخذوا بها اليد وأعطوا اليمين: ثلاث سنين وثمانية أشهر .. ولقد كان الخادم للمسلم متكرها، ولا يرى أن يكون كشيمة ملوك العصر عن الغزو مترفها، ولكنه اجمع من عنده من الأمراء وذوي الآراء على أن المصلحة في المصالحة راجحة، وأن صفة الكفر فيها خاسرة، وصفقة الإسلام رابحة. وأن في إطفاء هذه الجمرة، وقد وقدت، سكوناً عاماً وأمناً تاماً، وتفريقاً لجمع الكفار بشمل النصر عليهم ضاماً، فهي سلم انكى من الحرب فيهم، وإنها تقصيهم من هذه الديار بل تنفيهم»[2].

وبعد تمام الصلح بين الجانبين أمر المنادي أن ينادي في الوطاقات والأسواق إلى أن الصلح قد انتظم في سائر البلاد «فمن شاء من بلادهم أن يدخل إلى بلادنا فليفعل، ومن شاء من بلادنا أن يدخل الى بلادهم فليفعل... إن طريق الحج قد فتح من الشام...».

---

(١) الأصفهاني: الفتح القسيّ في الفتح القدسي، ص ٤٧١.
(٢) الأصفهاني، المصدر نفسه، ص ٦٠٦ ـ ٦٠٩.

وكان أمير انطاكية قد أظهر المودة والسلم لصلاح الدين الذي استقبله استقبالاً لائقاً وقد وصف الاصفهاني هذا اللقاء بقوله: «إن الابرنس الانطاكي قد وصل الى الخدمة، مستمسكاً بحبل العصمة، داخلاً حكم الذمة... وإذن للابرنس في الدخول، وشرفه في حضرته بالمثول، وقربه وآنسه، ورفع مجلسه. وأظهر له البشاشة والهشاشة... وكان معه من مقدمي فرسانه أربعة عشر بارونياً... أجزل له ولهم العطاء، وأبدى بهم الاعتناء... وانصرف المذكور مسروراً، بين أسرته مذكوراً، محبواً بالمنح والمنن محبوراً»[1].

وفي العام ٦٢٦ هـ - ١٢٣٠ م، بدأت المفاوضات بين امبراطور صقلية فريدريك الثاني وبين الملك الكامل، ودارت حول قضية القدس[2]. والمعروف عن فريدريك الثاني انه كان ضد الحملات الصليبية الى المشرق، وعرف عنه صلاته الحميمة مع المسلمين - وقد فصّلنا ذلك في دراستنا السابقة عن صقلية - وقد طلب في إحدى رسائله إلى الملك الكامل عدم إحراج موقفه أمام البابا والافرنج، وسأله إذا كان يوجد إمكانية لتسليم القدس مقابل دفع دخلها للملك الكامل، ومما قاله: «اني عتيقك، وتعلم إني أكبر ملوك الفرنج، وأنت كاتبتني بالمجيء، وقد علم البابا والملوك باهتمامي، فإن رجعت خائباً انكسرت حرمتي. وهذه القدس فهي أصل دين النصرانية، وانتم قد خرّبتموها، وليس لها طائل، فإن رأيت أن تنعم عليّ بقصبة البلد ليرتفع رأسي بين الملوك، وأنا ألتزم بحمل دخلها إليك»[3]. وكان فريدريك الثاني قد تعهد بتطبيق ما جاء في المعاهدة - التي عقدت فيما بعد - من بنود وقد قيل في ذلك التعهد ما يلي:

زعم الزعيم الانبرور بأنه ... سلم يدوم لنا على أقواله
شرب اليمين فإن تعرض ناكثاً ... فليأكلن لذاك لحم شماله

(١) الأصفهاني، المصدر السابق، ص ٦١٨.

(٢) انظر: مذكرات جوانفيل، ص ١٩٩ - ٢٠٠.

(٣) انظر: د. محمد ماهر حمادة، المرجع السابق، ص ٢٤٧ - ٢٤٨. نقلاً عن: الذهبي، كتاب العبر في خبر من عبر، جـ ٥، ص ١٠٢.

غير أن الملك الكامل امتنع عن تسليم القدس إلا وفق شروط منها « إنه يبقى خراباً، ولا يجدد سوره، وأن لا يكون للفرنج شيء من ظاهره البتة، بل يكون جميع قراياه للمسلمين، وللمسلمين وال عليها يكون مقامه بالبيرة من عمل القدس من شماليه، وأن الحرم الشريف بما حواه من الصخرة المقدسة والمسجد الأقصى يكون بأيدي المسلمين، وشعار المسلمين فيه ظاهر، ولا يدخلها الفرنج إلا للزيارة فقط، ويتولاه قوام المسلمين... ». ورأى الملك الكامل « إنه إن شاقق الانبرطور ولم يفِ له بالكلية ان يفتح له باب محاربة مع الفرنج، ويتسع الخرق ويفوت عليه كلما خرج سببه، فرأى أن يرضي الفرنج بمدينة القدس ضراباً ويهادنهم مدة، ثم هو قادر على انتزاع ذلك منهم متى شاء »[1].

ويصف ابن واصل ردود الفعل الإسلامية ضد قرار الكامل بقوله: « لما نودي بالقدس بخروج المسلمين، وتسليم القدس الى الفرنج، وقع في اهل القدس الضجيج والبكاء، وعظم ذلك على المسلمين، وحزنوا لخروج القدس من أيديهم. وانكروا على الملك الكامل هذا الفعل، واستشنعوه منه، إذ كان فتح هذا البلد الشريف واستنقاذه من الكفار من أعظم مآثر عمه الملك الناصر صلاح الدين ـ قدس الله روحه ـ لكن علم الملك الكامل رحمه الله ان الفرنج لا يمكنهم الامتناع بالقدس مع خراب أسواره، وإنه إذا قضى غرضه واستتب الأمور له، كان متمكناً من تطهيره من الفرنج وإخراجهم منه » وقد دافع الملك الكامل عن موقفه بالقول: « إنا لم نسمح لهم إلا بكنائس وآدر خراب والحرم وما فيه من الصخرة المقدسة وسائر المزارات بأيدي المسلمين على حاله، وشعار الإسلام قائم على ما كان عليه، ووالي المسلمين متحكم على رساتيقه واعماله »[2].

ويبدو أن فريدريك شعر بما يعاني الكامل منه من إحراج امام المسلمين. فلما

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ ٤، ص ٢٤١ ـ ٢٤٢. انظر أيضاً عن ردود الفعل الاسلامية: Grousset; op. cit. III, p.300.

(٢) ابن واصل، المصدر نفسه، جـ ٤، ص ٢٤٢ ـ ٢٤٤. انظر أيضاً عن ردود الفعل، ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦. انظر أيضاً: المقريزي: السلوك، جـ ١، ص ٢٣١.

نزل القدس وقام بزيارة المسجد الأقصى، رأى قسيساً وبيده الإنجيل ويهمّ لدخول المسجد، فما كان من فريدريك إلا أن صرخ في وجه القسيس امام جمهرة المسلمين قائلاً له: «ما الذي اتى بك إلى هاهنا، والله لئن عاد أحد منكم يدخل إلى ها هنا بغير إذني لآخذنّ ما في عينيه. نحن مماليك هذا السلطان الملك الكامل وعبيده، وإنما تصدّق عليّ وعليكم بهذه الكنائس على سبيل الإنعام منه، ولا يتعدى احد منكم طوره. فمضى ذلك القسيس وهو يرعد خيفة منه. ومضى الانبرطور إلى الدار التي عُيّن نزوله فيها، فنزل بها»[1] في ٦٢٧ هـ - ١٩ آذار (مارس) ١٢٢٩ - وتوّج نفسه امبراطوراً في كنيسة القيامة، ثم قفل عائداً إلى عكا، ثم ما لبث ان انصرف إلى غربي اوروبة[2].

ولما توفي الملك الكامل وتولى الحكم ابنه الملك العادل سيف الدين استمرت المراسلات والمفاوضات بين الجانبين وقد عقد اجتماع بين الملك العادل وبين الملك الانجليزي، وقد ضرب الملك العادل ثلاث خيام، «أعد فيها كل ما يراد من فاكهة وحلاوة وطعام». وقد طالت المباحثات بين الملكين انتهت باتفاقهما «ثم افترقا عن موافقة أظهراها، ومصادقة قرراها...» وكان قد وصل صاحب صيداء من صور برسالة المركيس «وإنه يرغب في سلوك نهج التأنيس. وأن يكون للسلطان مصالحاً، وله على الطاعة مصافحاً، حتى يقوى يده على ملك الإنكتير [الإنجليز] ويتفرد هو بالملك والتدبير. وعرف ملك الانكتير بالحال، فوصل رسوله ايضاً بالإحفاء بالسؤال. ومضى العدل مع صاحب صيداء إلى المركيس على شرائط قررت، ونسخ إيمان حررت»[3].

---

(١) ابن واصل، المصدر السابق، جـ ٤، ص ٢٤٤ - ٢٤٥. ألمقريزي: السلوك، جـ ١، ص ٢٣١.
حول مشكلة تسليم القدس أنظر أيضاً: المقريزي: السلوك، جـ ١، ص ٢٣١.
Runciman: History of the Crusades, II, p.169, 184-185.
Wiet; G; L'Egypte arabe. Histoire de la Nation Egyptienne IV, pp.352-355.

(٢) Stevenson; The Crusaders in the East, p.314.

(٣) الأصفهاني: الفتح القسّي في الفتح القدسي، ص ٥٦٠

واستمرت العلاقات السياسية والعسكرية والمفاوضات السلمية في عهد المماليك، وكان هذا العهد كالعهد الأيوبي، يتخلله الحرب والسلام بين المسلمين والصليبيين. ففي عهد الظاهر بيبرس (٦٥٨ - ٦٧٦ هـ، ١٢٦٠ - ١٢٧٧ م) جرت حروب ومفاوضات مع الفرنج، ومنها حروبه ومفاوضاته من اجل طرابلس وعكا. فبعد أن نقض الافرنج المعاهدة المعقودة مع بيبرس، زحف السلطان إلى عكا لإحتلالها، فما كان منهم إلا أن طلبوا مجدداً العمل بالهدنة السابقة، ومما قاله في رسالته إليهم: «من يريد أن يتولى أمراً ينبغي أن يكون فيه يقظة.. فأي شيء تعلمون؟ وماذا تحيطون علماً؟ ولم لا أعطيتم لوالي غزة الكتاب الذي كنا سيّرناه لكم بتمكين رسولكم إذا حضر»[1].

ولما تولى شارل حكم صقلية، تفاوض مع الملك الظاهر بيبرس، وكانت المفاوضات تدور حول نية الملك شارل بعقد معاهدة تجارية مع دولة المماليك، وأن يكون نفوذ شارل مقبولاً عند المماليك، وأن يكون نفوذ بيبرس مقبولاً في صقلية. كما جرت مراسلات بين بيبرس وملك قبرص دارت حول نتائج بعض المعارك العسكرية التي خاضها المسلمون ضد القبارصة، ولم تخل هذه المراسلات من الحدة والتحدي.

ومن يطلع على القلقشندي يطالع الهدنة المعقودة بين الملك بيبرس وبين مقدمي الاسبتارية المسؤولين عن عكا وحصن الأكراد وحصن المرقب وبعض مدن الساحل الشامي. وقد عقدت هذه الهدنة في عام (٦٦٥ هـ - ١٢٦٧ م)، وكانت مدتها عشر سنوات وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات. ومما جاء في مقدمتها: «.. على أن جميع المملكة الحمصية والشيزرية والحموية وبلاد الدعوة

---

(١) المقريزي: السلوك، جـ ١، ص ٤٨٣. انظر أيضاً رسالة أخرى أرسلها بيبرس للافرنج حول موضوع قلعة الشقيف انظر: الدواداري: كنز الدرر وجامع الغرر، جـ ٨، ص ١٢٥. وبعد السيطرة على انطاكية انظر الرسالة المميزة التي أرسلها بيبرس الى صاحب انطاكية في المصدر نفسه، ص ١٢٨ - ١٣١.

المباركة واقع عليها الاتفاق المبارك ومستقرة لها هذه الهدنة الميمونة بجميع حدود هذه المماليك المعروفة وبلادها الموصوفة وقراها وضياعها وسهلها وجبلها وعامرها وغامرها وفروعها ومعطلها وطرقاتها ومياهها وقلاعها وحصونها، على ما يفصّل في كل مملكة ويشرح في هذه الهدنة المباركة للمدة المعينة الى آخرها». ولوحظ في هذه المعاهدة، اهتمام الجانبين بالعوامل الاقتصادية التي تتحكم بالجانبين، كتوزيع الغلات الزراعية بينهما مناصفة في المناطق التي حددتها المعاهدة. ومما جاء في خاتمتها: «على أن هذه الهدنة تكون ثابتة مستقرة، لا تنقضي بموت أحد من الطرفين ولا بوفاة ملك ولا مقدم الى آخر المدة المذكورة»[1].

كما جدد بيبرس المعاهدة التي سبق ان عقدها مع ملكة بيروت، التي اعطته الحق بحكم بيروت في حال غيابها عن المدينة. فبينما تضمنت المعاهدة الجديدة التي عقدت سنة (٦٦٧ هـ - ١٢٦٩ م) الاستمرار في المواثيق المعقودة بين الأفرنج وبين الأيوبيين. ومما جاء فيها أيضاً: «ويكون جميع المترددين من هذه البلاد وإليها آمنين مطمئنين على نفوسهم وأموالهم وبضائعهم، من الملكة فلانة وغلمانها، وجميع من هو في حكمها وطاعتها: براً وبحراً، ليلاً ونهاراً، ومن مراكبها وشوانيها. وكذلك رعية الملكة فلانة، وغلمانها يكونون آمنين على أنفسهم وأموالهم وبضائعهم من السلطان ومن جميع نوابه وغلمانه ومن هو تحت حكمه وطاعته: براً وبحراً، ليلاً ونهاراً..»[2].

وفي عهد السلطان الملك المنصور قلاوون (٦٧٨ - ٦٨٩ هـ، ١٢٧٩ - ١٢٩٠ م) استمرت حالات التوتر والحروب والمفاوضات أيضاً بين الأفرنج والمسلمين. وقد عقد قلاوون هدنة مع الملك بوهمند صاحب طرابلس الشام، وذلك في العام (٦٨٠ هـ - ١٢٨١ م) وقد تضمنت ايضاً ضرورة إحلال الأمن والسلام في المناطق المنصوص عنها في الهدنة، والحفاظ على مصالح الرعايا من

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ١٤، ص ٣١ - ٣٩.

(٢) القلقشندي، المصدر نفسه، جـ١٤، ص ٤٠ - ٤٢.

الجانبين[1]. كما عقدت هدنة بين السلطان قلاوون وبين مملكة عكا وصيدا في (٦٨٢ هـ ـ ١٢٨٣ م) تضمنت عدم التعدي على رعايا الافرنج والمسلمين في مختلف المناطق المنصوص عنها في الهدنة، والحفاظ على سفن التجار من الجانبين. ثم اقسم ملوك عكا وصيدا على احترام الهدنة، ومما جاء في نص القسم الافرنجي: «والله والله والله، وبالله وبالله وبالله، وتالله وتالله وتالله، وحق المسيح.. وحق الصليب.. وحق الأقانيم الثلاثة.. انني من وقتي هذا وساعتي هذه قد أخلصت نيتي وأصفيت طويتي في الوفاء للسلطان المنصور ولولده الملك الصالح ولأولادهما بجميع ما تضمنته هذه الهدنة المباركة... وانني والله وحق ديني ومعبودي اسلك في المعاهدة والمهادنة والمصادقة وحفظ الرعية الإسلامية والمترددين من البلاد السلطانية والصادرين منها وإليها طريق المعاهدين المتصادقين الملتزمين كف الأذية والعدوان عن النفوس والأموال، وألتزم الوفاء بجميع شروط هذه الهدنة... ومتى خالفتها.. يكون عليّ الحج الى القدس الشريف ثلاثين حجة حافياً حاسراً، ويكون عليّ فك ألف أسير مسلم من أسرى الفرنج وإطلاقهم..»[2].

كما أن الملك المنصور قلاوون أقسم بدوره على تنفيذ ما جاء في هذه الهدنة، ومما قاله في نص القسم: «والله والله والله.. وحق القرآن ومن أنزله ومن أنزل عليه وهو محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم.. انني أفي بحفظ هذه الهدنة المباركة.. وأحفظها وألتزم بجميع شروطها المشروحة فيها.. وإن نكثت في هذه اليمين فيلزمني الحج الى بيت الله الحرام بمكة المشرفة حافياً حاسراً ثلاثين حجة، ويلزمني صوم الدهر..»[3].

---

(١) انظر: ابن الفرات، المصدر السابق، جـ ٢، ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦.

(٢) د. محمد ماهر حمادة: وثائق الحروب الصليبية، ص ٣٠٦ ـ ٣١٣، نقلاً عن: ابن عبد الظاهر: كتاب تشريف الأنام والعصور، ص ٣٤ ـ ٤٢.

(٣) تاريخ ابن الفرات، جـ ٧، ص ٢٧٠ ـ ٢٧٢. من يطلع على مذكرات جوانفيل في اطار المعاهدات بين المسلمين والصليبيين إثر حملة لويس التاسع على مصر عام ١٢٤٨ م، يرى تشابهاً في نصوص القسم عند المسلمين فعندما أقسم الأمراء المسلمون للملك على مراعاة المعاهدة معه =

وفي العام (٦٨٤ هـ ـ ١٢٨٥ م) توالت عقد المصالحات، فعقد الملك قلاوون هدنة بينه وبين ملكة صور «مرغريت بنت السير هنري ابن الملك بوهمند»، وكان لها بنود اقتصادية وسياسية تتعلق بالتجار والمسافرين والمقيمين وحدود المناطق والغلات، وكيفية دفع الديات بين الجانبين[1].

هذه النماذج من العلاقات السلمية والمفاوضات والاتصالات السلمية حتّمت انعقادها الظروف العسكرية والسياسية والاقتصادية والإجتماعية، التي سادت المنطقة سنين طويلة، فأثرت إيجاباً أو سلباً على القاطنين في بلاد الشام من المسلمين والافرنج، فاضطرتهم أحياناً الى إحلال السلام، كما كانت تضطرهم في أحيان أخرى إلى مواصلة القتال. مع الإشارة الى أن طبيعة الحروب تؤدي عادة إلى مفاوضات سلمية وليس بالضرورة الى السلام. ولهذا فقد استمر المسلمون على قناعاتهم بضرورة استرجاع أملاكهم وأراضيهم، الى أن حققوا ذلك وأجلوا الصليبيين عن بلادهم بعد إقامة استمرت ما يقارب مائتي عام.

وهكذا، يلاحظ بأن الحروب الصليبية في بلاد الشام، وما رافقها من علاقات عسكرية وسياسية واجتماعية واقتصادية وعلمية في الفترة الممتدة بين ١٠٩٨ ـ ١٢٩١ م، قد اعطت نتائج هامة في ميدان الحرب والسلم، وفي تاريخ العلاقات الغربية ـ الشرقية، والمسيحية ـ الإسلامية. ويلخّص «رنسيمان» مفهومه لنتائج الحرب الصليبية فيقول: «إن الحملات الصليبية قد جرى توجيهها لإنقاذ العالم

= قالوا له: «فإنهم يفقدون شرفهم ويصبحون أشبه بالرجل الذي تحمله خطيئته الى أن يحج الى مكة عاري الرأس...» وبالمقابل فإن الملك أقسم على تنفيذ بنود المعاهدة. للمزيد من التفصيلات انظر: مذكرات جوانفيل: القديس لويس حياته وحملاته على مصر والشام، ص ١٦٧ ـ ١٦٩.

(١) د. محمد ماهر حمادة، المرجع السابق، ص ٣١٦ ـ ٣٢٣. نقلاً عن: ابن عبد الظاهر: تشريف الانام والعصور، ص ١٠٣ ـ ١١٠. للمزيد من التفصيلات عن نماذج من هذه المعاهدات الى عهد خليل بن قلاوون انظر: كتاب تشريف الأنام والعصور بسيرة السلطان الملك المنصور. المكتبة الصقلية، ص ٣٣٩ ـ ٣٥٢.

المسيحي الشرقي من المسلمين، فلما انتهت الحروب الصليبية أضحى العالم المسيحي الشرقي خاضعا لحكم المسلمين.. أن فترة الحروب الصليبية تعتبر من اهم المراحل في تاريخ المدنية الغربية. فحينما بدأت، لم تكد أوروبا تخرج من مرحلة غارات المتبربرين الطويلة الأمد، والتي يطلق عليها العصور المظلمة. فلما انتهت، كانت براعم ما نطلق عليه النهضة الأوروبية تأخذ في الظهور..» ويرى «لوبون» في نتائج الحروب الصليبية الشيء الكثير، ويلخص ذلك، بقوله: وإذا نظرنا الى الحروب الصليبية من حيث هدفها القريب الذي هو فتح فلسطين رأيناها لم تسفر عن أية نتيجة، على الرغم مما خسرته أوروبة في قرنين من المال والرجال، وقد بقي المسلمون سادة لتلك الأماكن التي أرادت أوروبة الاستيلاء عليها بأي ثمن.. فأما الشرق فكان يتمتع بفضل العرب بحضارة زاهرة، وأما الغرب فكان غارقاً في بحر من الجهالة والهمجية.. إن تأثير الشرق في تمدين الغرب كان عظيماً بفعل الحروب الصليبية، وإن ذلك التأثير كان في الفنون والصناعات والتجارة أشد منه في العلوم والآداب... إن الشرقيين هم الذين أخرجوا الغرب من ظلمات التوحش إلى نور الحضارة وانه انبثق من خلال ما كانت تستعين به جامعات أوروبة من علوم العرب وآدابهم عصر النهضة الحديث[1]. ورأى العلاّمة المتديّن مسيو «بارتلمي سان هيلر» (Barthelmy Saint Hilaire) أثر المسلمين والعرب في أوروبة كبيراً وهاماً ومما قاله:

«لقد هذّبت طبائع امرائنا الإقطاعيين الخشنة الغليظة في القرون الوسطى بفضل علاقاتهم التجارية بالعرب وتقليدهم لهم، لقد تعلّم أشرافنا وفرساننا رقة العواطف ولين الطبائع وحسن الأخلاق من العرب دون أن يفقدوا شيئاً من شجاعتهم. وانني لأشك في أن النصرانية كانت تستطيع وحدها أن تأتي مثل ذلك التأثير مهما يبالغ في كرمها»[2]..

---

(١) لوبون: حضارة العرب، ص ٣٦٢ ـ ٣٦٣ وصفحات متفرقة.

(٢) د. سعيد عاشور: المدنية الاسلامية وأثرها في الحضارة الاوروبية، ص ٢١٠. نقلاً عن:
Barthelmy saint Hilaire; Mahomet et le Coran.

وأوضح العلاّمة جوستاف فون جروينباوم (Grunebaum) رأيه في مدى أثر الإسلام في أوروبة سواء في إبان فترة الحروب الصليبية أو سواها من الفترات، ومما قاله: « . . وعلى حين كان للحروب الصليبية أثر أقوى على الأدب العربي بل وعلى العواطف الشعبية بوجه الإجمال، فمن الجلي انها أثرت في الفكر الأوروبي والمثل العليا الأوروبية، وكذلك في أنواع الأدب الأوروبي المختلفة تأثيراً أعمق كثيراً وأكثر دواماً »، وأضاف قائلاً: « وليس ثمة ميدان من ميادين الخبرة الإنسانية لم يضرب فيها الإسلام بسهم، ولم يزد ثروة التقاليد الغربية فيها غنى. . وكانت الحروب الصليبية، من كثير من النواحي، أعظم مغامرة أقدم عليها الإنسان في العصور وأبعدها أثراً... قد تركت جميعاً آثارها ببلاد الغرب في القرون الوسطى »[1].

ويكفي ان نختم هذه الدراسة في قول « لوبون » مبدياً رأيه في دولة الإسلام والعرب ودينهم وثقافتهم وعلومهم وأثرهم على أوروبة، ومما قاله:

« إن الأمم التي فاقت العرب تمدنا قليلة الى الغاية، وان ما حققه العرب في وقت قصير من المبتكرات العظيمة لم تحققه امة، وأن العرب أقاموا ديناً من أقوى الأديان التي سادت العالم، ولا يزال الناس يخضعون لها، وأنهم أنشأووا دولة تعد من أعظم الدول التي عرفها التاريخ، وأنهم مدّنوا أوروبا ثقافة وأخلاقاً، وأن الأمم التي سمت سمو العرب وهبطت هبوطهم نادرة، وأنه لم يظهر كالعرب شعب يصلح ليكون مثالاً بارزاً لتأثير العوامل التي تهيمن على قيام الدول وعظمتها وانحطاطها »[2].

---

(١) للمزيد من التفصيلات انظر: جروينباوم: حضارة الاسلام، جـ ٢، ص ٥٢ (الأدب والتاريخ)، ص ٣٢٨ ـ ٣٧٢.

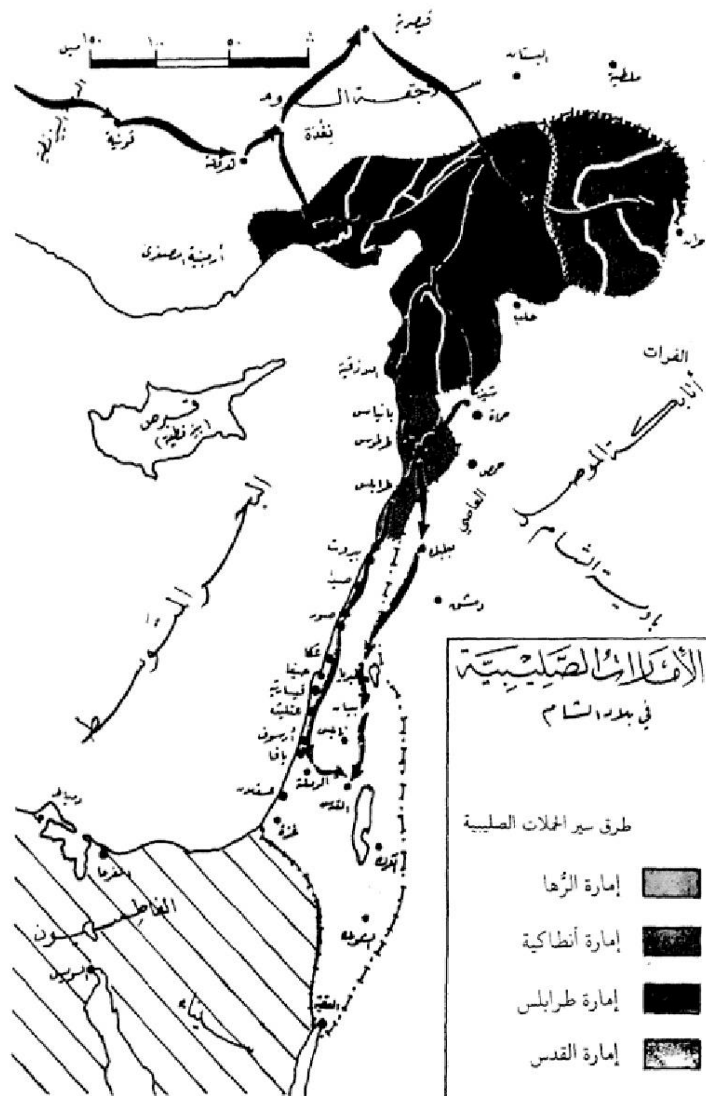
(٢) لوبون: حضارة العرب، ص ٦٤٣. للمزيد من التفصيلات الوافية أنظر أيضاً: ألفرد جيوم: تراث الإسلام، جـ ١، جـ ٢، لجنة الجامعيين لنشر العلم ـ مصر ١٩٣٦. انظر أيضاً: شاخت وبوزورث: تراث الإسلام، ٣ أجزاء المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت ١٩٧٨.

الله غالب

الخرائط والصور [*]

(*) هذه الخرائط والصور مأخوذة من : أرنست باركر : الحروب الصليبية، شوقي أبو خليل : اطلس التاريخ العربي، محمد العمروسي المطوي : الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، د. عمر تدمري : تاريخ طرابلس السياسي والحضاري. د. السيد عبد العزيز سالم : دراسة في تاريخ مدينة صيدا في العصر الإسلامي، ملصقات وبطاقات بريدية.

الله غالب



خريطة الامارات الصليبية في بلاد الشام

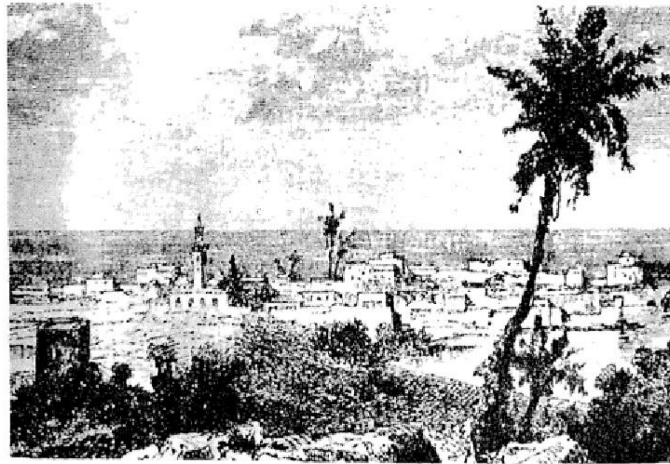


خريطة الامارات الصليبية ومملكة صلاح الدين الأيوبي
بعد الحرب الصليبية الثالثة

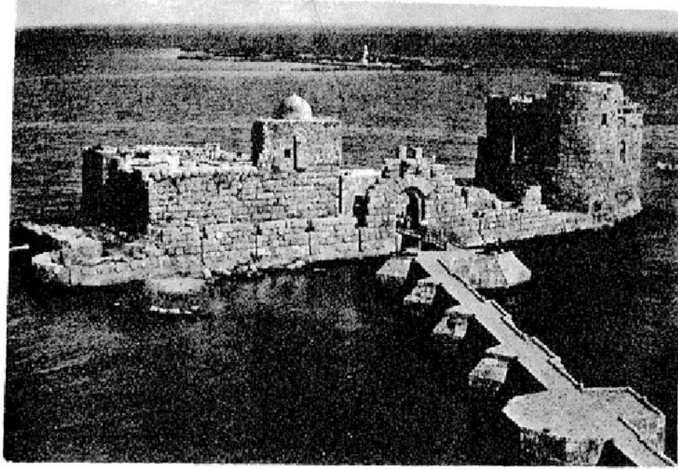
خريطة الامارات الصليبية ومملكة صلاح الدين الأيوبي بعد الحرب الصليبية الثالثة .



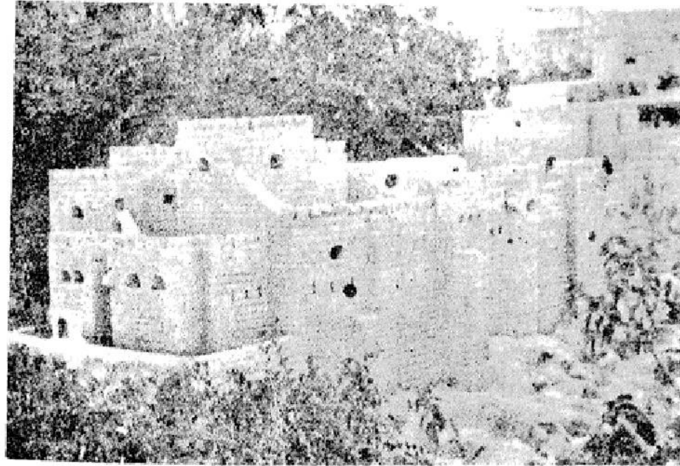
مدينة بيروت



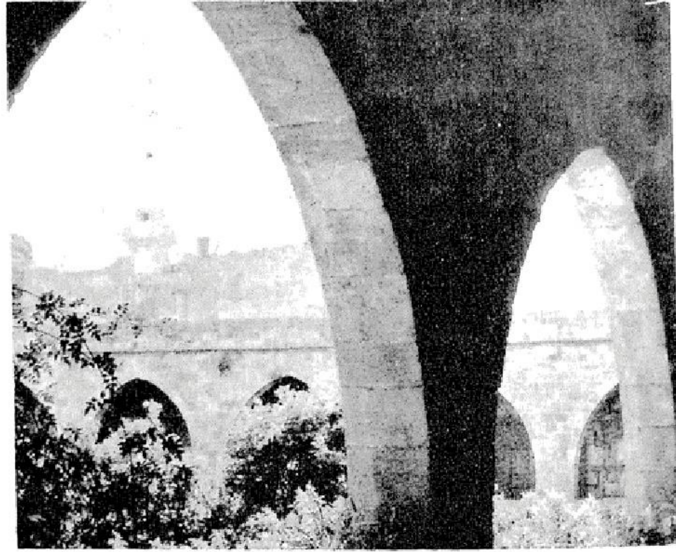
مدينة صور



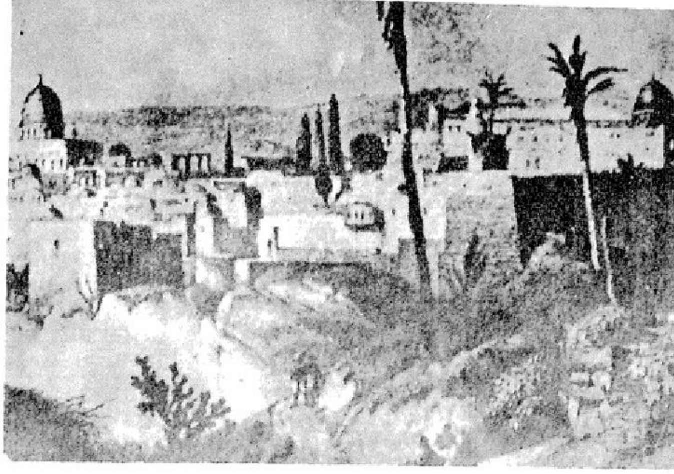
قلعة صيدا



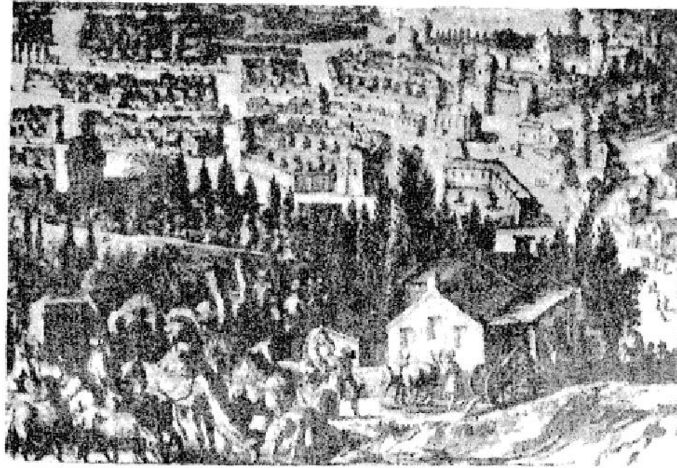
قلعة طرابلس



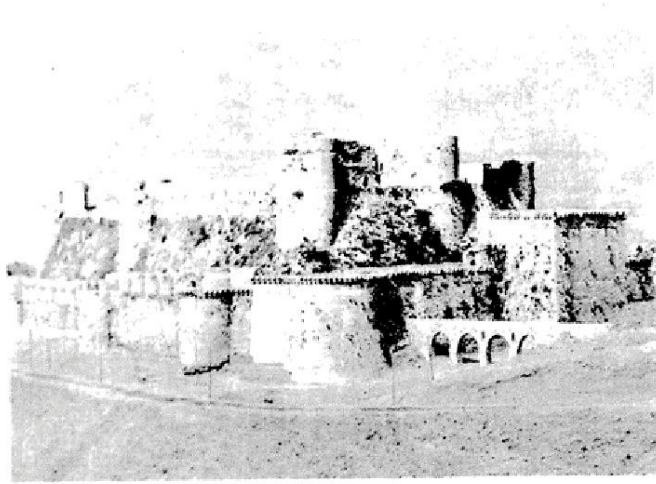
خان الافرنج في صيدا



القدس الشريف



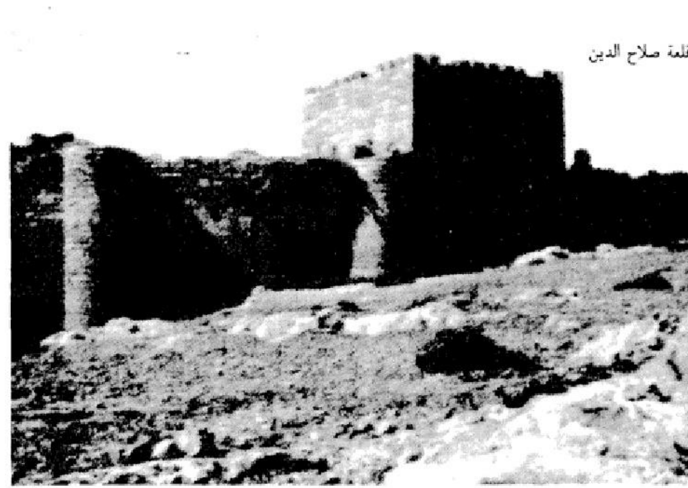
الرملة في فلسطين



قلعة الحصن في الشام



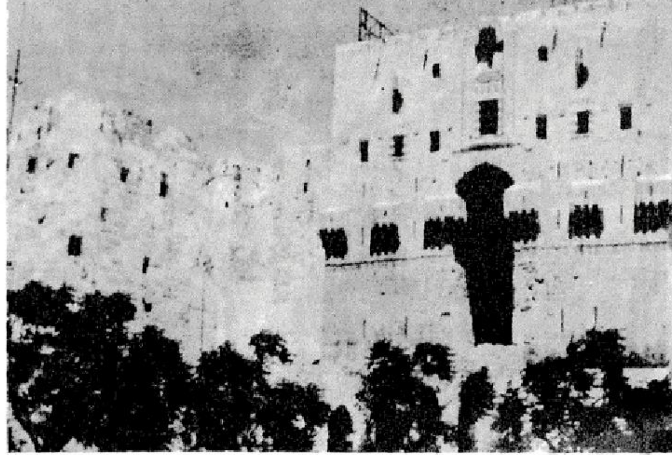
قلعة المرقب في الشام



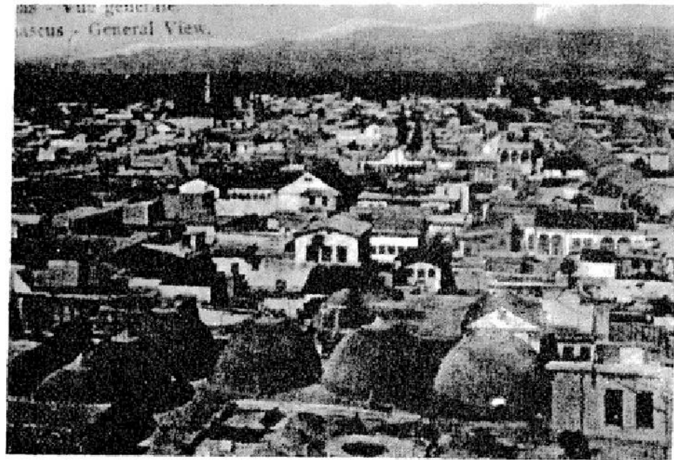
قلعة صلاح الدين الأيوبي



قلعة شيزر



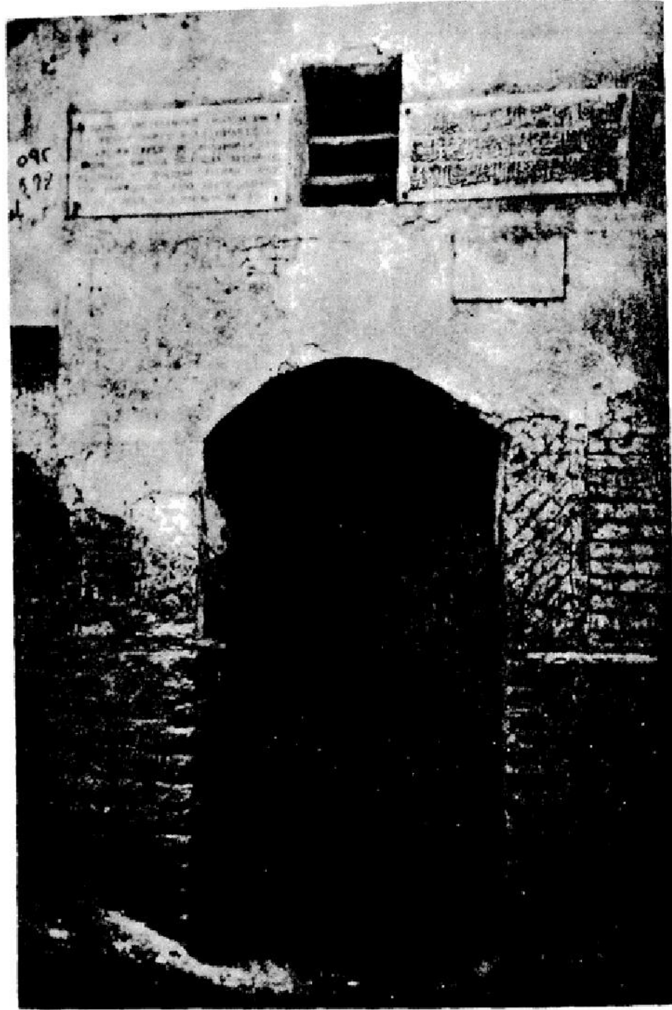
قلعة حلب الشهيرة



منظر عام لدمشق الفيحاء



لويس التاسع أسيراً بيد المسلمين في منصورة مصر



واجهة دار ابن لقمان في المنصورة حيث سجن لويس التاسع .

الله غالب

فهرس الاعلام

الله غالب

فهرس الاعلام

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)

فهرس الأماكن[*]

(*) لم نثبت أسماء اماكن: الأندلس (اسبانيا)، صقلية، الشام، في هذا الفهرس نظر أكثر صفحات الكتاب.

الله غالب

فهرس الأماكن

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

الله غالب

فهرس
السلالات والشعوب
والقبائل

الله غالب

فهرس
السلالات والشعوب
والقبائل

(أ)

(ب)

(ت)

(ج)

الله غالب

فهرس
الملامح العامة

الله غالب

فهرس
الملامح العامة

الأبراج ، الحصون ، القلاع

الأبواب

الأديرة والكنائس

الأنهار

الأودية

البحار

الجبال

الجوامع والمساجد

القصور

المدارس

فهرس المصطلحات

مصادر البحث

الله غالب

مصادر البحث(*)

المصادر الأولية

١ - ابن الأثير (أبو الحسن عز الدين علي بن أبي الكرم محمد المعروف بالجزري): الكامل في التاريخ، دار الطباعة المنيرية - القاهرة ١٣٥٦ هـ.

٢ - ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق: عبد القادر أحمد طليمات، دار الكتب الحديثة - القاهرة ١٩٦٣.

٣ - ابن بطوطة (محمد بن عبد الله اللواتي المكنى بأبي عبد الله): رحلة ابن بطوطة المسماة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، جـ ٢، تقديم وتحقيق: د. علي المنتصر الكتاني، مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٧٥.

٤ - ابن جبير. (محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي البلنسي المكنى بأبي الحسين): رحلة ابن جبير المسماة: تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، تقديم: د. محمد مصطفى زيادة، دار الكتاب اللبناني - دار الكتاب المصري (بدون تاريخ) (النسخة الأولى تحقيق: وليم رايت - ليدن ١٩٠٧).

٥ - ابن الجيعان (القاضي بدر الدين أبو البقاء محمد بن يحيى بن شاكر بن عبد الغني): القول المستظرف في سفر مولانا الملك الأشرف (رحلة قايتباي الى بلاد الشام) تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري، مؤسسة جروس برس - طرابلس الشام ١٩٨٤.

(*) أثبتنا في مصادر البحث جميع المصادر والمراجع التي اعتمدنا عليها في إنجاز هذه الدراسة سواء التي وردت منها في الهوامش أو التي لم ترد وهي قليلة، لأن هذا الكتاب كان في الأصل مجموعة محاضرات جامعية، بدأنا بإعدادها وتطويرها منذ العام ١٩٨١ لغاية العام ١٩٨٦، بحيث اصبح بإمكاننا إصدارها في كتاب على هذا النحو.

٦ ـ ابن حوقل (أبو القاسم بن حوقل النصيبي): كتاب صورة الأرض، دار مكتبة الحياة ـ بيروت ١٩٧٩.

٧ ـ ابن الخطيب (لسان الدين): مشاهدات في المغرب والأندلس (مجموعة من رسائله) جمع وتحقيق: د. أحمد مختار العبادي، مؤسسة شباب الجامعة ـ الاسكندرية ١٩٨٣.

٨ ـ ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين احمد بن محمد)، وفيات الأعيان وانباء ابناء الزمان، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ١٩٤٨.

٩ ـ ابن شداد (القاضي بهاء الدين): النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (كتاب سيرة صلاح الدين) مطبعة الآداب ـ مصر ١٣١٧هـ ـ ونسخة مطبعة التمدن ـ مصر ١٩٠٣م.

١٠ ـ ابن الفرات (ناصر الدين محمد): تاريخ ابن الفرات، جـ ٢، جـ ٤، جـ ٧، تحقيق: د. اسد رستم، د. قسطنطين زريق، د. نجلاء عز الدين، المطبعة الأميركية ـ بيروت ١٩٤٢.

١١ ـ ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق: ابراهيم الابياري، دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

١٢ ـ ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم بن واصل): مفرج الكروب في اخبار بني أيوب، جـ ٤، تحقيق: د. جمال الدين الشيال، دار احياء التراث القديم ـ القاهرة ١٩٥٧، ونسخة مطبعة دار الكتب ـ القاهرة: ١٩٧٢، تحقيق: د. حسين محمد ربيع، مراجعة: د. سعيد عبد الفتاح عاشور.

١٣ ـ أبو شامة (شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم المقدسي الشافعي): كتاب الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية، جـ ١، جـ ٢، تحقيق: د. محمد حلمي محمد أحمد، مراجعة: د. محمد مصطفى زيادة. لجنة التأليف والترجمة والطباعة والنشر ـ القاهرة ١٩٥٦ ـ ١٩٦٢، ونسخة أبي السعود افندي محرر صحيفة وادي النيل المطبوعة في مصر ١٢٨٧هـ.

١٤ ـ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، جـ ٦ ـ القاهرة (١٣ جزءاً صدرت بين ١٩٢٩ ـ ١٩٤٣).

١٥ ـ أسامة بن منقذ (مؤيد الدولة أبو مظفر أسامة بن مرشد الكناني الشيزري): كتاب الاعتبار، تحرير وتحقيق: د. فيليب حتي، مطبعة جامعة برنستون ـ الولايات المتحدة الاميركية ١٩٣٠.

١٦ ـ الادريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، نشر: دوزي ودي غويه، ليدن ١٨٩٣.
١٧ ـ الأصفهاني (أبو عبد الله محمد بن صفي الدين أبي الفرج ...) الفتح القسيّ في الفتح القدسي، تحقيق وشرح وتقديم: محمد محمود صبح، الدار القومية للطباعة والنشر ـ القاهرة (بدون تاريخ).
١٨ ـ جوانفيل، جان: مذكرات جوانفيل (Jean Sire de Joinville): القديس لويس، حياته وحملاته على مصر والشام، تعريب وتعليق: د. حسن حبشي، دار المعارف ـ مصر ١٩٦٨.
١٩ ـ الحميدي (أبو عبد الله الأزدي): جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، نشر وتحقيق: إدارة إحياء التراث ـ الدار المصرية للتأليف والترجمة ـ القاهرة ١٩٦٦.
٢٠ ـ الدواداري (أبو بكر بن عبد الله بن ايبك الدواداري): كنز الدرر وجامع الغرر، جـ ٨، تحقيق: أولرخ هارمان (Ulrich Haarmann) المعهد الألماني للآثار ـ القاهرة ١٣٩١ هـ ـ ١٩٧١ م.
٢١ ـ القلقشندي (أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله): صبح الأعشى في صناعة الانشا، جـ ١٤، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ـ القاهرة ١٣٣١ ـ ١٣٣٨ هـ، ونسخة دار الكتب المصرية ١٩١٤ ـ ١٩١٥ م.
٢٢ ـ المقدسي (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر البنا المعروف بالبشاري): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق: M.J. de Goeje طبعة دي غويه ليدن ١٩٠٦.
٢٣ ـ المقريزي (تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي): السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ ١ ـ ٢، نشر وتحقيق: د. محمد مصطفى زيادة، لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ الطبعة الأولى القاهرة ١٩٣٤، الطبعة الثانية ١٩٥٦ ـ ١٩٥٧. (جـ ٣، تحقيق: د. سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة ١٩٧٠ ـ ١٩٧٢).
٢٤ ـ مؤلف مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر امرائها، تحقيق: ابراهيم الابياري، دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨٠ م.

المراجع العربية والمعربة

٢٥ ـ د. احسان عباس: العرب في صقلية، دار الثقافة ـ بيروت ١٩٧٥.

٢٦ ـ أحمد أحمد بدوي: الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، دار نهضة مصر، الفجالة ـ مصر ١٩٧٢.
٢٧ ـ د. أحمد مختار العبادي: العلاقات بين الشرق والغرب، مكتبة كريدية ـ بيروت ١٩٧٠.
٢٨ ـ د. احمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية ـ بيروت ١٩٧٢.
٢٩ ـ آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، جـ٢، تعريب: محمد عبد الهادي أبو ريده، دار الكتاب العربي ـ بيروت (بدون تاريخ) الطبعة الخامسة.
٣٠ ـ أرنست باركر: الحروب الصليبية، تعريب: د. السيد الباز العريني، دار النهضة العربية ـ بيروت ١٩٦٧.
٣١ ـ أمين الريحاني: نور الأندلس، دار الريحاني للطباعة والنشر ـ بيروت، الطبعة الثانية ١٩٦٩.
٣٢ ـ د. جمال الدين الشيال: التاريخ الإسلامي وأثره في الفكر التاريخي الأوروبي في عصر النهضة، دار الثقافة ـ بيروت ١٩٦٩.
٣٣ ـ د. جمال الدين الشيال، د. إبراهيم بيومي مدكور، د. سهير القلماوي وآخرون: أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية. إشراف: مركز تبادل القيم الثقافية وبالتعاون مع اليونسكو، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ـ القاهرة ١٩٧٠.
٣٤ ـ د. جوزف نسيم: دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، مؤسسة شباب الجامعة ـ الاسكندرية ١٩٨٣.
٣٥ ـ جوستاف أ. فون جروينباوم: حضارة الإسلام، تعريب: عبد العزيز توفيق جاويد، مراجعة: عبد الحميد العبادي، مكتبة مصر ١٩٥٦.
٣٦ ـ جوستاف لوبون: حضارة العرب، تعريب: محمد عادل زعيتر، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي ـ القاهرة ١٩٤٥.
٣٧ ـ د. حسن شميساني: مدارس دمشق في العصر الأيوبي، دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ١٩٨٣.
٣٨ ـ خالد محمد القاسمي: العلاقات بين الشرق والغرب في عصر الدولة العباسية، مجلة تاريخ العرب والعالم ـ بيروت، العددان ٧٩ ـ ٨٠ أيار (مايو) ـ حزيران (يونيه) ١٩٨٥.

٣٩ ـ دوزي، ر: تاريخ مسلمي اسبانيا، جـ ١، تعريب: د. حسن حبشي، مراجعة: د. جمال محرز، د. احمد مختار العبادي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦٣ تعريب لكتاب: R. Dozy; Histoire des Musulmans D'Espagne, 3 vols, éd. lévi - provençal - leyde 1932.

٤٠ ـ د. زكي النقاش: العلاقات الاجتماعية والثقافية والإقتصادية بين العرب والافرنج خلال الحروب الصليبية، دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ١٩٥٨.

٤١ ـ زيغريد هونكه: أثر الحضارة العربية في أوروبة (شمس العرب تسطع على الغرب) تعريب: فاروق بيضون ـ كمال دسوقي، مراجعة وتعليق: مارون عيسى الخوري، دار الآفاق ـ بيروت ١٩٦٩، الطبعة الخامسة ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

٤٢ ـ ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، تعريب: د. السيد الباز العريني، دار الثقافة ـ بيروت.

٤٣ ـ د. سعيد عاشور: الحركة الصليبية، مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة ١٩٦٣.

٤٤ ـ د. سعيد عاشور: المدنية الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوروبية، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٦٣.

٤٥ ـ د. سعيد عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية ـ بيروت ١٩٧٢.

٤٦ ـ د. سعيد عاشور: تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، دار النهضة العربية ـ بيروت ١٩٧٦.

٤٧ ـ د. سعيد عاشور: بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، منشورات جامعة بيروت العربية ـ بيروت ١٩٧٧.

٤٨ ـ د. السيد الباز العريني: الدولة البيزنطية ٣٢٣ ـ ١٠٨١م، دار النهضة العربية ـ القاهرة ١٩٦٥.

٤٩ ـ د. السيد الباز العريني: الشرق الأدنى في العصور الوسطى، جـ ١ (الأيوبيون) دار النهضة العربية ـ بيروت ١٩٦٧.

٥٠ ـ د. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، دار المعارف لبنان ـ بيروت ١٩٦١.

٥١ ـ د. السيد عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، جـ ١، دار النهضة العربية ـ بيروت ١٩٧١.

٥٢ ـ د. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة ـ الاسكندرية، الطبعة الثالثة ١٩٨٢.
٥٣ ـ شكيب ارسلان (الأمير): الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، جـ ١، منشورات المكتبة التجارية ـ فاس، المطبعة الرحمانية ـ مصر، الطبعة الأولى ١٣٥٥ هـ ـ ١٩٣٦ م.
٥٤ ـ د. الطاهر أحمد مكي: الفن العربي في اسبانيا وصقلية، دار المعارف ـ القاهرة ١٩٨٠.
٥٥ ـ د. عبد الرحمن بدوي: دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي، وكالة المطبوعات، دار القلم ـ الكويت ـ بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٧٩.
٥٦ ـ د. عبد القادر أحمد اليوسف: علاقات بين الشرق والغرب بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر، المكتبة العصرية صيدا ـ بيروت ١٩٦٩.
٥٧ ـ د. عزيز أحمد: تاريخ صقلية الإسلامية، تعريب: د. أمين توفيق الطيبي، الدار العربية للكتاب ـ طرابلس الغرب ١٩٨٠.
٥٨ ـ د. عليّة عبد السميع الجنزوري: الثغور البرية الإسلامية على حدود الدولة البيزنطية في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة ١٩٧٩.
٥٩ ـ د. علي حبيبة: مع المسلمين في الأندلس، مكتبة الشباب ـ القاهرة ١٩٧٢.
٦٠ ـ د. علي الدفاع: تاريخ الرياضيات عند العرب والمسلمين، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م.
٦١ ـ د. علي الدفاع: اعلام العرب والمسلمين في الطب، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣ م.
٦٢ ـ د. عمر فروخ: عبقرية العرب في العلم والفلسفة، المكتبة العصرية ـ بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ م.
٦٣ ـ د. فايد حماد محمد عاشور: العلاقة بين البندقية والشرق الأدنى الإسلامي في العصر الأيوبي، دار المعارف ـ الاسكندرية ١٩٨٠.
٦٤ ـ د. فايد حماد محمد عاشور: جهاد المسلمين في الحروب الصليبية، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٩٨١.
٦٥ ـ فهمي توفيق مقبل: الفاطميون والصليبيون، الدار الجامعية ـ بيروت ١٩٨٠.
٦٦ ـ كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، تعريب: نبيه أمين فارس، منير

البعلبكي، دار العلم للملايين ـ بيروت، الطبعة السابعة ١٩٧٧.

٦٧ ـ ليڤي بروڤنسال: الإسلام في المغرب والأندلس، تعريب: د. السيد عبد العزيز سالم، أ. محمد صلاح الدين حلمي، مراجعة: د. لطفي عبد البديع، مكتبة نهضة مصر ـ القاهرة ١٩٥٦. تعريب لكتاب: (Islam d'occident).

٦٨ ـ د. مارتينو ماريو مورينو: المسلمون في صقلية، منشورات الجامعة اللبنانية ـ بيروت ١٩٦٨.

٦٩ ـ محمد العمروسي المطوي: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، دار الغرب الإسلامي ـ بيروت ١٩٨٢.

٧٠ ـ محمد كرد علي: خطط الشام، جـ ٥، جـ ٦ (طبعة جديدة) مكتبة النوري ـ دمشق ١٩٨٣.

٧١ ـ د. محمد ماهر حمادة: الوثائق السياسية والإدارية في الأندلس وشمالي أفريقية، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ م.

٧٢ ـ د. محمد ماهر حمادة: وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٩٨٢.

٧٣ ـ د. محمد محمد مرسي الشيخ: الإمارات العربية في بلاد الشام في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلادين، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ الإسكندرية ١٩٨٠.

٧٤ ـ د. محمود سعيد عمران: الحملة الصليبية الخامسة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ الاسكندرية ١٩٧٨.

٧٥ ـ د. محمود سعيد عمران: العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، مكتبة كريدية ـ بيروت ١٩٨١.

٧٦ ـ د. محمود سعيد عمران: القادة الصليبيون الأسرى في أيدي الحكام المسلمين ٤٩٣ ـ ٥٣١ هـ، ـ ١١٠٠ ـ ١١٣٧ م دار النهضة العربية ـ بيروت ١٩٨٥.

٧٧ ـ د. مصطفى حسن محمد الكناني: العلاقات بين جنوه والشرق الأدنى الإسلامي ١١٧١ ـ ١٢٩١ م، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ الإسكندرية ١٩٨١.

٧٨ ـ ميشيل أماري: المكتبة العربية الصقلية ـ نصوص في التاريخ والبلدان والتراجم والمراجع ـ ليبسك ١٨٥٧.

٧٩ ـ نفيس أحمد: الفكر الجغرافي في التراث الإسلامي، تعريب: فتحي عثمان، دار القلم، الكويت ـ الطبعة الثانية ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨ م.

المصادر والمراجع الأجنبية

٨٠ - Atiya, A.S. The Crusade in the later Middle Ages, London 1938.

٨١ - Atiya, A.S. Crusade Commerce and Culture, London 1962.

٨٢ - Cahen, C.la Syrie du Nord a l'Europe des Croisades, Paris 1940.

٨٣ - Conder, C.R; The Latin kingdom of Jerusalem 1099 - 1211, London 1897.

٨٤ - Delaville le roulx, G. les Hospitaliers en Terre Sainte et a Chypre. Paris 1904.

٨٥ - Deschamps, P; la Defence du Royaume de Jerusalem 2 Vols, Paris 1939.

٨٦ - Deschamps P; les Chateaux des Croises en Terre Sainte, 2 Vols, Paris 1939.

٨٧ - Dozy R; Recherches sur l'Histoire et la litterature de l'Espagne pendant le Moyen Age (2 vols) leyde 1881.

٨٨ - Dozy, R; Histoire des Musulmans d'Espagne, 3 vols. éd. Lévi-Provençal, Leyde 1932.

٨٩ - Faris, N.A; The Arab Heritage, Princeton 1944.

٩٠ - Farmer, H. G; A History of Arabian Music to Th XIII Century, London 1929.

٩١ - Grousset, R; Histoire des Croisades et du Royaume France de Jerusalem, 3 vols. Paris 1934.

٩٢ - Kantorowicz, E; Frederick the Second 1194 - 1250 London 1931.

٩٣ - Kohler, C; Melanges pour servir a l'Histoire de L'Orient latin et des Croisades, Paris 1906.

٩٤ - Lane-Poole, S; Saladin and the Fall of the kingdom of Jerusalem, New York - London 1898 (S.E. Beirut 1964).

٩٥ - Lévi-Provençal, L'Espagne Musulmane aux XE siecle, Paris 1932.

٩٦ - Lévi-Provençal, Histoire de l'Espagne Musulmane, Paris 1950.

٩٧ - Richard, Le Royaume latin de Jerusalem Paris, 1953.

٩٨ - Runciman, S; History of the Crusades, 3 vols. Cambridge 1951-1954.

٩٩ - Stevenson, W.G; The Crusades in the East, Cambridge 1907. (S.E. Beirut) 1968.

١٠٠ - Thompson. J.W; Economic and Social History of the Middle Ages, 2 vols, New York 1928 (S.E. London 1959).

١٠١ - Wiet. G; L'Egypte Arabe-Histoire de la Nation Egyptienne, IV, Paris 1937.